الحبيب السائح

مذنبون

لون دمهم في كفي

رواية



مـذنبـــون

لـون دمـهـم في كـفـي

مـذنبـون لـون دمـهـم في كـفـي

رواية

الحبيب السائح



الـنـاشـر: دار الحـكـمـة

لـلـطـبـاعـة والـنـشـر والـتـرجـمـة والـتـوزيـع

الإيداع القانوني: 2008-4616

ردمك: 7 - 15 - 842 - 9947 - 978

الجزائر - 91، شارع ديدوش مراد

الهاتف/الفاكس: 92 30 71 21 213+

Email : dar_elhikma@yahoo.fr

الطبعـــــة الأولـــى 2008 / عـدد النســـخ 1000

إخراج: دار الحكمة

الحبيب السائح

مذنبون

لون دمهم في كفي

رواية

"وما دامت هناك شفاه تقبل وعيون تبصر

فإن هذا الكتاب سيبقى وسيهب لك الحياة"

قول هندي قديم.



الفصل الأول

1

بنهاية سنة ألفين وثلاث الجارية يكون مر على الحادثة أربعة أعوام؛ فلا بد إذاً أن تكون وقائع كثيرة صارت إلى الابتذال. نحن الجزائريين ننسى بسرعة. فذلك شيء من المزاج الخاص.

طيلة تلك الأعوام، ظللت أركّب ما كان ذا صلة بالمذبحة وما تلاها كأجزاء لعبة الصبر، مثلما أنقش لنجاة خزانة من الخشب الرفيع، من خلال تفاصيل اجتمعت لي لاحقا كانت من خالتي ومن بوركبة، من الزهرة ومن حليمة، من الضابط لخضر نفسه، من المفتش حسن الذي كان تردد بعد ذلك على مشغلي لأصنع له عناصر لمطبخ بيته، من زوجتي أيضا، وحتى من ميمون، إن لم يكن بوعلام! من عمران وغيرهم، ومن تصوراتي وظنوني. فانحفر ذلك كله في خاطري كوشم أمي على ظاهر يديها وعرقوبيها.

غير أني لن أنسى أن فلّة كانت، قبل ذلك، قصة عشقي المجنون المذنب والمخجل.

أذكر أنه لم يكد يمر علي يوم من غير أن أكون عدت إلى تلك الأوراق، التي تركها رشيد مصفوفة كأنها معدة لأن تكون كتابا، وجدتها يوما على مكتبي الصغير داخل مقصورتي قال لي عنها أحد عامليّ إن شخصا دخل المشغل في غيابي وسلمها إياه أمانة ثم انصرف.

وكنت ما صعدت إلى السطح، آناء شعوري بالاكتئاب، إلا سفعتني وحشة المدينة القديمة، التي طالتها في عمقها وقائع العنف. فرحت أمسّحها إلى أسفل صامتة مستسلمة، كامرأة يئست لقضائها. فاستعادني ذلك صورا من تاريخها المنسي.

وهز وجداني تذكاراتٌ من ساعاتٍ أشدّها وقعاً كانت تلك التي فضّ غشاءَ صمتها نبوُّ الأعيرة النارية: طلقتان على الأقل مات صداهما على جدران بيتي. فلم أجب زوجتي حورية عن ذعرها قائما مجتاحا تحذيرها المهزوم أن أتريّث؛ لأن الداعي كان قويا قاهرا.

فلقد لبست ما ستر وسحبت مسدسي فعبأت بيت ناره ثم أزحتها بلطف عن وقفتها فارتبكت بباب الغرفة في لباس نومها الرقيق مضطربة الجسد مكمّمة بيدها على شفتيها مترددة أن تنطق كلمة أخرى وتخطيتها مشوش الذهن تصعق مشاعري تلك الصور من الدم لا تزال ذاكرتي ملطخة بلون منه في الرواق على الجدران في الحوش وفي أحاسيسي.

كانوا ثلاثة مضرجين في دمائهم، نحورهم ممزقة.

وتذبذب في أغواري صراخ المرأة الذاوي المتناهي من مكان ليس بعيدا. شيءٌ جبّار حوّلني كتلة فدفعني دفعا نحو الصوت المستغيث، مرتوق اللسان بخيط الروع عن نبس حرف. فلم ألتفت إلى حورية إذ تعثرت خلفي في الرواق ولا رددت على ندائها المحزوز بالارتعاب في صحن الحوش: أحمد، لما ذا السلاح؟ إنها قضية الأمن.» واقفة ململمة ضعفها السافر بقبضتها مشدودة على سترة نومها عند صدرها. فأغلقت الباب البراني ورائي وركضت تحت سنا البرق يشقّق الظلمة وقصف الرعد يغيّب الصوت الفاجع.

قالت لي مرة واحدة، في لحظة فزعها من مقتل الإمام، إنها خافت دائما أن تفقدني. ولم تكن اعترضت علي يوما في أمر عوّلت عليه. كنت أعرف أنها راضت نفسها بأني سأخبرها بما حدث حالَما أعود، لأنها ما عاشرتني إلا مسامحا. وما واجهتها، في نوبات غضبي، إلا بما هو عابر. لذلك، لم تحرّك لسانها إذ كنت خرجت؛ ليس خوفا مني، لكنِ التزاما منها بمقتضيات أعراف مدينةٍ مزيجها من قسوة البدو ونبل الحضر.

وعلى نور الرواق المتسرب كانت فتحت باب غرفة نجاة تتفقدها فألفتها سابحة في سبات عميق فسألتها كأنها تطلب ذلك إلى نفسها: هل تستطيعين أنت أن تخبريني عن مصدر الرصاص؟» ثم سحبت خلفها الباب محاذرة. وبين شرشفيها تلمستْ دفئا في نهدها فذكّرتها الحرارةُ الجسدية الباقية بمطر آخر كان خارج الغرفة هطالا

وهي بين أحضاني أروي لها، على تساقطاته المتلثّمة زجاج نافذة غرفتنا الزوجية، أنها كانت لما تزلْ صغيرة يوم شاهدتُ أباها أردى بأعيرة نارية عسكريا من المظليين.

حدث ذلك قبل واحد وأربعين عاما؛ يوما واحدا على وقف إطلاق النار. فسألتني إن كان ذلك أفزعني فأجبتها أني لم أهرب كأمثالي من الأطفال؛ بل تابعت واقفا صامتا ترنّح العسكري الذي أخرج مسدسه وصوب ولم يطلق ثم تهاوى. وقلت لها كان مطر أول الربيع ينزل بحزن. لكنها كانت قبل ثلاثة أعوام وجدتني ترددت مغيظا محزونا أن أصف لها مشهد المذبحة وبرك الدم على بلاط الغرفتين وفي الرواق داستها أقدام مرت بزفير من الحقد ليلا، دمغات آثارها لا تزال كأنها على قلبي.

كان الشارع موحشا بأنوار مكبوسة، وكان صدري مفتوحا لأنفاس ركضي لا أشعر بأي برودة وقد ألصق سيل الخريف الليلي على جلدي ما لبست فانتابني شعورٌ بأني تحولت حصانا لولا أن العويل المتناهي إليّ لم يكن من أصوات الخيول.

لـمحت شدفا ففتحت صمام مسدسي متوقعا أنه كان سيقاطعني لكنه انحرف فجأة مختفيا في الدورة فأعدت الصمام إلى وضعية الإغلاق لا أحيد درجة عن مساري نحو الصوت الذي صار متصدعا.

وصرصر على يساري بابٌ فتح أو أغلق فلم ألتفت مشددا قبضتي على أخمص سلاحي، ماسورته إلى أسفل، إصبعي على

اللسين، يضيء لي برق رجرج بعده رعدٌ فتردد في سمعي صوت حورية: أحمد، لما ذا السلاح؟ إنها قضية الأمن.» فرميت من فمي، كما تحت مرش، عبات الماء المنهمر أسمع نواح المرأة تنزّل إلى النشيج فتذكرت أنه في فجْر ليلة سابقة، قبل ثلاثة أعوام، انسفك دم والد رشيد وأمه وأخته.

توقفت على بعد خطوات منها، تنتظر على يأس، مهيئا مسدسي ذا الخمس عشرة. ركزتها؛ كنا اثنين كما في ميدان معركة بخصمين، شعْر رأسي بتسريحة عسكرية، تواجهني شبه عارية. ففرددتُ: اقتص منه رشيد! انتحبي الآن كما اللائي نوّحن فجائعهن في أكبادهن! وذوقي من غصة شعورك بأن ربك تخلى عنك في عراء الندم أمام أطياف غزالة والطيب بن العربي وابنتهما مبروكة».

وتخضّل شعوري بنحيب عجوز وقفت عليها مرة نادبة، بالفحم تطلي على خديها ورقبتها ومفاصلها مبحوحة الترديد: ذبحوه، ذبحوه.» ثالمة بأظافرها وجها ناضبا لا يبين فيه دم من فحم مذرية بليّتها إلى السماء قبل أن تتهاوى إلى الخلف بلا أنفاس قاضية كمداً على ابنها المغتال.

إذ تحركت نحوها أصدرتْ أنينا فرم قلبي في شارع صار فريسة لأنياب ليلٍ موحش. كانت في سترة نومها الرقيقة لاصقة بجلدها. فبيديها راحت تنتر شعرها ضاربة على فخذيها لاطمة وجهها مذبوحة الصوت: ولد الطيب قتَل ولدي».

صلبني أمامها ترددي. لا أدري ما أفعل. وقلت في صمتي:

اندبي.» يراودني نزوع إلى أسف على أني لم أحذّرها؛ نبلاً مني لما عشناه من شغف. لكني تذكرت عهدي المقطوع لضميري بأن لا أنسى شيئا من ظلم ابنها أو أخون ذاكرة مقتوليه. فتردّيتُ: ابكيه الآن بدم الندم.» فإني شعرت كأن نذالة كانت ستُرْخص روحي.

لم أذكّرها بشيء. كانت أمامي في خلاء فاجعتها تحت المطر في قلب الليل تقول لي بنشيجها ما فعله رشيد بحق ابنها الذي رصده كذئب لم يعرف الجبل مثله ثم نزل عليه قدَراً.

ففي القبو كان قطع لي: لن ينجيه من نقمتي عفوٌ، ولو طُليت صحيفة سوابقه ببرنيق الساسة جميعا أو أعاد القضاة تدوين أفعاله بمدادٍ غير الدم الذي سفكه».

وفي المقبرة أقسم لي أمام أرواح أمه وأبيه وأخته على أن يتعقبه حتى يدركه. ثم توجع لي في صبيحة اليوم الثالث من نكبته جافّ الحلق قاسي الصوت منقبض القلب: أحمد خويا، ما ذا بقي لي بعدهم؟».

كنت عزّيته بأني بقيت له أنا وأهلي، وبقي له بوركبة صديق أبيه. فرد عليّ بقدرية محارب: إن كان هناك رب ابتلاني بهذا فإنما ليكلفني أن أظهر عدالته هنا، في هذه الدنيا.» فلم أعقّله لأن غليانه الباطني كان أقوى من أي إحاطة. ثم عاهدني وعيناه تتخطيان حدود حزنه: ما حييت، لن يفلت مني.» ومن خلف ستار الثأر نطق لي: أرى لون دمه في كفّي.» بينما ملامحه بصرامةٍ هي لضباط بقيت لهم من حربهم معركة واحدة بمصير واحد: أن يخرجوا منتصرين أو مقتولين.

ثم غادرني إلى بيت بوركبة.

لمست معصمها فانتبهت إليّ وصاحت حاملة عليّ، كحيوان جريحٍ، تضربني بقبضتيها على صدري على بطني. فطوّقتها بذراع، أغرس مسدسي في خاصرتي. فانتحبت: قتلتموه، قتلتموه».

فصررتها إلى صدري بذراعيّ معاً ولم أكلمها أستنشق رائحة بشرتها كأنها لا تزال هي هي، أحس جسدها كما عهدتُه على امتلائه لم يرهّله العمر إلا قليلا. ولكني وددت لو بصقت.

ثم ثارت تبغي أن تعضض على وجهي فجذبت شعرها من خلفٍ وأمسكت حركة رأسها. فتخبطت فازداد جسمها لصقا بجسمي. لعلها تكون أحست هي أيضا سريان حرارة مذنبة أشبه ما تكون برغبة متبادلة في اغتصاب. وانتحبت: خلللييني أندب».

ضغطت صدرها على صدري فتصعّدت أنفاسنا وشهق نهداها؛ لطالما أخذتهما بالشدة ذاتها حين تُغضبني ودعكتهما بقبضتيّ لما كانا لا يزالان نافرين وأحيانا هصرتهما ورمرمت حلمتيهما بين شفتيّ هذه بعد الأخرى وعضضت إحداهما حتى حدود الألم فتأوهت فحضنت أحدهما في كفي ومسدت عليه كما على رأس قطة.

كان يجب أن أرفعها وأضعها مرة أولى وثانية وثالثة لا أسرّح عنها سناً واحدة من مسكتي إلى أن توجعت خائرة الأنفاس ناشجة مثل طفلة تشكو قهرها وحننت بخدها الذي يغسله المطر على خدي: أحمد خويا، آه.» وبكت وقالت لي شاهقة: ليتك أنهيت حياتي في تلك الليلة».

حزْت في ما أقول لها، لكني سرسبت يدي عبر ظهرها الطري الأملس إلى قفاها وضممتها قوياً أهجع فيها صعقات اضطرابها وهمست لها: فلّة، لندخل الآن».

2

على غير العادة، فإن بوركبة نفسه كان هو الذي فتح قهوته منشغلا بإعداد اللوازم الأولى قبل وصول الخادم إذ دخل ميمون ووقف عند المصرف. فالتفت إليه متعجبا مكتفيا بهزة من رأسه ردا على سلامه. فرمى في الفراغ بلا قناعة قائلا إن الطلقات النارية التي أعقبها الصراخ أعادت إلى ذهنه صورا من أيام الخوف التي امتنعت خلالها صلاة الصبح جماعة في أكثر من مسجد ومصلى. وأخبره أنه كان هو من أغلق خلفه باب المسجد.

لم يكترث له متوليا عنه يُعد قهوتين متحدثا كأنما لشخص آخر: يكون قفز من سطح إلى آخر في حركة لا يتنبّه لها كلب.» فتساءل ميمون في سره: كيف عرف إن لم يكن..؟» وأضاف ملتفتا إليه بغتة: رفعت له فلّة سور حوشها بمتر وجددت الأبواب

والشبابيك تحضيرا لنزوله من الجبل.» ثم سأله مخرجا أصوات كلماته من أنفه: هل تعرف ما معنى العفو السياسي عن قاتل سفيح مثله؟».

فبحلق إليه بلا جواب. فجذب نفسا أخيرا من بقية سيجارة لم يطفئها في المنفضة كعادته؛ بل سحقها على المصطبة الخشبية التي جددها قبل عام بعد أخرى قديمة يوم رُفعت تصعّدت رائحة النتن وظهر ما كانت تخبئه مما تهرشم من الفناجين والكؤوس وزجاجات المشروبات الغازية ومن سداداتها الحديدية ومن ورق علب القهوة والسكر والحثالة وحتى الشمة في المساحة الفاصلة بين المصرف وبين الثلاجة الكبيرة القديمة ذات الأبواب الخشبية الثقيلة من النوع المستعمل في الحانات فكان ذلك سببا في طرد النادل السابق.

ثم أوقد سيجارة تالية ونفث مُسقطا نظرة حنق على ميمون: العفو عنهم يعني أكْل الجيفة ولحم الأموات! عرفت الآن؟» فلم ينطق محركا رأسه أنْ نعم. فانتهره: أنت لا تعرف شيئا! لم يدمر هذا البلدَ غيرُ دسائس ساسته وحماقات قادته.» وبسط يده القوية على سطح المصرف يكبسه بنبرة ساخرة: من علامات الساعة أن يتحول شعب بأكمله إلى الصعلكة! ومن دلائل الخراب أن تؤول الدولة إلى مسخرة! هل تسمع بقانون أو شرع يبرّئان المذنبين من غير محاكمة؟» فنفى مرة أخرى. فدار عنه بمسحة ساخرة: ويقولون الشعب؟ طز على شعبهم».

وتناول قطعة سكر هرسها بين أضراسه الاصطناعية. فكز ميمون فكيه. وبحركة خاطفة قدم له فنجان القهوة فوارا وأمره:

اشرب! أتباع الساسة جميعا ليسوا سوى قطيع.» فاعتذر. فأومأ إليه بعينيه القاطعتين نحو الفنجان. فوضع السكر وحرّك.

فتغمز إليه: أبكرت.» فرشف ثم قال بلا ثقة: القلق يا سي الحاج.» فبسط يديه معا على المصرف وسأله بامتقاع: ألم تدع أنت أيضا ربك أن يدمر هذا البلد بزلزال أو أن يبتليه بحرب أهلية؟» فتعجب له نافيا: أنا! أعوذ بالله. أبدا.» فزجر فيه: أجبني! لأننا جميعا عاجزون عن مواجهة ذل ساستنا.» فسمر يده على الفنجان ينظر إليه في بلاهة مطلقة.

ثم فاجأه بنغزة من إصبعه في صدره: دلّني أنت على جيفة واحدة منهم أصيب في نفس أو أهل أو مُس في رزق؟» فباعد وجهه محاذرا أن يتلقى لطمة وحرك شفتيه لأن يقول شيئا فقاطعه: الساسة، هم الذين حولوا حلم الجزائريين إلى خيبة مزمنة وغيروا طيبتهم إلى حقد ساحق وأنزلوا مشاعرهم إلى درجة الحيوانية! اشرب قهوتك.» فجرع دفعة واحدة ثم مسح على فمه ونبر بخيبة: أتمنى أن لا أنتهي كلبا.» فدار عنه في برودة ساحبا فنجانه قائلا: وهل ترى أنت في هذا البلد فرقا بين حياة الإنسان وبين الحيوان؟».

لكنه تخلى عنه إذ دخل الخادم رفقة النادل مسرعين إلى حجرة تبديل ملابسهما الصغيرة يتابعهما بنظراته المتْربة قبل أن يتحول نحو زبونين جلسا فحياه أحدهما بإشارة من يده وفعل الثاني ذلك برأسه. فتمتم: سائقو شاحنات الخطوط الكبرى! ألسنتكم بطول المساقات التي تقطعونها بين الشمال وبين الجنوب».

فيما همس أحد الزبونين إلى الثاني: أصبح هنا! أعرفه مذ دخلت أول مرة هذه القهوة التي كانت حانة فرْقع بابها بطلقات من رشاشه الذي نزل به من الجبل من غير أن ينتظر ترخيصا له مثل بقية الجنود الذين استفادوا من حانات الأقدام السود أياما بعد الاستقلال حولوها إلى مقاهٍ ومحلات للتجارة وغرف للنوم».

وقرب منه وجهه أكثر مضيفا: شرب من كل أنواع الزجاجات عبة إلى أن بلغ ذروة السكر. فصعد مترنحا فوق المصرف نفسه ثم أطلق من رشاشه عيارين أصابا السقف بخدوش فرددنا: تحيا الجزائر! فعرض علينا جميعا شرب دورة الدار التقليدية. يومها كنت من بين المحظوظين؛ لأني ذقت لأول مرة شراب الويسكي».

ثم تراجع قليلا من غير أن يقطع حديثه: لكني لم أنس صوته قائلا بحرارة: هذه.. أملاكنا! هذه.. أرزاقنا! واقفا ثابتا وكأنه لم يشرب جرعة! وسكت لحظات وسط إعجاب الجميع. ثم تنهد واضعا أخمص رشاشه على ركبته وحذرنا بصوت ثخين: إياكم أن تنسوا أن من أخرجكم من حياة الكلاب، التي كنتم تعيشونها تحت أقدام المحتلين الفرنسيين، هم الرجال والنساء وحتى الأطفال وكل الشجعان الذين لم يعودوا في هذه الدنيا! فغمر الحانة صمتٌ بدده بطلقة من سلاحه وصاح: لكن اليوم يوم فرح! وقفز إلى الأرض. عاش عنيدا صلبا ومشاكسا قاهرا أعتى الشرّيين قبل أن يحوّل فجأة حانته إلى قهوة بعد عشرين عاما ويحج».

كان الزبون الثاني، وقد وقف النادل عليهما، لا يزال مشدود النظر إلى بوركبة مرتكنا إلى أقصى المصرف على هيئة موحية بآثار من القوة والصلابة وقسوة الضباط باديا كشجرة نافضة تأبى أن تعرى غير منشغل بميمون الذي اقترب منه وقال له: أخبرني المنور بعد الصلاة أن الطلقات الأولى كانت من مسدس آلي وأن الطلقتين المتأخرتين كانتا من بندقية صيد وأنه لما فتح باب حوشه لمح شخصا خرج من عند فلّة تحت المطر». فسأله ببرودة: وهل قال لك إلى أين اتجه؟» فأجاب فورا: صعد مع الشارع الذي يسكن فيه أحمد ولد عيسى».

صمت عنه لحظة ثم صوب إليه نظرة جافة سوداء. فاعتذر له: هو الذي قال.» فاكتفى بأن نهنه متحركا وأصدر تعليمات إلى الخادم. ثم توجه نحو باب الخروج تحت أنظار زبائن متفرقين هنا وهناك متلمسا مسدسه، الذي صار يحمله خلف خاصرته منذ سبعة أعوام من بعدما رفض تسليم رشاشه يوم حجز الدرك أسلحة الصيد والأسلحة الأخرى بأمر من الحكومة.

وتجنباً للفضوليين الذين تقاطروا بالقرب من دار فلّة، فقد سلك طريقا موازية ليصل إلى بيتي بخطواته المعتادة الموقعة على إباء الخاصة وكبرياء السادة: لا تفعل مثل الرعاع! وخالف مزاجهم تسمُ عليهم! كذلك علمتني الحرب. وأقدم على ما يترددون فيه يهابوك! الكبار أعطوا دائما من أرزاقهم ومن دمائهم. واحذر معايشة القطيع فإنها تخصي! وانظر إلى ذاتك تنظرْ إليك الدنيا! وكن أنت يُصغ إليك

قلبك! وصالح ضميرك على الدوام.» كما ردد لي مرة عقب مراسم دفن والدتي.

لم يلمني يوما على ما كان بيني وبين فلّة من جنون؛ لأنه ظل يعرف أن امرأة مثلها قادرة على إغواء الشيطان نفسه! فإني أدخلتها بيت أمي أول مرة. وثمة أذاقتني لذة خطيئتي الأولى. ثم قالت لي بعد شهور إنها سمعت ممن تحدثت عن بوركبة، يرد على أحدهم ثلبني، بأن ذلك من نزقي ومن حيوية الرجال وفحولتهم. وذكّره بأنه لم يتقبل لوْم أحد من رفاقه الجنود أنفسهم خلال الحرب على ما كان بينه وبين المجاهدة الممرضة من عشق دام حتى زواجها بعد نهاية الحرب.

كنت مغمور الشعور بوجهه على انتظار أن يدق على بابي بين برهة وأخرى، مستعيدا لحظةَ أنْ حذرني: امرأة، لا!»؛ لأنها كانت جاءته إلى داره وترجّته أن لا نأخذها بذنب ابنها. فطمأنها وقال لي لما لقيني: برغم حجابها، فهي لا تزال تظهر على فتنة.» فململني الحرج. ورددت على حياء بأني ذرّيت الرماد في قلبي. فهمس لي: الحب جمرة في الصدر تظل سانية لا يطفيها سوى الموت».

فاعترفت له حينها بأني كدت أقتلها؛ شادا على أثر الرض في كتفي متألما، بالرغم من أن قفزتي لم تُحدث سوى صوت أشبه بشيء أخرس أسقطته الريح لأن حائط الحوش لم يكن عاليا. فإني كنت تحسست بيدي موضع الضربة وركزت أعصابي ثم دفعت بقواي دفعة واحدة فتلقى حائط الغرفة الداخلي ردة الباب فصاحت بفزع: شكون؟» مضيئة النور على شبحي. ولم تسترجع نفسا لتصرخ. كنت

لـممت بيد على فمها: ششششت! ششششت.» وبيد ثبّت وجهها المعصوف بالرعب في وجهي. فدورت عينيها ووسعتهما ثم عصرتهما منثورة الشعر الأسود الكثيف تبدو كأن الصدمة زادت جبينها ندىً وخديها توردا! فقلت لها طاحنا كلماتي نازلا بها أرضا: عاهرة! لو عريتك كما في السابق و....» قاطعا نطق الكلمة الغليظة. ثم ركزت بساقي ذراعيها فتململت ضاربة بركبتيها على مؤخرتي فلم تزحزحني ولا حركت شفة في قبضة يدي تكممها بيأس. فدمدمت صوتا مغموما مقهورا أخرجته من أنفها أنفاسا متقطعة حارة فتنشقتْ بالتأكيد رائحة من جسدي وتذكرتُ أنا عبق عرقها. وتظاهرت بأنها هجعت ففككت عنها قليلا فثارت فجأة تكاد تقلبني من فوقها فأمسكتها من معصميها وبسطت جسمي بثقله على جسمها العامر الساخن مثبتا رجليها بمشط قدميّ غارسا ذقني غير الحليق في ترقوتها. فتوقف رأسها عن الحركة ونبض بطنها فألصقت خدي الباردة بخدها فتنهدت مذعنة.

لم تصرخ. لعله التذكار كان أنساها ويلها! ولما يئست من محاولات عضعضتي قلت لها أحس دفئها: أذبحك بدلا منه.» وقد حال كل شيء بين عيني إلى لون الدم أرى الطفلة الناجية من المذبحة التصقت بي باكية أن لا أتركها في المستشفى وحدها.

لم تنطق متحركة تحتي بكل حرارتها حتى لم تُبق جزءا من جسدها لم يمس بقية من جسدي في ليلة باردة جدا. فلم يستجب لي نبض. فخلّيت عنها وقرفصت جنبها متمددة كأنها بُنجت. ثم إذ

أخرجت من جيبي حبلا مدت لي معصميها في خضوع راضية تقول لي بعينيها المتعبتين: افعل ما تشاء.» فقيدتها وهززتها من زنديها أسألها أن تخبرني متى سيزورها. فأجابتني هادئة: لا اعرف. اذبحني».

فخالج وجداني لون الدم فارتعشت قائلا لها بحدة: أريد لقيطك.» فردت علي مجهشة: وأنت تعرف أنه ابن زوجي.» فأربكني أني أهنتها. ثم ذكرتني: أحببتك منذ تلك الليلة التي نزلت علي فيها كسارق».

كنت تسوّرت جدار بيتها وفاجأتها أضغط بيدي على فمها كيلا تصرخ. ثم كممتها بمنديل كبير جئتها به هدية ووشوشت لها: نبغيك يا فلّة المهبولة، نبغيك».

وأضافت مغمضة عينيها: ليلتها أحسست نفسي امرأة.» وسألتني ما ذا كنت سأهديها قبل أن أقتلها. فشعرت بتضعضع في مفاصلي. ولكني قرّبت فمي من فمها واضعا فوهة مسدسي فوق نهدها الأيسر أتوعدها: طلقة واحدة من هذا.» فشهقت كأنها لرغبة أخيرة.

3

فلمـا فتحت لبوركبة باب بيتي ففاجأني قائلا: عفو الساسة عن القتلة، ذنب أكبر لا بد أن يقاوم.» كان ميمون تسرّب بين الفضوليين المتوقفين شتاتاً على الرصيف مقابل بيت فلّة المطبق بالصمت. وتصمّغ مثلهم مفروما بالتردد بين الانصراف وبين المكوث كيما يتأكد مما يؤثث به روايته حين ينقل الخبر. كان الرذاذ توقف تماما. وتسمّع لمن قال للواقفيْن جنبه: لا بد أن جثته تكون نقلت إلى المستشفى.» فتساءل أحدهما: ولما ذا المستشفى؟» فأجاب الثالث: ليشرّح قبل أن يدفن.» فنبر الأول بسخرية: يدفن؟ في قبرك أمك».

فسرعان ما نشبته أصوات صبيان ونساء، على حوافي بعض السطوح وفي الشرفات والنوافذ، أشارت بعضهن إلى أسفل فهوين

جميعا بأبصارهن يتابعن نزول دركيين من سياراتهم. فعاين أنهم غير متوترين ولا مشنجين أيديهم على مسدساتهم الرشاشة. أعقبهم رجال الحماية المدنية في سيارة إسعافهم الصفراء متبوعة بسيارة للشرطة قفز منها أعوان بزيهم الرسمي حرروا المحيط القريب من البيت. فدخل الضابط لخضر رفقة دركييْن ومن ورائهم أربعة من الحماية المدنية.

فمن النقطة التي وقف فيها أسقط رؤيته مستقيمة على الباب بين مقدمة سيارة الإسعاف وبين مؤخرة إحدى سيارات الدرك، متفكرا في أمر مغادرة بوركبة على تلك العجلة مرددا: كأنه تذكر شيئا خطيرا نسيه! هو يعرف لا محالة أني رأيت ولد فلّة دخل بيت أمه بعد إعلان العفو وتحته سلاحه فلم أخبره. لذلك كان غاضبا علي».

وتبسم لمن سمعه تنافخ: كنت سأقتل ولد الفاجرة بيدي وأبصق عليه وأنبش قبره.» لكن صمتا هشا أطبق إذ انفتح الباب فخرج الضابط لخضر ومن ورائه رجال الحماية الأربعة رافعين محْملا أدخلوه سيارة الإسعاف، فيما ظهر الدركيان يسعفان امرأة على ركوب إحدى سياراتهم. فنطق من كان قريبا منه: هي، فلّة.» فدوّت صفارة إنذار.

وذكّرني بصوته الصارم، ظناً منه أني شاركت مع رشيد في العملية: أقسمنا يمينا أن نسنده في معاقبة السفيح! لما ذا تخذلني؟» فاعتذرت له منعّما صباحه. فلانت نظراته الجليدية، واقفا أمامه، بشعري القصير المسرّح إلى الخلف كعسكري يخرج لتوه من حمام،

وبشاربي الكثيف المحكم القص، وبذقني الذي بشعر يوم؛ أحْيي في قلبه بلا ريب جمرات من إخمادات زمنه. لعله لذلك قال لي: تعجبني في الشخص شمائله الرجولية».

كان يجب أن تمر شهور كيما أدرك أنه تمثلني إياه بقسماته الرجولية الصارخة، التي ترغبها النساء، فراح ذهني إلى صديقته الجندية الممرضة.

دعوته إلى الدخول، بحركة عسكري وانضباطه، لأنه أحب ذلك مني، فنظر في عينيّ قائلا لي بإشعاعه الذكوري: لا يزال يظهر عليك أنك ثلاثيني.» فابتسمت له بعزّ النجل، وكنت جاوزت الخمسين، أفكر كيف أصوغ له ردا على مجاملته بأنه هو السبعينيّ يبدو في عمر توقف عند الستين.

قلت له جزافا: أنتِ الشباب.» فشد على يدي نافيا بحركة من رأسه باحثا عن شيء خفي بين ثنايا غضوني: بيننا مسافة جيل.» وعانقني بإعزاز صديق لصديق. فطفح قلبي إكبارا له: نحن بقدر ما نحب رجلا مثلك نهابه.» فرد عليّ سافِر المشاعر متصدع النبرات بأنه عاش يبغض أن يُسقط على أحدٍ ظل أبوّة رفض أن يسلطها عليه قادته أنفسهم خلال الحرب. وتحسر لي: للأسف، كثير منهم أضاعوا كل شرف وصاروا محتالين.» وسألني إن كنت أرى فيهم شيئا يميزهم من الصعاليك غير ألبستهم التقليدية أو الأوروبية. فتبسمت له مصدّقا: لا شيء!».

وتذكرت وجهه الذي فاض غضبا، في حفل عيد، ثورة التحرير، إذ تلعثم المسئول الحزبي كثيرا في خطابه الركيك خاتما بدارجة مبتذلة: المجاهدين اليوم واجبهم يحافظوا على هذا المشعل باهش يمدوه غدوة من ذاك للجيل إللي يجي من بعد باهش تستمر الثورة». فنهض صارخا فيه: حنّاك! المشعل ديالك احشه في طيزك.» وأخرج مسدسه صارخا: لما ذا غدا وليس اليوم؟» ثم أطلق طلقتين في الهواء فانفرط الجمع ولهث المسئول ليختبئ.

فشددت على ساعده الواثق لم تطله رخاوة الشيخوخة وأبلغته أني فعلت ما كان سيفعله أي رجل تجاه امرأة فقدت ابنها وشرفها. فطمأنني على أنه كان واثقا من ذلك. وأضاف: عدالة ربي وربك أن يلقى السفاح جزاءه في المدينة التي أدماها.» ثم فاجأني بانقلابه على نفسه مغصوصا: عمري بسبع أرواح، مثل كلب.» فتخضخضت. وأمسكت بيده أكاد أقبّلها معتذرا: العزّ، أنت سيد الرجال.» فوضع راحته على صدري: أنا الذي كان يجب أن أموت يومها، وليس سي عيسى».

وهش برأسه مبددا غصته مغمضا عينيه لدوار أصابه. فمد يده فقربت منها زندي فتماسك معتذرا لي عن الجلوس يطمئنني على أنه أمر عادي زائل. ثم روى لي متأثرا: كنت أشتبه في أن المعبر ملغم، لذلك ترددت. لكننا كنا ملزمين بأن نبلغ مركز القيادة قبل طلوع الشمس لتسليم بريد عاجل من دون أن ننحرف إلى طريق أخرى تُعرضّنا للرصد. فطلب سي عيسى عيدانا بريناها أوتادا وربطنا في

أطرافها خرقا ومناديل للاهتداء بها عند الإيعاز بالتقدم على آثاره. فلم يغرس منها، مكان كل قدم نقلها، سوى أربعة أو خمسة حتى دوّى الانفجار! لن أنسى ما حييت ومضة اللهيب والدخان المترب والصمت العميق الذي أعقب».

ثم هزني: أكبر فيك هذه الجرأة التي كانت لأبيك.» فأخبرته أني إذ كنت وصلت وجدتها باكية نادبة. ووصفت له: كأن عفريتا فعل الفعل واختفى.» فوارب لي دهشة. فجزمت له أنها الحقيقة. فسكت ماسحا من على أنفه قطرة مطر سقطت من ظلة الحوش، التي كانت أشعة الصباح الخريفية تخلل قصبها.

وأشرت إليه بالدخول إلى صالة الضيوف فاعتذر لي: هواء هذا الصباح الخريفي يشْرح القلب. وعلى السطح يكون منعشا أكثر.» وتقدم يسبقني صاعدا الأدراج من غير عناء. فتمتمت من خلفه واقفا: كأنك ستينيّ فعلا.» فالتفت إليّ في نهايتها وتبسم.

إذ وضع يديه على حافة جدار السطح زفر وراح يمسح حي المحطة العتيق. ثم التفت خلفه فبدت له عن يمينه تلك السهول الشاسعة تمتد حد البصر. وعن شماله كانت حقول الزيتون المهملة لا تزال مصفوفة مستطيلات ومربعات في عناية ميليمترية تصعد وتهبط في اتجاه الغابة المحيطة بالضاحية.

لم يدرْ نحوي، لما قدمت له فنجان القهوة، يسألني إن كنت أعرف كيف وقع الخراب. فسكتّ. فأجاب مشيرا برأسه جهة الحقول: بسبب التفريط في أنواع نبيلة من الشجر فحلّت نقمة الطبيعة

غضبا من الله».

ثم أشعل سيجارة وحوّم يده نحو الزيتون يطلب إلي أن أتمعن: ها هو شجر الجنة والسلام يندب موته.» فأفسحت له بصمْتي واقفا جنبه، أحسه يبكي خرابه الداخلي، أرى قراميد بيوت الحي غسلتها أمطار الليلة الماضية، ثم نطقت له معكر المزاج بصورة الموت الصامتة: كان وجهه مشوها بفعل رصاصة أصابته في الجبهة فهرشمتها وأخرى في الأنف فشرذمته».

فصدّفه سكون سميك. فقلت أيضا: أمه نفسها كانت لن تتعرف عليه لولا أنه قُتل في الفراش الذي هيأته له بيديها.» فدار نحوي مشيرا بسبابته إلى أسفل الحي قائلا في هروب حر: قنبلة يدوية هناك، حيث كانت حانة عسكر اللفيف الأجنبي. خمسة قتلى وثلاثة عشر جريحا».

فتذكرت مشهد أطفال الكشافة السبعة الذين مزقتهم قنبلة مفخخة في مقبرة يوم عيد. وأضاف: كْلابو، قُضي عليه في الشارع نفسه.» فانفعلتُ لوجه فلّة تحدثني في فراش الخطيئة قائلة: بوركبة هو الذي كان أصدر الأمر بقتل والدي».

ونظر إليّ بطرف شاقا لي ابتسامة نثرها فوق البيوت إلى أسفل قائلا: ذكي وظريف.» فلم أفرز أكان يقصدني أنا أم رشيد. وأكد لي أن والدتي هي التي كانت ألبست الفتى الفدائي الملحفة فخرج من دار أهلها في المدينة متنكرا وغرس فأس حطب في رأس كْلابو فترنح بها في الشارع الرئيسي أمتارا قبل أن يتهاوى.

فتعجبت له: والدتي.» فرد علي بأننا من ملة يقتات منها الإباء. وسوّغ لي مقتل كْلابو بتعاونه مع الاستخبارات الفرنسية. وقال لي عن الفدائي: تحت التعذيب، أقر بأنه تلقى الأمر مني. ولكنه لم يبح بكلمة عن والدتك إلى أن لفظ آخر أنفاسه».

وبقناع نسر استقام فمسّح بيد على شاربه الأشيب وبيده الثانية مرر على شعر رأسه القصير المشتعل، كضابط لم تتلف أعوام الخدمة شيئا من شدته العسكرية. وحرك فكه يقول لي بقطعية: ولد الطيب بن العربي أنجز عملا خاطفا قاضيا ومنتهيا يذكّر بتلك العمليات الفدائية في حق الخونة وغلاة العنصريين من العسكر والمعمرين ومدنيي إدارة الاحتلال في المدينة.» فإنه كان هو مهندس العمليات القتالية الأولى في المدينة قبل أن تضيّق عليه الاستخبارات مجال التحرك ليلتحق بالجبل.

ثم تراجع عني بخطوة وطلب إلي في نبرة أمر أن أروي له المشهد. فكسرت نظراتي متبسما يجتاحني شعور بذنب التحفظ تجاهه.

كنت أعرف أنه يجد لي سبعين ذريعة، كما خصاله مع من يخلص لصداقتهم، لِما أثار عندي حنين الرجال إلى النساء فأخرجني إلى فلّة تحت السيل في عمق الليل وحيدا بداعي عشق قديم قهّار كسح في كياني كل وازع.

وقال لي بشجن: الرجال، هكذا.» فقد عرفَنا، أنا وفلّة، عشيقين وهي بطفل مع زوجها المتوفى عنها، فيما كنت في الثلاثين مطلّقا أصغُرها بخمسة أعوام وقد أحبتني كما لم تغرم امرأة في المدينة

برجل فأحببتها بغموض طالما أثار حرائق تذكاراتي معها.

ففي تلك الليلة جريت تحت السيل والصمت وحضنتها بذلك الغموض ولم أواسها. فعانقتني باكية حبها الضائع مع رجل مثلي جاءها في عاصفة الفاجعة. ولم أعزّها! كان يجب أن تضربني وتعضني وأن تلعنني متشممة رائحة جسدي. ذلك كله حجبت عن بوركبة قولَه.

كنت لا أدري ما أفعله بها تحت خيمة المطر ورائحة الموت.

4

وكان بوركبة إذ عاد إلى بيته أنبأته خادمته أن ابنته فوزية انتظرته ثم غادرت تاركة له رسالة إذ قرأها تبسم وهاتفها بقبول الدعوة. وفيما راحت تحضر مائدة الغداء دخل عليها زوجها خالد، الطبيب الشرعي في مستشفى المدينة، على حال من الإعياء غير العادي. فسألته حاله فرد عليها أنها أتعاب المهنة.

وألقى بنفسه في الأريكة مبديا لها سعادته أن يشاركهما والدها طعامهما. فقالت: أنا خائفة عليه لأن مزاجه ما انفك يزداد حدة.» فرد عليها: كل شيء في البلد صار يخرب الأعصاب.» فواسته بالصبر. فتبسم. لكن صوته نقعه الكدر إذ أخبرها: لما كشفت عنه تذكرت أن الله عادل. كان وجهه مشوها بفعل الرصاصتين».

فتسمرت لحظة مرددة تميمة فأشار إليها أن تقترب فضغطت على منديل في يدها مراقبة ساعتها. ومد لها راحته ثم جذبها إليه وأجلسها على فخذه وضمها هامسا: لم أر امرأة منهارة مثل أمه.» فلم تعلق قائمة إلى المائدة معدلة قربها المساند والمخدات على الفراش التقليدي صامتة.

فوضع وجهه بين راحتيه وأسمعها أنه يحس بشيء من الذنب؛ لأنه لم يكن لطبيب محلف مثله أن يجهر برأيه الشخصي، ولو كان للضابط لخضر نفسه، حول القتيل على المشرحة حتى ولو كان على وجهه المشوه دلائل من عاف نفسه وهو يموت.

وقال لها: كأني حرّضته على أن يرد علي بأنه وحش فعلا! وعدّد لي ضحاياه من العسكريين المجندين ومن غيرهم ومن أفراد الدرك وأعوان الأمن ومن النساء والأطفال والشيوخ والأبرياء. ثم أشار إليّ نحو الجثة وأضاف: هذا مِن صنْع سياسيين طموحين مكنوا للحثالة أن تتطاول على مؤسسات الدولة وأن ترفع السلاح في وجه أجهزتها الأمنية! هل كان هناك بديل آخر غير طريقة العقاب الاستثنائية التي تجنب المرور على قضاة منخورين في محاكم لا تعدل؟ مجرم كهذا لا يمكن العفو عنه قبل أن يحاكم».

كانت وقفت تماما عن الحركة تتابع روايته بملامح انقبضت فجأة. فسألها باسطا يديه على ركبتيه: ما ذا يسكن الإنسان؟» فأجابته بحيرة: أنت المشرح! ألم تعثر بعدُ في جوفه على دليل؟».

وبينما راح يفترض لها أن الإنسان هو الذي ولد الوحش دخل

بوركبة فارتمت في حضنه طفلة؛ لم تلد له زوجته غيرها قبل أن تسْلم الروح إثر مرض عاصف. فبصر في وجهها ما انفك يذكره بتلك اللحظة التي أقامته خلالها من انتحابه أمام وجه أمها الساكن وأسندته وعانقته مذبوحة الصوت: ما تبكيش بويا، ما تبكيش.» ساترة ضعفه عمن تجمعن من حولها.

ثم صافح خالد بالشدة الرجولية نفسها. وعلى الفراش التقليدي تناولوا غداءهم متبادلين ملاطفات قصيرة خفيفة. وعلى شاي بالنعناع تبادلوا جدالا وديا عن مستشفى المدينة وتدني خدماته وقلة الأخصائيين والتقنيين وندرة الوسائل وقدم التجهيزات وعن سياسة الصحة التي تنازلت لعدة أمراض أن تعود لتفتك بشرائح واسعة من السكان بفعل الفقر.

لكن بوركبة تساءل لخالد بكيد: أم أن المستشفى صارت وظيفته تشريح تلك الجثث؟» فأجابه بلا مواربة: حال أم القتيل كان يشفق منها الحجر.» وأخبره أنها كانت منهارة وأنها هذت ولم يستطع أن يجعلها تؤكد هوية ابنها، بحضور الضابط لخضر، إلا بعد حقنة كالسيوم.

فقاطعه بوركبة ممررا علبة سجائره من جيب إلى جيب قائلا: بعض الأمهات ينجبن خلائق ليست من سلالة البشر.» وأضاف قامعا رغبته في التدخين: حين تتخلى الحكومة عن محاربة الشيطان فإنه لا يُنتظر من الله أن يبعث رسولا لمطاردته.» ثم سأل: قل لي يا حكيم، كيف تتصرف أمام شخص أباد أهلك، ثم لاعتبارات سياسية يحظى

بعفو من غير احتكام إلى عدالة تجرّمه؟».

فرد بوثوق مبتسما: الشيطان ذو رؤوس! ولكن مهما يكن فليس من حق المجني عليه أن يقيم العدل بنفسه.» فنظر إلى فوزية مصرا: بل يصبح ذلك واجبا وشرفا حين تعجز الدولة عن مقاومة الشيطان.» فقالت: ليس في الدنيا شيطان أكبر من رجل السياسة».

فضحك ونظر إلى خالد بانشراح قائلا: الإنسان يقتل الإنسان لأنه تعذر عليه إخضاعه، كما يُخضع الرئيس مرؤوسيه والضابط جنوده والوزير موظفيه ورب العمل عماله والمعلم متعلميه والإمام مصليه والسياسي أتباعه. أستثنى الأنبياء لأنهم بعثوا لكسر أغلال السيطرة والخضوع! أليس كل شيء في هذا البلد يسير بالإكراه؟».

لم تعلق فوزية مالئة له كأس شايه. غير أن خالد قال: كل راية ترفع إنما لبسط السيطرة وإخضاع الجماعة.» فانشرح وجهه. فأضاف: سبب محنة البلد وموت الإنسان فيه رخصاً هو التناحر الخفي والمعلن للاستيلاء على كرسي السلطة وبسط سيطرة الزعامة».

فأسند ظهره إلى وسادة على الحائط وشرح لهما أباً لأبنائه أن حربه ضد فرنسا كانت لإسقاط سيطرة المستعمرين وأنه لم تحركه يوما رغبة خفية أو معلنة لانتزاع زعامة ما لبسط سيطرته. وقال لهما: فلم تكن مرت سوى ساعات على إعلان الاستقلال حتى نتأت رؤوس زعامات جيش الحدود وجيش الداخل من بين أشلاء ضحايا الحرب ومن جراح المنكوبين المفتوحة فزرعت من حينها بذور الفتنة الأولى بينما لم تكن درجة الصدمة التاريخية قد بدأت في النزول بعدُ».

ونظر إلى خالد منصتا ثم أضاف بحسرة: ثم ها هي حرب أخرى همجية تمزقنا منذ سبع سنين، تديرها رؤوس الفتنة من السياسيين الطموحين ومن كبار المتنفّذين الذين يتقاتلون بدمنا للسيطرة على المال العام والعقار! فمن أين لنا بحكومة قادرة على حمايتنا وصيانة حقوقنا والدفاع عن بقاء الدولة؟».

فترجته فوزية أن يهوّن على نفسه وغمزت إلى خالد بأن لا يجاريه. فسأله كأنه أنهى كل شيء: وجثة القتيل؟» فتظاهر له بأنه لم يفهم قصده. فابتسم لفوزية: لن يبقى في محفظ الجثث إلى ما لا نهاية.» فلاطفته: بويا! مهما يكن فلن يرموها أو يحرقوها.» لكن خالد أجاب باتزان: ستنقل إلى المقبرة لتدفن.» فاستنكر فجأة: مجرم يدفن جنب الذين ذبّحهم؟ أبدا! وإن حدث فلن يأنس في قبره؟» فغمرت وجه فوزية حمرةٌ لدهشتها من رد فعله. بينما لاذ خالد بصمت. فاعتذر لهما: أنا آسف! تذكرت بعض أصدقائي الذين اغتالهم السفاح».

ولما كانا يشيعانه عند الباب البراني نصحهما بأن لا ينشغلا بما سمعاه من هذره. ومازحهما بأن صلبه من عود أعوج. فابتسما مظهرين له الإعزاز. ثم قال خالد لفوزية وهي تغلق الباب: ما يُحزنه هو أن يرى المثُل التي قاتل من أجلها تنسحب يوما بعد يوم أمام جشع عصابات الريع.» وعانقها فشدت على يده قائلة: فقد أمي. فقد أصدقاءه ورفاقه». فقاطعها واضعا يده على بطنها قائلا لها بغبطة: اهتمي بهذا.» فضحكت فقبلها على جبهتها.

الفصل الثاني

1

لم أكن لأصدق أن بوعلام، الذي يحيا حياة هامشية، دخل مقر الدرك. ووقف أمام الضابط لخضر، وقد سيطر على شعوره وجه أمه. ثم رد قائلا: إنها الحقيقة يا سيدي.» مربّعا يديه إلى الخلف مفرجا قدميه على استعداد جندي.

فسأله عن مكان تواجده لحظة سماعه الطلقات النارية، متلاهيا عنه بقلم بين أصابعه، فأخبره أنه كان مارا. فترك القلم يسقط وشبك أصابعه قائلا للدركي، المتأهب في ركن المكتب لرقن محضر السماع على آلة كاتبة قديمة فوق طاولة صغيرة: كان يتفسح في منتصف الليل تحت حمام المطر.» فاستدرك له أنه كان عائدا إلى البيت.

وبعد صمت قال متضايقا: حسبت ما أخبرتكم به يساعد في التحقيق.» فتعجب له الضابط: وتعرف كذلك أننا سنقوم بتحقيق.»

باسطا أمامه ورقةً نقل منها إليه نظرات خاطفة. فتقدم بوجهه قليلا ثم تراجع نابشا في ذهنه عما حشره في مكان كابس خالَ نفسه فيه طائرا مات غما ثم خنفسة تقوقعت، معتقدا الورقة دليل إثبات يدينه.

ونظر إليه الضابط إن كان سيضيف شيئا. فتهرب ممسحا جدران المكتب العارية إلا من سبورة خشبية غير مطلية للتنشير مُحْرَسة بالتآكل ومدفأة مازوتية باردة وسياج نافذة حديدي ذي طلاء أخضر متآكل. وارتعش إذ سرق نظرة إلى الصور المستنسخة بالأسود والأبيض مكبرة ومعلقة بدبابيس، تبدو لأشخاص مفقودين أو مقتولين من غير هوية أو مبحوث عنهم، قضمتْها أسنان الزمن وأبهتتها وطأة التقادم.

ذكّره ذلك بصور مثلها كانت معلقة قبل خمسة أعوام في مداخل الأسواق وعلى حيطان الساحات العمومية وتحت كل واحدة رقم كبير بمبلغ المكافأة على التبليغ. كان واحدا من الذين وقفوا أمام صورة ولد فلّة ملصقة على مدخل مقر البلدية بمبلغ مكافأة مغرٍ جعل بعضهم يتندّر به. فسمع أحدهم قال إنه يحصّل تأشيرة وبطاقة سفر وأوراقا حمراء، يعني العملة الصعبة. وكان هو قال لأمه: ثمن بيت جديد ومصاريف عرسي.» فلم تلْعنه ولا سبّته بل تبسمت ساخرة منه. فتساءل لما ذا المكافأة على التبليغ فقط؟

لكن الضابط باغته بأنْ رفع الورقة في وجهه قائلا: تعرفه؟» ناقرا بعقب القلم على خشب مكتب نظيف فوقه هاتف من نوع قديم عن شماله وملف مغلق عن يمينه. فأحس ركبتيه تضعضعتا وبطنه تميه

ولعن نفسه الصغيرة التي أقحمته في شأن لا يعنيه ثم نطق كأنه تذكر: لحول ولد فلّة.» وكان يمكنه أن يكنيها باسم أبيها كلابو.

فسحب الضابط خيط ابتسام رقيق فأضاف: مات.» متابعا حركته واضعا الورقة مقلوبة. ثم رمى إليه ببرودة: أنت تخبئ أشياء اكثر.» فردد بصوت منخفض جدا: رضخت لها. هي التي أجبرتني. هي التي دفعتني إلى الوشاية لك. الشريرة.» فيما لم ينظر إليه الضابط مرة واحدة.

فرفع صوته بنبرة المذنب: المدينة كلها أصبحت على الخبر.. أنا سمعت دوي انفجار ثم طلقات. فتوقفت فأبصرت شبحا مرّ مسرعا لا بعيد عني. كان المطر حبالا من السماء. أصابتني رعدة قوية من العويل الفاجع الذي كان يصدر من دار فلّة! حقيقة! الجبن طبيعة في أمي وفي أخوالي. حينها عرفت أنه لا أحد كان سيموت في بيت فلة غير ابنها لأن زوجها الثاني توفي عنها منذ أعوام».

فتبسم الدركي. وانشغل الضابط لحضر بالهاتف رادا باتزان: احتراماتي.» مستمعا ومرددا بين حين وحين: أمرك! أمرك.» ثم أقفل وأمره أن يواصل. فقال إني كنت الذي أسعف فلّة، كما أخبرته أمه. ودعا عليها في سره بقطع لسانها الذي لا يصبر على سر.

لكن الضابط أعاد الورقة في الملف ومال على درج سوّاه فيه. ثم سأله: مات أو قُتل؟» فرد فورا: خلّف عداوات كثيرة! الناس يقولون كان على الحكومة أن تقدمه للعدالة.» فرفع الضابط قلمه ووجه رأسه إليه في حركة نغْز أحسها في قلبه: أنت مرتاح لقتله».

فحشر أعصابه ماسحا عرق راحتيه بطول فخذيه كي يقول بكامل جسمه: أنا لم أره منذ صعد إلى الجبل! أنا لم أفعل شيئا.» فسكت عنه ليطلب إليه أن يخمن صورة للشبح الذي أبصره. فأقسم له أنه مر في الظلام والمطر. ثم اعترف له في خجل أنه كان سكران. فعمل كأنْ لم يسمع منشغلا عنه مرة أخرى بالهاتف، فيما تبسم الدركي.

حتى إذا وضع الضابط السماعة سارع ليقول له راضيا: أمي هي التي تعتقد أن بوركبة». ثم تراجع مرتبكا: قلت لها بوركبة رجل لا يفعل ذلك.» وابتلع ريقه مبددا نظراته في كل اتجاه متمضّضا: لكنها أصرت على أن هناك من رآه، بعد ولد الطيب، يدخل دار ولد عيسى».

يعني داري! وقال: حتى فلة كانت تتوقع ما حدث لابنها.» ثم ظن أن الضابط لمح إلى سعيه بيني وبينها لما سأله عن علاقته بها. فاستلطفه: أعرفهما هكذا! أمي هي التي تدعي أن زوج فلّة كان أحد أقربائي. وهي التي تقول لي فلّة بنت أخت أمها.» فصرف عنه نظره يفتح درجا. فتذكر القط رآه مرة رفع عن الفأر قبضته المخلبية قليلا موهما إياه أنه أطلقه وإذْ تحرك أنزلها عليه فتجمد منقبضا مرتعد الأذنين منتظرا لحظة افتراسه، سارقا نظرة إلى الدركي ينقر بأصابعه الثمانية على حافة المرقن.

فنقم في نفسه على أخواله وخالاته الجذوع منهم والفروع. ثم عاد ليقول للضابط الذي كان أغلق الدرج: هي التي أوحت إلي أن

ولد عيسى وبوركبة هما اللذان دبرا لمقتل ولد فلّة، حفيدها كما تحب أن تناديه. وزمجرت فيّ بأنها لو كانت هي التي رأت ما رأيته لهرولت وبلّغت في الحين! ولكني لم أكن رأيت شيئا! حكيت لها ما سمعت فقط! فأبكرت لتعزي فلّة متخفية».

وأغواه ذلك بأن يضيف: وهي التي أخبرتني أن لحول كان أرسل إليها من الجبل ما اشترت به هي عباءة للعيد واشتريت به أنا حذاء جديدا». ثم بحركة مسرحية أطلق يديه في إعياء: ولكني لم أصدقها عندما زعمت أن من قتلوا حفيدها كانوا ثلاثة هم بوركبة وأحمد ورشيد.» غير أن الضابط لخضر قام وفتح بابا خلفيا قائلا: بلغنا إن رأيت رشيد أو سمعت عنه».

لعلني أكون الوحيد من قدّر تذمّر الضابط لخضر من شرْطه العسكري بسبب حالة الطوارئ السارية التي حولت مهمته إلى تصريف ما عجز عنه جهاز أمن الشرطة. فقد وجد نفسه يزكي، مرغَما، ذلك العداء المتبادل بين المدني وبين العسكري في نظام دولة مضبوط العلاقة على ميزان الذال والمذلول. وعاين من تجربته أنه يكاد لا يوجد من بين الجزائريين من لا ينظر إلى رجال الأمن وموظفي العدالة ومسئولي الإدارة بصفتهم أعوانا وُجِدوا، بعد رحيل المحتلين، ليواصلوا إذلال مواطنيهم وبضمائر مثلجة! فربى ذلك أشكال التذمر الأكثر تطرفا وسوّغ لرفع السلاح في وجه رموز الدولة تعبيرا عن رد فعل دفين تجاه مظاهر ذلك الإذلال المستشرية؛ ولو كان تحت عباءة الديني.

فقد خرج بوعلام غاضبا مرددا: بالتأكيد يا سيدي، بالتأكيد.» موقّعا خطواته المنهزمة على لعنات مبعثرة صبها على رأس أمه: أنت السبب في إذلالي أمام ضابطك.» وجرّح في الدركي لأنه الذي سرّحه في صمت مخزٍ باخلا عليه بكلمة "اخرج.» التي يقهر بها الفلاحون كلابهم حين يطردونها إذ أشار إليه برأسه نحو الباب من غير أن يمكنه من شرف وضع إمضائه على محضر السماع كما يفعل الذين تخضعهم أجهزة الأمن للاستنطاق؛ ليثبت لغيره أنه صار صاحب قضية مع الحكومة. وليبهر أمه بأن المسألة كانت جادة أكثر مما تصورتها أن تكون مجرد وشاية فجة للانتقام.

وندب: مغفلة، مغفلة! ما ذا سببت لولد عيسى؟ إزعاجا لم يتعد لسة ذبابة.» وعيّرها بالوصّالة. ولم يشفق على نفسه: أنت ملعون وشقي وإلا ما وجدت نفسك في طريق غير طريقك فتعثرت وسقطت فعببت ماء المطر الجاري القذر ودخلت عليها ففتحت لك فأخبرتها».

كان وجهها تلون وكأنه نُقع بسائل بُنّي فطفقت تقعد وتقوم تظهر وتختفي. ثم بربرت متوعدة لا يسمعها إلا بالكاد تطيح به رغبته كاسحة في النوم. ولما أفاق واجهته بصوتها المعنف الشاتم قائلة: ولد عيسى، كلب بن كلبة! ولا يساوي شعرة من عانتي.» وزجرت فيه ثالبة: يا جاهل، أمه الوسخة هي التي أعدت لمقتل كْلابو، جد خالك لحول، يا خايب!».

وتقددت له غيظا: بنى علي بنت أخت أمي بلا عقد بعد موت

زوجها وحرثها بالطول والعرض وعمل فيها ما يعمله سيد في عبدة.» فشد بيديه على رأسه من نقر كلماتها في دماغه قائلا بصوت متشنج: غيرتك وحقدك! لأنك عجزت عن فك فلّة منه لتقدميها لمن وعدك بمال أكثر».

فلعنته ثم هرشت فيه: ولد الطيب بن العربي، نزل من السماء أو خرج من تحت الأرض لولا جناح ولد عيسى.» ثم انهالت له على فلّة تؤنبها مثل أمّ متوجعة شاكية: ولد عيسى؟ هاه! فعل فيك المنكر ثم هجرك مثل جرباء. آه يا زمان آه! لحول، كان سيقطع نسلهم جميعا».

فكز أسنانه معيّرا لحول بالسفيح لأمه الفاسقة. وسحق إحدى خطواته: أنا الحشرة، وأنا اللقيط.» وعض على كفه ندماً على أنه لم يرفس صينية قهوة أمه لما أهانته مكشرة فيه؛ كيف يسكت ويقابلها بشرب قهوتها ببرودة نفس، ثم يخبرها كالغبي أنه رآه يجري وطلع مع الشارع فتقول له: ومن يكون يا من يفعلها في سرواله، من؟ إن لم يكن ولد الطيب بن العربي قاصدا دار ولد عيسى ليختبئ عنده.» ثم شمطت فيه أن يقوم وربْربت له أن يذهب من حينه ليبلغ الضابط. ودفعته إلى خارج الباب صائحة خلفه: يكفي أن يعرف أن في المدينة من هو مستعد للإدلاء بشهادته عن تواطؤ ولد عيسى وبوركبة مع قاتل حفيدي.» وحذرته نافخة: إياك أن يخيفك ضابط مثله».

فاستنشق نخامه وبصقه على من كانوا سببا في مهانته: أمي والضابط وأنت أيها الدركي الصغير.» نافضا كاهله من وزر يومه

الثقيل. ثم بصّر يمينا وشمالا فتوقف فجأة يرى شخصا يقطع الطريق تمثل له رشيد: أنت هو، ورأس الزهرة.» فتعقبه مثل سلوقي تراوده رغبة في أن يرجع إلى الضابط ليبلغه.

لكن فضوله قاده إلى أن اقترب من دار الإمام إسماعيل حيث قاطعه ميمون يخرج من زنقة فأمسكه من ساعده وأمره أن يمشي معه في الاتجاه المعاكس. فحاول أن يتملص فهزه بشدة: قل لي من كان معه؟» فتلفت إليه مذعورا: شكون؟» فرد عليه: لم يقتله وحده.» فأظهر له أنه لا يدري ما يريد منه. فسأله: أين هو رشيد؟» فأجابه بضحكة باهتة: رشيد! وهل كنت معه؟».

فصمت عنه حينا مخففا من قبضته عليه. ثم طلب إليه أن يخبره ما ذا يفعل بعيدا عن حيه. فتنفس عميقا ورد بوثوق: كنت في مكتب الضابط لخضر نفسه! يرضيك؟» منتزعا نفسه من قبضته تماما يواجهه بنظرة تحد. فدار عنه بتكشيرة سخط وهرول. فتبسم في ظهره بخبث قائلا في نفسه: مع من!» ومارت في ذهنه سلحفاة أمه الداجنة كلما لاعبها فأخافها أصدرت فحيحا وأخفت رأسها وذيلها وقوائمها داخل قوقعتها. وفي ركن من الشارع رأى قطا وجرذا وكلبا بين أكياس القمامة المتناثرة فشعر بغثيان.

2

بدا الضابط لخضر، في لباسه المدني، على حرج إذ وقف في باب مشغلي مبصّرا بعين رجل الأمن في أشياء الفضاء مفروزةً من بعضها بحسب طبيعتها ووظائفها. فشم بالتأكيد مزيجاً من رائحة الخشب والبرنيق. وباغت أحد العاملين نظر إليه من حلف خزانة يركب أجزاءها، فيما ولاه العامل الثاني ظهره منهمكا في عملية تمليس. واسترعته آلات زوايا وقياس ومساطر ومطارق خشبية من النوع القديم معلقة هنا وهناك على جدران غير مطلية غطتها طبقات من غبار الخشب. فانتهى إلى مقصورتي الصغيرة في ركن المشغل الخلفي من حيث خرجت فوقفت هنيهة لا أرجح احتمالا محددا لزيارته غير المعلنة. ثم مسحت يديّ في خرقة رميتها على طاولة واستقبلته في سترة عملي باشاً.

كان يجب أن يعلي صوته المضغوط بعجيج المسحج لأسمعه تمنى لي أن تكون أعمالي تسير كما أريد لها. واعتذر إذ دعوته إلى مقصورتي مراقبا ما حوله طالبا إليّ إن كنت أستطيع أن أصحبه إلى الخارج. فاستمهلته أن أصلح من شأني. ثم عدت في لباسي العادي وخرجت خلفه تحت نظرات العامل الثاني مستغربا لزميله فنبهته بإشارة من عيني إلى الانشغال بعمله.

ولما أوقف سيارته أمام بيتي اعتذر لي بود عن النزول: نتركها لمرة قادمة.» أدركت دائما أن حاجزه العسكري، تجاه شخص مدني، أخلاقيّ صِرْف. وبرغم ذلك عبرت له أنه من الصعب هدم جدار الحرج بين المدني والعسكري. فأرجع لي الأمر إلى ما رسّبته ممارسات إدارة ما بعد الحرب، وإلى ما كرسه نزق السياسيين وصلف البيروقراطيين وجشع المرتشين الذين أسسوا (الحقرة)، التي لا تعني سوى الاحتقار المذِل.

لكنه فاجأني لما أضاف: ومن العسكريين ورجال الأمن أيضا، بما حسّس الجزائريين دائما أنهم في وطن لم يعد وطنهم.» ثم نظر إلي بثقة قائلا: أعرفك تضع كلامي في مقامه.» فلم أنطق. فشرح لي أن ذلك اعتمل في ذاكرة الجزائري بما جعله يظن أن خلاصه من إذلاله يستلزم محو أثر الرموز الأمنية وتفكيك أجهزتها لإقامة دولة خالية من المؤسسات القمعية.

ثم تأسف لي: روّج لذلك ساسة مغامرون مصابون بعرَض العسكرية المرضي، واجتهدوا في جعل الجزائري لا يرى من صورة

رجل الأسلاك الرسمية إلا وجه العملة الثاني للقهر والتسلط».

كان يتحدث إلي بقلبه؛ فقد جمعتني إليه محنة البلد. وكنت مثله في خط الدفاع الأمامي عن بقاء الدولة. قلت له ذلك. فتذكر لي: أنت لم يجبرك أحد على حمل السلاح. كان يمكن أن تُقتَل.» فقلت له متذكرا يوم سلمني الرشاش: حين أتذكر أولئك الذين حصّنوا بأجسادهم جدار الوطن أجد نفسي مدينا لهم بدمي».

لم أعرف فيه شيئا ثابتا مثل عزيمته على تعقب الشر. لذلك ائتمنته. وازددت به ثقة إذ صرح لي مرة، خلال الشهور الأولى من بداية المواجهة الدموية، غاضبا: تطبيق قانون الدولة على القتلة غير كاف وحده.» فإني لم أسمعه يوما أضفى عليهم صفة دينية أو سياسية.

ربما كنت الوحيد مَن أطلعه على ما كان التكتم عليه إلزاميا من أعمال التقتيل والتنكيل والاختطاف والتصفية وردود الفعل بعنف أكبر وأوسع، وفرّجني على وثائق بصرية وقعت في أيدي أجهزة الأمن صورتها الجماعات عن كمائنها القاتلة وعن استنطاق الواقعين في حواجزها من المدنيين ومن رجال الأمن والعسكريين وعن تعذيبهم وقتلهم بفظاعة لا توصف.

لن أنسى ملامح وجهه الصارمة التي سحقها التأثر إذ علّق على ما عرضه عليّ قائلا بمرارة: إن أنت تصديت بما يردع تلك الوحشية سمى ساسة الصالونات ذلك تجاوزات ووصفوه بالقذارة.» وتساءل لي: ما ذا يكون رد فعل العسكري أو رجل الأمن أمام مشهد

أشلاء أطفال مزقتهم قنبلة موقوتة بتدبير وتنفيذ من أشخاص يعرفهم؟ وفيم يفكر حين يجد نفسه أمام أفراد وقعوا في الأسر ثبت تورطهم في المذابح؟ لن يفكر قطعا في شيء اسمه قانون أو عدالة».

شعرت فعلا بحرارة مودته إذ ربّت على كتفي وقال: أسندتني بشرف، مثل رفاقك، في مواجهة عاصفة الدمار. لن أنسى ذلك.» ثم نبهني مبتسما: وأنا أسلمك السلاح ظهرت لي كمن سيذهب للشهادة». فاكتفيت فقط بأن ذكّرتُه: كنت أوصيتني بأنه للدفاع عن عرْضي وشرفي».

فتنهد فاستتب بيننا صمت. ثم قال لي برسوخ: يحدث أن يخطئ أبناءٌ في حق أمهم وبقية إخوانهم الآخرين بالقتل؛ لأن الخطيئة ملازمة لابن آدم. لذلك كانت المغفرة. وكان العقاب لردع العناد وسبق الإصرار.»

ثم شد خفيفا على ساعدي وحدثني عن أن الدولة إنما كانت لتصون وجود الأمة، لأن النظام يقوم ويزول بزوال زُمره وأطيافه. وفيما أطرقت أستجلي ما جعله يعلن إلي ما يُلزم عسكريا بالتحفظ، نطق لي مكروبا: إن لم نحكّم القانون هوينا إلى جحيم الفوضى! خسارة أن تستمر حماقة الاقتتال ويتواصل نخر البلد».

فتساءلت له بصدق: ولكنْ، ما هذا القانون الذي يرفع القتلة إلى مواطنين بدرجة امتياز وينشف أيديهم الملطخة بدماء ضحاياهم.» فأدهشني بتزكيته: وسيعطون أنفسهم حق الأفضلية لأن يبيّضوا في التجارة والخدمات ما استولوا عليه بالابتزاز والسلب».

فتذكرت في صمتي أسماء ووجوها ونطقت له بما أسعفني على ،الم حسرتي: من ذا الذي يعطي نفسه حق مساومة الجناة على مسطرة القانون مقابل توبتهم أو يعفو عنهم بلا محاكمة! الدولة ملزَمة بأن تقول لهم أنتم مجرمون، لأن الذنب يبقى ذنبا! ولْتصفح عنهم بعد ذلك! أما الغفران فلن ينالوه لأن الله وحده يعفو ويغفر يوم القيامة.» مارسا نظري في فراغ الشارع وقد تفجر في ذهني صراخ الأم التي واجهتني في قلب مشغلي صارخة: حكومتكم خذلتنا، ردوا لي دم ابني وزوجي! لا أريد تعويضا! تُفوو على دراهمكم.» ثم تهاوت وبعد ..اعات لفظت أنفاسها في المستشفى.

لكنه نبر لي بقناعة عسكرية: لا بد من تضحية أخرى كي تُدفن الفتنة.» فرددت للتو: أوْلى بالدفن مَن أيقظها.» فلم يعلق نازلا إلى صمته، كما في خلال الدوريات الليلية الخاصة وفي أثناء نصب الكمائن، يوم بلغ العنف أقصى درجاته.

ثم أدار وجهه نحوي قائلا: محكوم علينا بأن نتعايش بصفتنا جزائريين. ذلك قدرنا! ولكن يجب منع الساسة المنخورين بالطمع وبهوس المجد الخاوي والمتسببين في الدمار من الغرغرة مرة أخرى في جرحنا.» فتساءلت: ومن يستطيع أن يفعل ذلك؟» فأجاب: الجزائريون!».

ثم فاجأني مرة أخرى: يتحتم عليّ أن أتمرد معلنا عصياني أو أستقيل حتى أكون في جنب رشيد ضد القانون».

فارتججت أكاد أعلن إليه أني عرفته قبل أعوام قليلة لا يفكر كذلك؛ كنت قريبا منه إذ وقف على جثث أفراد عائلة رشيد المنكل بها قائلا لي: مع القتلة، يجب أن يطوى القانون إلى حين الإنهاء معهم بصفة جذرية.» ولكني تذكرت له ما ألزمَنا به: أنا معكم لأعطي أفعالكم التغطية اللازمة! على أني لن أتسامح مع من يتخذ من مقاومة فلول الشر ذريعة لتصفية حساباته! هناك دولة وأنا ممثلها.» وكان بوركبة قال لي في تلك الأوقات المشحونة بالعنف إنه لا بد من نقل الخوف إلى الطرف الآخر لإقامة توازن الرعب ثم السيطرة على الأوضاع التي كانت مفلتة تماما.

وتعجبت له، شارد الذهن إلى آثار الخراب، كيف يتمتع أهل المجرمين وبنوهم مثل غيرهم من أهل ضحاياهم وأبنائهم بحقهم في التعليم والصحة والخدمات والوظائف والتجارة وحتى الإمامة، وكيف أجعل عقلي يقبل دخول ابن جمال القسم الدراسي نفسه الذي دخلته نجاة! فرد علي بلا مواربة: أهل أفراد الجماعات مواطنون تجب حمايتهم بقوة القانون إلا من ثبت تورطهم.» فسكت أتخيل لحول خلّف ذرية وجدت نفسها يوما تمارس مسئولية على أبناء ضحاياه وأحفادهم.

ثم جاءني صوته هادئا واثقا: يحدث أن تضطر الدولة إلى أن تسلك الطريق المؤلمة حفاظا على وجودها. يجب أن تتوقف الحماقة.» فأدرت إليه وجهي بملامح رسمت بلا شك ذلك الأمل البعيد.

واعتراني خجل من شخصه؛ فقد كان لضابط مثله أن يرسل إليّ من يضعون الحديد في يديّ، وأن يخضعني للاستنطاق كواحد يشتبه في ضلوعه في جريمة قتل. فتعذر عليّ لذلك أي رد.

لم أدر كيف سحبني إلى حاضره وأخبرني: إذ وقفت على جثته لم أكد أصدق أنه هو! وكأنه لم يرتكب كل تلك الفظائع بالبرودة التي كان عليها في غرفة حفظ الجثث! تمتُّع سفاح مثله بالحرية إهانة لجميع ضحاياه وذويهم».

ولم يخف عني شعوره بالنفور في المستشفى لتنازله لهاجس نزعة الانتقام تسيطر عليه أمام الدكتور خالد قائلا: بعض الغضب ينزل بالإنسان إلى مرتبة الحيوانية.» فخطفت إليه نظرة فارغة ثم توليت إلى صمتي.

حينها طلب إليّ أن أساعده على إقناع رشيد بتسليم نفسه، وطمأنني على سعيه شخصيا كي يكون ملف القضية بما يخفف عنه. وابتذل لي أنه إنْ كان رشيد زارني قبل العملية ليُعدّ لها أو خرج من عندي لينفذها أو كنت آويته بعدها فشأنٌ غير مهم. ثم تعهّد لي بأن لا يترك أثرا في ملف يشرف عليه. ولما لم أنبس، أُحس رعشة خوف على رشيد تسري في جسدي، تحسر لي: ما آل إليه الوضع عبث».

لم يخالجني شك في نيته تجاه رشيد؛ لأن المصاب كان عظيما. ولحظتها أدركت درجة وضعي المعقدة بين صديق كنت ملزما أخلاقيا بالوقوف إلى جانبه، صار فجأة متابَعا بمسطرة القانون، وبين رجل محلّف على تطبيق القانون، لا تتحدد له صفة عندي: أهو صديق

أم رفيق أم حليف؟ سلمني السلاح ونظمت معه المقاومة جنبا لجنب معرضا نفسي للموت في كل لحظة في الشارع في مشغلي وفي خلال الكمائن الليلية على أطراف المدينة وفي الاشتباكات التي تحدث هنا وهناك.

أذكر دائما أنه كان أكثر الناس حنقا يوم أضاف لي واقفا على مشهد المذبحة: من يقف وراء هذه البشاعة غير ساسة ظامئين إلى الاستيلاء على السلطة للسيطرة على الريع؟ وأما العدالة لأنها مكبلة بحساباتهم، وأما الدولة لأنهم حرفوا مهمتها، فإنهما لم تحميا يوما ضعيفا. وتلك حقيقة فهمها من يتقنون فنّ القتل ليثبتوا أنهم أقوياء».

فكل حواسي كانت متأهبة لأن أستقبل منه أي طلب آخر، غير منتظر أن يستأذنني في أن تزور نجاة مستشفى المدينة لترى بعينيها من وصفه لي بالوحش فتطمئن على أنه لن يعود إليها أبدا! وأخبرني أنه كلّم الدكتور خالد لينتظرنا. ففتحت الباب ورميت قدما في الأرض قائلا: أما رشيد فليس بيدي أمره».

3

في الرواق المطلي بالأبيض علقت نجاة يدي، أمشي متأخرا بخطوة عن الضابط لخضر، مرتدية حلة زرقاء وحذاء أسود وجوربين أبيضين مسرحة الشعر إلى الخلف بضفيرة مذيلة بشريط زهري رامية قدميها الصغيرتين في وثوق خاطفة طرْف عين يمينا فشمالا كلما قاطعَنا ممرض أو ممرضة وربما طبيبة أو طبيب؛ فللباسهم الأبيض حسبتهم جميعا أطباء! أنظر إليها بين حين وحين من أعلى قامتي داعكا يدها الصغيرة في يدي لأشعرها أني معها وأنها في حمايتي.

لم تسألني بهمزة ولا بكلمة عما كان يثيرها بلا شك داخل مستشفى مركزي يعج بالمستخدمين وبالزوار والمرضى، تطاوعني بتلك العزيمة التي وافقت بها قائلة: واه، نجي»، لما طلبت إليها إن كانت مستعدة للذهاب معي فتشاهد بعينها الشخص الذي لم تبرح تراه في نومها بخنجره يبحث عنها.

كنت وضعت يديّ على كتفيها الصغيرتين وقابلتها جالسا على كرسي أطمْئن قلبها الصغير بصوت هادئ خالعا عليها سماء من الأمان: مستعدة؟ يا الله! وسيكون معنا ضابط يحرسنا»، مسكون الذهن بلون برك الدم المتجمد هنا وهناك في الرواق في الغرفة وبآثار أصابع بحثت في لحظات الموت المروع عن منفذ للفرار عبر الجدران فأجهضها النزْع نازلة في تهالك بطيء.

فسألتني إن كنت أحمل معي سلاحي وعما أفعله إن اعترض لنا الوحش في الطريق. فأكدت لها أنه لا يفارقني أبدا، وأني أضعه تحت وسادتي حين أنام. ثم مررت يدي على خدها هامسا لها أن الوحش لن يعترض لنا أبدا.

فتنهدت ونطقت: لما ذا؟» فأمسكت يدها قائلا: لأنه نائم في المستشفى.» فأشعت عيناها حيرة: نائم؟» ثم تخوّفت لي أن يستيقظ ويذبح المرضى. فمسدت براحتيّ على خديها أطمئنها بأنه لن يستيقظ لأن الطبيب حقنه بمخدر قوي. لكنها سألتني متى ينهض. فأخذت يديها معا في يديّ ودلكتهما أؤمنها أنه لن يقوم أبدا. فتعجبت عاقدة حاجبيها الغضين.

ولما أطل الدكتور خالد، ببزة خضراء نصف كم في أعلى جيبها الأيسر شارة عليها كتابة، أومأ إليه الضابط لخضر نحوها كمن يقدم سيدة ذات مهابة مبتسما: هذه نجاة، يا دكتور.» فرحب بها مادا يده البيضاء منحنيا. فبحثت في عينه عن سر ما يخبئه لها. ثم استقام يسألني بغضون وجهه إن كانت فعلا مستعدة. فأكدت له ذلك

بحركة من رأسي.

فأخذها من يدها وعبر أمامنا إلى بهو خال تماما إلا من كراسٍ مهيأة للانتظار ثم إلى غرفة حفْظ الجثث المضاءة حيث وقف قائلا لها: ترين هذه العربة اليدوية؟» فأجابت بحركة من رأسها مادة ذقنها إلى الأمام قليلا متشوقة أكثر منها مرتبكة، فيما كنت تأخرت عنها أقابل الضابط لخضر يتابع بتأثر.

ومد يديه نحو الجثة المغطاة قائلا في هدوء واثق: أكشف لك عنه؟ إنه نائم ولا يستيقظ أبدا.» فالتفتت إليّ بغلالة من الذعر على وجهها الحسن. فطمأنتها. فأمسك طرفي اللحاف، فركزت حركة يديه صارمة، وجذب حتى الصدر. فاقتربت منها أمسكها من إبطيها ورفعتها قليلا فتثبتت نظراتها على وجه غائب. ثم دارت نحوي بفزع كاسح فاغرة أحس صرختها في حلقها.

فأنزلتها وضممتها، تتلصّق بي، وحننت بيد على ظهرها وبالأخرى على شعرها أنظر إلى الضابط لخضر على صمت الحجر. فأخذ الدكتور خالد يدها وتلطف لها أن تدور وتنظر قائلا: تستطيعين لمسه إن شئت».

فهزت كتفيها وجلة ضاغطة على فخذي صدرها الصغير أحس نبضها. فانحنيت وحضنتها. فهزتها رعدة ثم نطقت في أذني: هو.» فأثنيت عليها للدكتور خالد والضابط لخضر المتأثرين: نجاة، قالت لكم هو».

فافتخر لها الضابط لخضر قائلا للدكتور خالد: قلت لك

يا حكيم، نجاة بنت شجاعة.» فرد عليه معززا: لذلك فهي تستطيع أن تدور وتنظر.» فهششت خفيفا على مؤخرتها الصغيرة هامسا لها: يا الله، أريهم».

كنت واثقا من أنها ستفعل لما فكّت عني ثم ولت شيئا فشيئا خاطفة نظرة إلى الضابط لخضر. فغمز لها باسما. ومدت يدها إلى الدكتور خالد فأسعفها على التقدم خطوة فنبضت على مشط قدميها فرفعها قليلا فرأت، محترسةً، وجها كان نظفه من الدم واجتهد في رتق ما مزقته الرصاصتان حتى يبدو قريبا من الراقد، الذي لن يستيقظ أبدا.

ولما وضعها فدارت نحوي ظهر وجهها أقل فزعا. فحضنتها محننا على ظهرها: خلاص، انتهى.» فشهقت: م م م مات؟» ففككتها عني قليلا ورفعت ذقنها الذي سرت فيه رعدة فنظرت في عينيّ بحثا عن جواب آمن. فأكدت لها: نعم يا صغيرتي، لن تريه حينما تنامين. مات.» فزفرت. ثم تمتمت لفظة أمي فثارت حرارة الدمع في عينيّ وقربت وجهي من وجهها بين يديّ وقبلتها على جبهتها.

كان الدكتور خالد حيا الضابط لخضر، الذي اقترب من نجاة آخذا يدها، وتولى نحوي قائلا يتابع خطواتها الصغيرة في الرواق جنب ضابط بدا وحده منتظم السير: أمها أبوها وأختها! دفعة واحدة، في غياب مطلق للشعور بالذنب! أي تشريح لأي قضاء.» فارتد في أعماقي صدى أصواتهم وهم يموتون ذبحا، وتحكم بي شعور باللامعنى مما جرى كله؛ كأنه لم يجر، كأنه كابوس.

وأضاف وهو يشيعني: لا بد أنها تطهّرت برؤيتها القاتل جثةً نعرضت للعقاب. لذلك ستستعيد الشعور بالسلام وتحيا مثل الأطفال جميعا على أن الشر لا ينتصر أبدا! ولو أن صورة مقتول آخر ستنضاف إلى كوابيسها لا تلبث أن تزول».

وقال لي الضابط لخضر في خفوت، وقد استقرت نجاة في مقعد السيارة الخلفي هادئة مميلة بصرها إلى الشارع تحدق في أشيائه: كان ذلك ضروريا لإزالة الصدمة السابقة».

كانت خلفي، بين غفوة وصحو، بتلك الغضون النبيلة التي غطت على ألمها. فإنها، مذ حملتها إلى بيتي ناجية وحيدة من المذبحة، لم تبك أمامي بدمعة. وكنت ما دخلت عليها في غرفة نومها آنئذ فرأيت آثار بكاء في عينيها إلا سألتها فأجابتني في كبرياء العصافير جاحدة: والو.» فحضنتها ووجدت لها وسيلة أو لعبة لتستعيد صفاءها.

وصارت تجد بعض الاستئناس حين تصعد إلى السطح رفقة زوجتي حورية فتُعليها كرسيا لتطل على المدينة فتطيل التحديق أحيانا في جهة معينة منها؛ كأنما لتعرف أين يقع بيتهم. ولكن كم أفزعتها يوم صعدت وحدها إلى السطح ملتهمة أدراج سلّمه! فركضت خلفها تحسبها سترمي بنفسها وأنزلتها مضطربة. فقالت لها: كنت أشاهد الغابة.» سائلة إياها عن الحيوانات التي تكون فيها.

وإذ مسدت خفيفا على ركبتها فتحت عينيها في رمشة ثم أغمضت. فتنهد الضابط لخضر يتابع بطرف ويداه على المقود قائلا لي: مذهل! مذهل عدد الأطفال الميتمين والمصدومين والمولودين بفعل

الاغتصاب ومن صرخوا صرخاتهم الأولى في الجبال والمغارات من تزاوج أفراد الجماعات غير المقيدين في أي سجل والمقطوعين عن مظاهر الحياة العادية».

فتعجبت له: وكأن أعوام حرب تحرير القاتلة والمدمرة لم تكن كافية.» فعلل لي مهموما: لكوننا خلال ثلاثين قرنا لم نعرف سوى الحروب! فلم تدم الاستراحة سوى ثلاثين عاما، بعد آخر حرب، حتى استأنفنا التقتيل والتذبيح والاغتصاب في أنفسنا! ها هي أجيال كاملة تكبر مهزوزة الوجدان بلا أحلام بلا أجوبة عن أسئلة وجودها لا يتنمى فيها غير الحقد. معضلتنا أننا أمّة تبدو عاجزة عن إيجاد بديل فكري للعنف لفك أزماتها».

وفزع في ذهني، لحظة توقفنا عند أضواء المرور، صمت نجاة خلال المذبحة. أي يد تنزّلت حينها على فمها كيلا تصرخ من فوق الخزانة وهي تشاهد نحر أمها مزقه الخنجر! أهي اليد ذاتها التي دفعت بي لأركض نحو فلّة في غور الليل فأدخلها وأجعلها تطأ دم ابنها ليعلق رجليها نقمةً؛ كما كان دم آل الطيب بن العربي علق رجليّ في باكر تلك الليلة المروعة؟

فإذ أقلع رمى إلي أنه لم ير من قبل أماً تمزقت أمامه حسرة على قتيلها. لم يذكرها بالاسم. فثارت مشاعري فجأة بما رددته لي داخل حوشها قبل ليلة مذبوحة الصوت نائحة تحت المطر: أحمد خويا، بقيت وحيدة.» فأدخلتها في حضني.

لكنها انفلتت مني صارخة متعثرة تدخل الغرفة المبعوجة

الباب. فتبعتها. فارتمت بسترة نومها المبرقعة بالدماء فوق الجثة الهامدة وحضنتْها ممرغة وجهها المبلول على الوجه المشوه فانصبغ دما. ثم ضمت الصدر الساكن إلى صدرها الزافر ممررة ذراعيها خلف الظهر قائمة على ركبتيها. فتدلت يد مبعثرة الأصابع وارتمت رأس في ميلان حر.

كان الغطاء الذي تشرّب النزيف بدا لي مرميا على عجل المفاجأة الصاعقة، وكأن القتيل قام لدوي الانفجار ففتح عينيه على ضوء لمبة يدوية ميدانية أعشى بصره، كما في كابوس. فلم يتقدم أو يتأخر متسمرا في فراشه.

وظهرت لي بقع الدم على الجدار ملطوخة بفعل الطلقات المصوبة عن كثب. كانت بندقية الصيد المحشوشة رميت غير بعيد عن الفراش بعد أن أطلقت خرطوشتاها على إطار صورة تشظى فتاتا وعلى ساعة حائطية تهرشمت أجزاء حتى لم تبق غير آثار البارود. وعلى الأرضية بقايا خشب الباب المفجر بارزة للعين متناثرة.

ثم فكت عن الجثة وتركتها تسقط مترامية بلا حراك. وانحنت على الرأس بأنين كلبة، مضمخة يديها بدمه طالية على وجهها ناشجة: قلت لك لا تعد! قلت لك ارحل.» ثم استقامت ومسّحت على صدرها غارزة أظافرها في كفيها فاتحة عينيها فاغرة فاها على صرخة خرساء حتى كادت تسقط.

أسندت ظهرها إلى الجدار، مغمضة عينيها. كان وجهها قد فقد جميع تقاسيمه الجميلة. وددت لو أني عرضتها على مرآة وقلت لها

أنِ أُنظري فظاعة الإحساس بفقدان عزيز! لكن وجه نجاة اعترضني ترى من حيث اختبأت حد الخنجر يمزق نحر أمها.

ثم أخذتها بخطفة إليّ وطوقتها بذراعيّ وخرجت بها إلى الحوش تحت السيل فطرحتها أرضا وضغطتها تحتي: اغتسلي من ذنبه من نجاساتك، اغتسلي.» فأنّت ونحبت. وشبكت شعرها بين أصابع يدي حاكا وجهها على البلاط فبكت ولم تصرخ. وارتميت فوقها بطول ظهرها ورحت أفرك خديها بماء المطر مقطعا كلماتي الساخنة: توضئي! تطهري من دمه.» فشهقت ولم تنطق. فأدرتها على ظهرها وأنهضتها أضمها ممررا يدي على شعرها المشبع فهجعت أنفاسها. ثم جذبتها منه إلى الخلف فأسفر وجهها فعرضته للمطر وبيدي الثانية غسلته في لطف أهمس لها: هكذا، اهدئي! ائنسي! استنشقي عميقا».

وصعقتني رعشتها إذ أنزلت يدي عبر عنقها مزيحا ثوب نومها اللاصق بجلدها إلى صدرها ساخنا عامرا أملس، وقبضت على نهدها غير الواثق. فحرحرتْ صوتا أخرس ثم توجعت مرخية بدنها متهاوية.

حملتها إلى غرفتها ومددتها مكدودة أسحب ذراعي من تحت رأسها فحركت يدها تتحسسني فوضعتها على صدرها وولّيتها. ثم التفت إليها أمعن في جسدها النائم بلا فتنة فأحسست برغم ذلك سريان لذة كامنة. فغطيتها ببطانية، أراني في ظلمة قبوٍ دافئة، وعدت أقف على جثة كأن أشلاءها جُمعت إلى بعضها جمعا في غرفة ابتلع أشياءها الصمت إلا الموت الضاحك على وجه مشوه عند رجليّ.

المحطة، خلت شفتيه تحركتا ناطقتين في وجهي: أريتكم كيف أسحق من يدعون حمايتكم من كلاب الحكومة.» وحسبته نهض فتراءى لي أني أجهزت عليه بطلقة فقهقه في وجهي فأطلقت وأطلقت إلى آخر رصاصة. فقهقه فسترت وجهه وتحسست مسدسي بين حزامي وبين جلدي.

فقد حسبني الضابط لخضر كلمته فعلا إذ نطقتُ: عدالة ربك.» فسألني: أي عدالة؟» فانتبهت مجيبا: موتُه قتلا»، وفي ذهني رشيد قد فجر الباب ودخل ماردا ساحقا بالمسدس ذي الخمس عشرة، تماما كما أقسم لي آخرة مرة على أنه صار قادرا على قطع الشعرة نصفين؛ لأني تخوفت له أن يصبح ضحيته الرابعة.

فتفقد نجاة مهدهدة بنعاس وقال لي: الأطفال أشد مقاومة منا نحن الكبار.» فالتزمت الصمت، يشغلني فيه فجأة ما كبّله عن التحرك لمنع وقوع الثأر، وكان يعلم لا محالة أن رشيد دخل داري وأن لحول كان موجودا في بيت أمه. وكنت أبلغته شخصيا في الساعة الأولى من الصباح فلم يندهش وكأنه كان ينتظر ذلك!

ثم نطق على شفا ابتسام: ولو.. فهي جريمة قتل.» فلم أحرك شفتيّ بنبس. ولما أوقف سيارته أمام بيتي قال لي باتزان: لما رأيتها هذا الصباح أيقنت أني أستطيع العفو عنها وأن أهل ضحايا ابنها يمكن أن يسامحوا امرأة مثلها! لم تذكر صديقك رشيد بسوء. أقدر أن ذلك لم يكن خوفا مني ولا لكونها تحت تأثير الصدمة، ولكنْ لهذا الإحساس الذي يجعل الشخص في لحظةٍ ما من حياته، أمام حقيقة الأشياء، يقر

بأنه مذنب وعليه أن يعلن ذلك وينتظر العفو».

وفيما رحت أرد إلى الله علمه بما كانت عليه درجة آلام رشيد منذ ثلاثة أعوام، ناقرا بأصابعي على ركبتيّ، صعقني بقوله: ربما تكون أحبتك فعلا! فإني لما سألتها عنك نكست وزفرت ثم خرجت من مكتبي تجر حطامها.» فاستدرت إليه كلية وتأملت في وجهه لأول مرة أكتشف عسكريا يستطيع أن يتحدث عن الحب أيضا. ثم همست له بحزن الذي حنّ: ربما.»، متذكرا كلامه القاسي في إحدى لحظات قلقه قائلا: حالة الطوارئ السارية غير كافية. الحالة الاستثنائية وحدها تسمح بحرية التحرك لخنق بذور الفساد في تربتها».

فإنه كان سيصاب بانهيار لو لم يتمكن من قتل ثلاثة عناصر من المجموعة التي اغتالت له دركيين آخرين من فرقته، بعد أن كنا نصبنا الكمين ليلا في مخرج الغابة فهمس لي قبل وقوع الاشتباك صارّاً أسنانه: حتى ولو استسلموا! فلست مستعدا إلى تقديمهم إلى قضاة أغبياء».

وقلت له في تأثر متأهبا للنزول: ما قربني إليك شيء أعمق مما كان لظروف المحنة أن تفرضه.» فرد علي بود: لأني مثلك وحيد أبٍ قدّم دمه لتحرير هذا البلد. نحن مدينان لهما بالوفاء لِما ماتا من أجله».

وقال لي بعد صمت بيننا: لا السياسة ولا النوايا الطيبة تحلان محل القانون والعدالة. فلولا بذرة الخطأ السياسي ما عرشت المحنة مأساة. كان يكفي أن يتقدم القتلة باعتذارهم إلى ضحاياهم وذوي ضحاياهم ويعلنوا إلى مجتمعهم خطاياهم».

وسرح لحظة أضاف إثرها: ليس من حق أي جزائري أن يقيم العدل بيديه».

ثم التفت إلى نجاة خلفي غافية وقال لي: أريد لها ألا تُفجع في أخيها.» فناديتها: هيا يا صغيرتي الشُجاعة، وصلنا.» وفتحت الباب مشتت الإحساس لا أستطيع أن أخفي ما كان سيظهر في عينيّ.

الفصل الثالث

1

قبيل المساء، صعدت إلى السطح وحيدا متعب الوجدان تسفعني برودة الجو الكئيب. فتذكرت من بين ما تذكرت أياماً من تلك الأصياف التي بدت بعيدة لما كنت أنا وزوجتي حورية نطلع متعانقين فراراً من هجير السَموم الجافة فحَسِبنا بأقدامنا الدرجات لاهيين وقلت لها على مذاق العسل: كل درجة برجلي اليمنى بولد.» فردت بصوت حريري: وكل واحدة بقدمي اليسرى ببنت.» ثم قضينا سهرتنا على شاي ومكسرات وحديث مهموس وإشارات ولمسات وغرام في فراش خفيف تبسطه بتأنث مغوٍ على آخر أصوات المدينة وتحت عين بدر باسمة أحيانا فأنعشتنا هبات النسيم الشمالية وفاجأتنا غالبا تساقطات عابرة خلال تلك الليالي الرعدية الثقيلة فتدثرنا عنها بجسدينا لحافاً لبعضنا.

وتذكرت وجه أمي الأنيس، لا يزال حر فراقها ضاريا في قلبي، تصعد إلى السطح في مغارب ذروة الصيف لتشرب قهوة مسائها في صمت متأملة مسبحة فلا تقوم إلا لصلاة العشاء ثم تنزل بُعيْدها إلى أن أقعدها المرض الذي أذهبها فحرمها أن تقرّ بي عينا وأن تنعم طويلا ببيت كبير واسع، من الطراز الذي شاد به المعمرون تلك المدن الصغرى وسط الحقول الشاسعة المزروعة حبوبا أو المغروسة أشجارا مثمرة وكروماً، أُسس على طابق تحت أرضي للمدخرات والمئونة كما للقيلولة أيضا في قيظ الصيف، شغل منه ثلثَ مساحته قبوٌ معتم قليل التهوية لتعتيق الخمور المخزنة للاستهلاك المنزلي.

فلم يكن ليقع في نصيبها، عاماً بعد نهاية الحرب، لو لم يقف بوركبة على رأس المسئول عن أملاك الدولة الشاغرة قائلا له بأمر عسكري: في الحين! أخرجْ مفتاح سكنى قارسيا! سأوصله لها بيدي». ولم يمهله أن يحرك شفتيه: الآن قلت لك.» ووبّخه: دم زوجها أفسح لحقير مثلك أن يجلس على كرسي خلف مكتب.» ففتح صندوقا وفرز في بلبلة المفتاح المطلوب من بقية المفاتيح الأخرى على الصوت القاسي: بيت الأرملة الذي كان موجودا على أرض زوجها صار أطلالا.» فانتزعه من يده مزمجرا في وجهه: قصفته الطيارة الصفراء التي أخطأت أمثالك.» وخرج ساخطا: أولاد الزنى! لأنها امرأة؟» ثم سلّمه إلى خالي، الذي آوانا في المدينة إثر مقتل والدي، ونصحه في تحذير: هذه سكنى زوجة الشهيد وأم هذا الطفل اليتيم».

ما حييت، لن أنسى شدة يديه القويتين على كتفيّ، وقد رفعت

إليه عينيّ لا أبشّ ولا أنطق. لعل نظرتي الجافة كانت حفرت في ذهنه، هو الرجل القوي الصارم صاحب الأربعة والثلاثين عاما، صورة الطفل الذي كنتُه في الثالثة عشرة؛ ذلك أن قدري كان حطني مثل ملايين الأطفال بين أحزان الدمار الذي خلفته مائتان واثنان وثلاثون عاما من القهر والميز والضياع انْوشمت في ذاكرتي بلون الإذلال. ثم قال لي متعجبا: كأنك هو.» لأن ملامحي كانت وجها غضاً لوالدي عيسى رفيقه في السلاح قبل أن تغزوني سريعا شدة الرجال، كجميع أطفال شوارع ما بعد الحرب.

فلم يتراجع عني خطوة إلا لينظر إليّ، واقفا جنب خالي ثابتا جافا، نظرة عميقة صامتة وملتبسة كان يجب أن تمر عليها ستة وثلاثون عاما كيما أدرك أنه قال لي بها: كأنك خلاصة شقاء القرن والاثنين والثلاثين عاما من الإهانة البشرية لكرامة أحفادك الجزائريين.» فأحسست كأنها النار تلك الكلمات على لسان رجل محمّل بشرف خوض حرب عنيفة قاسية ومدمرة لإنهاء ظلم تاريخي، وكأنه لا يزال واقفا أمامي وأنا أسأل نفسي عن طفولتي كيف ضاعت من سجل حياتي لأني وجدت ذاتي فجأة بشعور البالغين!

قبل سبعة أعوام، في ذكرى الاستقلال التي دأب على إحيائها في بيته مع رفاق له في السلاح بقوا على قيد الشرف، سألته ما ذا يكون تمتم لي يومها. فأجابني يسأل نفسه: ألم يكن من حق الأطفال أن ينعموا بالسلم؟ فلما ذا يتكالب الساسة والزعماء على نكب بلد مجروح لتصفية حساباتهم؟» فقدرت لما ذا كان رجل مثله أصيب بنبْض عِرْق

النقمة على الساسة الذين قال لي عنهم في تلك الذكرى: لنزعاتهم الجهوية وطموحاتهم التسلطية كادوا يجرون جيل ما بعد الحرب إلى طاحونة أهلية.» وكان يجب أن يقول لي ذلك منذ أكثر من ثلاثة عقود يوم تردد محوّلا عني نظره إلى خالي يذكرني أنه سيراني ثم غاب في وثوق أب ترك خلفه نجلا أمينا على نسله.

حينها حدث أن خالي، إذ راح يستكشف البيت رفقتي، وجد نفسه في القبو فدهش لعدد قنّينات النبيذ النائمة في ميلان خفيف غطاها غبار عتيق على رفوف مَرْفع خشبي، ونسجت عليها العناكب بيوتها. فوقف حائرا كيف يتخلص منها. ففكر في حلول من أغربها دعوة الفرنسيين الباقين لشحنها، وكانوا قليلين جدا أولئك الذين أبدوا تضامنا سريا أو علنيا مع القضية الجزائرية ضد حكومتهم. لكنه تراجع لخشيته أن يشاع عنه أنه باعها إياهم. وسألني: أليس كذلك؟» فلم أجبه يشغلني أن أرى المخزون أُتلف حتى لا يسيء ذلك إلى أمي.

فاسم قارسيا وحده كان يثير ما يدفع إلى محو كل أثر له؛ فقد ظل يعامل الأهالي الجزائريين بكراهية ويسخرهم في حقوله وفي معصرته ويهين ذوي الحاجة منهم بتكليفهم رعاية خنازير زريبته وهو يعرف أن ذلك أبشع ما يسيء إلى مسلم. فكان لذلك من الأولين الذين غادروا المدينة هلعاً حتى لا تدركه يد الثأر.

على أن خالي انتهى إلى أن أحضر جرارا بمقطورة وأخرج بمساعدتي نجاسة الكافر، كما وصفتها له أمي من غير أن تقترب منها أو تراها، وعند مدخل الغابة أخذ يفرّغها، بينما رحت أتسلى راميا

القنينة تلو الأخرى على الحجارة فيتفجر بعضها فيصيب رذاذها ملابسي ووجهي، ثم طفق يضرب الزجاجات بالمجرفة كيفا اتفق يُبَرقع وجهَه لون السائل الأحمر إلى أن أضجرته رائحة الكحول ومذاق الحموضة. فمسح على عجل وأقلع قاطعا عني لذة الاستمتاع بالصوت الصادر من انفجار هذه القنينة أو تلك، أخال في التي لم تتكسر أرواحا قوية أبت الخروج.

وظهرت لي الغابة من على السطح مكللة بضباب واجم. لتوهمتها اقتربت كثيرا من المدينة مكتسحة حقول الكروم، التي كانت تفصل بينهما من الجهة الشمالية. واندثرت، تحت الخرسانة، تلك الطريق التي كان سلكها خالي بالجرار قبل ستة وثلاثين عاما. وتردد في سمعي صدى صوت السائل الأحمر الثقيل المنبعث من كل زجاجة كأنه روح نائمة أوقظت فعادت إلى التراب. فبعد أعوام من ذلك زارني بوركبة ليبارك لي على مشغل النجارة، الذي كنت استلمته لحيني، وقال لي: لو أراد التاريخ لحرب التحرير أن تتأخر لأشعلها جيلكم.» فإنه كان فتى مثلي بتلك الطاقة الخفية المعتملة في الوجدان عندما اندفع ذات يوم كعشرات الآلاف ثم مئات الآلاف على درب الأجداد لرد العدوان التاريخي بالقوة.

2

لكنْ، هزّني نزوع إلى اليوم الذي فيه أنزلت فلّة إلى الطابق السفلي عبر أدراج الباب الداخلي خلال قيلولة قائظة وقلت لها احضنها في غيهب الظل أعبّ حرارة أنفاسها: أنت الآن في القبو ذاته الذي تركه قارسيا مليئاً بالمعتقات».

فمسّحت بنظراتها الفرحة، على بصيص ما يتسرّب من منافذ ضيقة حُفرت لاحقا، كلَّ ما رُتب من أثاث قديم وحديث ومن صناديق وأكياس وآلات نجارة صالحة أو معطلة ومن قطع غيار وأكوام من الخشب ومن علب البرنيق والدهن وأشياء أخرى هنا وهناك تبدو صارت بلا فائدة ولكنْ عزّ رميها. ثم تساءلت لي غير مصدقة: قبو؟ وبأشيائه.» فداعبت خدها بشفتيّ: بأشيائه كلها كما تعلمين.» فتخلصت بلطف وهزتني محتجة: ما أدراك أني أعلم؟» فمازحتها بأن أباها أخبرني فتنهدت صامتة على استفزازي إياها.

صغيرة، كانت لا تزال صغيرة لما عاندت أن تذهب وحدها إلى المعصرة غير البعيدة عن كوخهم المجاور لبيت قارسيا الريفي لتوصل الغداء إلى أبيها. فتشبّعت حاسة شمها بتلك الرائحة المنبعثة من على بعد عشرات الأمتار مجتاحة الكوخ وما حوله. وأدهشتها أكوام نفاية العنب في ساحة المعصرة وعلى أطرافها. وأثارها خروج أبيها إليها في ساعة استراحة العصارين حافيا محصور السروال حد الركبتين ملطخ الساقين ببقايا قشور العنب الأسود، بفعل الرفس، وعلى وجهه كما على صدره رحيق منه مائل إلى حمرة باهتة. فتصعّدت لها منه رائحة تلك الحموضة مركزة. ثم صارت بعد وقت لا تلبث أن تنصرف بعد أن يأخذ منها الصرة تحت نظرات جناة العنب والعصارين المحرَقة بالعطش الجنسي تنهل من صدرها الصغير الثامر ومن ردفيها المغريين ترميهم بنظرة جريئة حينا وبحركة حارة حينا.

ثم لامست بخدها خدي وشبكت أصابعها بأصابعي مدارية غضبها. وهمست تصف لي المعصرة وبراميلها الخشبية مصففة بعضها نائم فوق بعض، تبدو لها شبعت، وكيف أنزلها أبوها إلى القبو العظيم فأراها لب تلك النفايات المكومة خارجها سائلا محفوظا في تلك البراميل التي فتح حنفية أحدها عارضا إناء صغيرا إلى ملئه فتشمم ونشق مغمضا عينيه راشفا رشفة مضمضها وعبها على دهشتها يصدر صوت الراح ثم دعاها إليه بنشوة مقدما لها الإناء لتذوق فحركت رأسها متولية عنه وسارت بين صفين صامتة مغمورة الشعور بأرواح تسكن البراميل فأدركت أنه المحلول ذاته الذي طالما أشربها منه جرعات كلما أصيبت بنزلة برد فأحست مذاقه مزيجا من المرارة

الحموضة باقيتين بين لسانها وحلقها ونامت في ارتخاء جميل قبل أن نكتشف لما ذا واجهت أمها أباها بتلك الكلمات القاسية: أنت ياكللك البحرا وبنتي لا.» فكف عنها حتى لما كانت تصاب بالبرداء. وصار أكثر إدمانا عليه إذ رحلوا إلى المدينة، عقب إحراق مزرعة أحد الكولون المجاورة أسفر عن مقتل ابنه العسكري. فقيل يومئذ: عيسى ولد علي هو الذي قاد الهجوم».

فمررت براحتي على ظهرها فتنهدت وقالت متذكرة: لم أكن أدرك الذي يحدث؛ بين ليلة وأخرى في زمهرير الشتاء كنت أسمعه من فراشي يحدث أمي عن فتيان طائشين خارجين عن القانون وصفهم لها بقطاع طرق يقتلون بلا شفقة كل من رفض الالتحاق بهم من القادرين على حمل السلاح. وأسر إليها أن لهم تنظيما منتشرا في كل مكان يسمونه الجبهة فيه رجال ونساء وفتيان يخبرون بالصغيرة والكبيرة مما يجري في المدينة والريف وفي البوادي. وسخِر لها أنهم حملوا سكاكين وبنادق صيد ليخرجوا فرنسا القوية بطائراتها ودباباتها وسلاحها الكبير وعسكرها الكثير.»

مثّلت لها بحد كفي على نحرها حزة سكين فأزاحتها بعنف واستنكرت: كانوا قساة لا يرحمون! ولا يحكمون بالقتل إلا ذبحا.» فداعبتها، تمور في ذهني صورة أبيها بفأس خشب في رأسه: ولما ذا يبذّرون الذخيرة.» ووشوشت لها: نموت جميعا، بكيفية أو بأخرى».

فصمتت لحظات. ثم راحت تقول، كأنها تعلن إلي تبرئة ذمة، إنها سمعت أمها ذات ليلة حذرته أن يواصل العمل عند قارسيا.

وسألته عما يدفعه إلى التردد على مكتب ضابط الفرقة الإدارية المتخصصة، للاستعلامات والدعاية المضادة، فأجابها بأنه يفعل ذلك لمعاقبة الطائشين الذين أرعبوا الناس ومنعوهم من الدخان والشرب والأفراح والعمل عند أسيادهم. فردت علية مستهجنة: أسيادك هم الذين أذلونا. انظر حالتك! لا دين، لا صحة.» فبصق في الظلام هائجا: "أنا بخير هكذا! مهابيل! يحاربون فرنسا بالله أكبر؟».

وانفصلت عني بقدر ما أمسكت على كتفيّ بيديها فشددت على معصميها ونظرت بسحابة من التذكارات قائلة: لم أقترب منه يوما قربي من أب حقيقي. كان الناس الذين نعرفهم ينفرون منه. لكن كم أوجعني أني سمعتها قالت له: أنت في نظرهم أقل قيمة من أحد خنازيرهم! فبكى في الظلام. أمي هي التي أحبتني كما لم يحبني أحد في الدنيا».

أربكتني. وبرغم ذلك نهض في صدري الذكَر الذي لا يقر، بواسطة الكلمات، بحبه لامرأة. فأخذت نهدها وضغطت. فتأوهت. فأنزلتها أرضا متلثّما جيدها إلى ما بين نهديها إلى سرتها، تحتل ذهني صورة غائمة لها يوم مقتل والدها وقد ردد الناس في المدينة كنيته بتشفٍّ متناقلين أخباره: كْلابو هو الذي دلَّهم على مخبأ السلاح والمتفجرات.»، إثر كل مداهمة كان يقوم بها العسكر ليلا وفي الفجر: كْلابو هو الذي باعه.»، خلال كل حصار فرضه البوليس معززا بالعسكر حول بيت أحد الفدائيين أو اقتحام لمقهى أو حمام: أمس، قبل ساعات، كْلابو كان هنا.»، عند تطويق سوق أسبوعية في ضاحية

المدينة؛ يدفعه المظليون أمامهم واضعين على رأسه شكارة مثقوبة عند العينين والفم ليدلهم بإصبعه على أحد المطلوبين، فألحق بها ذلك عطبا نفسيا فادحا. وصارت تلقّب ببنت كلابو نسبة إلى كلاب قارسيا، كما شاع عنه. فإنْ كانت نوديت ببنت قدور فإنما تخوفاً من رد فعلها، بعدما بهدلت مرة إحدى النساء في حفل زفاف نبزتها، فعيرتها بفم أمها يشبه فرجها وبأسنانها التي للأتان وببشرتها لنبات الديس وبرائحتها للضب وبكل ما ينسب إلى بعض الحيوانات من القذارة والوساخة.

وأدرتها، ظهرُها إلى صدري ممددين. وطوّقت بطنها ففكت يديّ عنها ملتفتة إلي بغضب مفاجئ: أخبرك في قبره؟ خلّ الموتى في حالهم.» ثم تولت إلى وضعها فضغطتها بتلك الشدة التي وجدتني عليها مذ عرفتني مزيجا من حمحمة حصان إنْ غرت عليها، كما قالت لي يوما، ومن رقة فارس تخترق قلاع كبريائها إن اشتهيتها. فاستكانت لي فحوّلتها صدرا لصدر وضغطتها إليّ: آسف، أنا لم أعرف أباك! كنا صغيرين وقتها، أنا كما أنت». ولم أقل لها إني سمعت بعض المحوشين في الساحة مرة تهامسوا بأن ترجمان الضابط هو كلابو، ولا أفضيت إليها بأني عرفت أنها سبقتني دائما بخمسة أعوام. وقبّلتها فطاوعتني فالتهبنا مرة أخرى على الأرضية الباردة.

3

أجل! تلك كانت خطيئتي الأولى مع فلة إثر خروج زوجتي الأولى من البيت مطلقة، بعدما لم تعد تتحمل عبء ما كان يفرضه التكفل بحياة مصابة بشلل نصفي مهزومة الجسد عاجزة عن القيام لقضاء حاجتها. فتذمّرت لي من ذلك ثم خيّرتني بين أمرين. فقطعت لها بأن أمي ليست من الطراز الذي يفاضَل عليه عندي!

ورحت قُبيل وفاتها بشهور أرفع ستار الحياء بيني وبينها شيئا فشيئا فوقفت على تنظيفها ورعايتها أشعر بقبس من نار النشأة في قلبي كلما لمست بشرتها المقدسة فرأيت في عينيها إشعاع سلام لعينيّ تحسنني فعلا عدت إليها كما كنت مضغة منها فانتابني أني الأم وقد صارت هي بين يديّ الطفل الذي كنتُه بين يديها كلما مررت على مفصل من مفاصلها متلطفا لها أنه طالما غسلت لي ما لا تغسله سوى

أمّ وقبّلت يدها فتبسمت لي على لون مرضها بخجل واعتذرت لها مرتجيا: ربي يسامحني منك.» وغيّرت ملبوسها وفرشت لها وأشربتها جرعات دوائها ثم تعهدتها ليلا فغمرتني كل مرة بنظرة واسعة سعة سماء الدنيا.

يوم جاءت خالتي تشد أزري عليها وقد أنهكها المرض لم تكد تصدق أني جرفت تلك الحواجز لأصل إلى بشرة أختها كما أفعل بوليد! ثم كفَلتها إلى وفاتها في صمت طَهور. وكنت نسيت بعد أربعين يوما ما أغاظني على خالي الذي لم يحضر جنازتها ولا عزّاني فيها قاطعا كل صلة مذ كان رحل بعائلته إلى مدينة أخرى مجاورة آخذا كل شيء طلبه مما خلّفه قارسيا ، فيما لم تطمع خالتي في شيء من البيت ولا أقحمت أنفها يوما في حياتي الخاصة؛ لأنها كانت من أولئك النساء اللائي يرين الرجال خلقوا ليعشقوا ويخطئوا ويخاطروا ولكنْ لينافحوا عن العائلة والشرف! فإنها الوحيدة التي بلغت صلتي بها درجة التواطؤ الحميمة؛ لا أخفيها شيئا إلا ما يمنعه الحياء! لذلك كانت أغوتني بحورية فخطبتها لي رفقة بوركبة. وقبل الدخلة ألبستني برنوس والدي الأبيض وقالت لي يدها على كتفي: حورية من أجمل نساء هذه المدينة ومن أعرق عائلاتها! بفمها قالت لي إنها أسعد امرأة في الدنيا لأنها ستتزوج رجلا اسمه أحمد ولد عيسى الفحل.» وفي اليوم السابع كببت على رأس بوركبة كأني نجله العريس قائلا له راضيا: الآن أشعر بالسكينة. شكرا لك.» وقبّلت خالتي على جبهتها أجد فيها وجه أمي.

حينذاك، تدحرجت فلّة إلى قاع الإحباط فقالت أم بوعلام لنساء في المدينة: لأنه تزوج عنها بواحدة بكر.» وحدثتهن بأنها جربت النسيان والمسكنات والعُقد والتزمت حدادا بأيام عرسي كما لم تلتزم بالحزن على موت زوجها الثاني ولا على وفاة أمها سبعة أيام، تقدد الغيرة قلبها ولا تقتلها ويقلْقلها السهد فلا تطيق مكثا في مكان ولا صبرا على زمان إلى أن أجاءها الغيظُ يوما إلى مشغلي، بُعيد انصراف العاملين، مرتدية جلابة مغربية زرقاء أعطت قوام جسدها رشاقة فاتنة، ساترة رأسها بمنديل مورّد تنفلت منه على جبهتها خصلة من شعرها الأسود، كما فتنتني دائما! وقابلتني بوجه ندي زاده حسناً غضبُها الموارب.

فإنها ما قاومتْ سطوتي عليها إلا بأنوثتها، وبها أخضعتني لها في لحظات الغرام، وبحركاتها المتلِفة في الجماع بذرتني على جسدها بذرا. فما قمت عنها مرة إلا برغبة لا تنقطع تُجدِّدها لي بالاستحمام وبالتعطر وبمكسرات وعسل أشربتني منه من فمها وهمست لي بين شفتيّ كلاما عن فحولتي وقالت لي محمحمة: أنت تملأ فيّ كل شيء.» فلم يحدث أني أحسست ما ينتاب بعض الرجال من عياف حين لا يبقى من قوة في الجسد غير رماد الشهوة.

نطقت لي مغصوصة: هكذا إذاً.» فدعوتها إلى الدخول فلم تسلّم عليّ ولم أرحب بها تشم رائحة عروسي لا تزال مسام جسدي تتنفسها. وترى على وجهي آثارا من سهد جماع البكر، وقد أشرق بريق من الدمع في عينيها، لأنها تذكرت بلا ريب ليلة دخلتها البائسة.

فمكثتُ هادئا بلا صهدٍ طالما اجتحتها به كلما التقينا على فوران الرغبة. وقاومت هي للحظات أن لا تبدو منهزمة قبل أن تتبعثر نظراتها شابكة يديها تارة وتارة جاذبة طرف منديلها رادة خصلتها باحثة عن المنفذ الذي تكون حورية تسللت منه إلي فاجتثْتها من قلبي ورمتها إلى البوار.

ثم تنهدت وركزتني صامتة تستنطق عينيَّ عيناها عن ذلك الوميض الجنسي الذي كان يشع منهما قبل أن أكتسح فيها حواجز تمنُّعها. كان حبي لها مبهما! وبرغم ذلك ظلت نار الشوق هي التي تصرخ بفرحتنا فأهمهم لها حين ألقاها: يا دينك، وشحال توحشتك.» وتنكدني حين تلقاني غاضبا "تجي عليك، وأنا نبغيك! هكذا نبغيك! اغضب، تجي عليك.» ثم ارتمت في أحضاني وقبّلتني غضَباً وفتحت أزراري غضْباً وتذاوبت لحركات نزقي في جسدها. فكيف أقابلها بكبرياء عريس مغتسلا من طيشي.

فإنها لذلك أدارت وجهها عني يمينا ثم شمالا عصبيةً. فسقط طرف منديلها فلم ترده. وظهر جيدها الطويل المصقول الجميل فأومض في عينيّ بريق من شهوة كامنة. فاستدرجتني بنظرتها نحو صدرها فانسحبت فاستفزتني: صرت الآن تهرب أمام النساء؟» فنكست على حرارة خجل فزّ في وجهي. فانفجرت شاهقة فناديتها: فلّة.» ومددت يدي نحوها فأبعدتها بحنق: لا تمسني.» فحمحم حصان الذكورة في أعماقي وكززت على أسناني أمسكها من زنديها ساحقا حروف كلماتي: انظري إلي.» ففعلت مقهورة. وهززتها كاسرا

بنظرتي القاسية قناعها الزجاجي قائلا: طريقنا كان مسدودا منذ البدء وهذا مصيرنا.» فسترت نحيبها براحتيها فسقط المنديل على كتفيها تماما فظهر شعرها الأسود الكثيف مسرحا فرقين.

ما أغواني أن أقول لها "متى كان البكاء زينة امرأة.» أنها بدت لي أكثر فتنة. فرفعت رأسها مبددة زفرتها فظهر قرطها؛ كم أخذته عبثاً بلساني وبين أسناني! ورددت مختنقة: لأني لم أحب رجلا مثلك.» وتلوّت في قبضتي لأحضنها؛ ببطشي! فأرخيت عنها ودافعتها ألصق ظهرها بالجدار غارزا نظراتي الغاضبة في عينيها الداعيتاني إليها. واضطربت آآخذها إليّ وأعتصرها وأقبّلها خانقا أنفاسها في أنفاسي وأسلخ عنها في ثلاث حركات ملابسها كما كنت أفعل كلما لقيتها أو لقيتني بنار من الاشتياق وطوفان من الهيجان، وعلى أرضية المشغل أخمد في جسدها لهيب رغبتها لأمنحها مرة واحدة الشعور بأنها تغتصبني انتقاما، أم أصفعها. وليتني فعلت! فإني رميتها مثل جمرة في كأس كبريائي الباردة إذ أدبرت عنها متشنجا متلاشي النظرات أذكر كم أركبتها ظهري فطوقت برجليها خصري ثم بطني وبذراعيها رقبتي وبشفتيها لهت على كتفيّ العاريتين راسمة دغدغات لا تبدعها الألوان أركض بها حصانا هي فارسته.

بيد أني لم أكن أنتظر أن تضع يديها المرتعشتين على خاصرتي كاسرة ثباتي إذ حركت أصابعها عبر أضلاعي الخلفية في خشوع، فأحسست سلام الأم والعشيقة كلتيهما! ثم ضغطتْ خفيفا على كتفي، فبسطت قبضتيّ. وحركت قدمها في حذر فلامست ساقها

ساقي، فأيقظت بشرتي حرارةٌ وعطر ورائحة عرق. ثم قدمت ساقها الثانية ملصقة حجرها بكفليّ، فالتهبت أصابعي رغبة في أن أضغط ردفيها. ورشقت نهديها في ضلوعي لافحة قفاي بحر أنفاسها منتظرة، فلم أتحرك تسيطر علي فكرة أن تطعنني وقد حالت في رؤيتي أشياء المشغل إلى ظلال ثم ذهبت في تلاشٍ إذ غرست جبهتها بين كتفي فأبصرت أني ركضت بها وسط حقل قمح يداً في يد ثم طرت فناديتها: فلّة.» فشهقت.

نظرة اليتْم التي واجهتني بها، إذ درت إليها فأخذت يديها الراجفتين في يديّ المترددتين، هي التي نقشت في ذاكرتي ما معنى أن تحبك امرأة بيأس! فتهربت داعكا أناملها فكفيها فمعصميها فساعديها فزنديها في صمت بارد مقربا وجهي من وجهها. فهوت بذقنها على صدري تخضّها نوبة نشيج: تمنيت أن تحملني يوما في ذراعيك.» فهمست لها: وشحال كنت بغيتك.» فحركت رأسها. فلم أفرز أكان لتقول إني أداريها أم لتكذّب نفسها بأنها أحبتني يوما. ثم تخلصت مني خفيفا وردت منديلها ثابتة الغضون لابسة قناع كبريائها؛ كأنها لم تنظر إلي يوما بشبق حين تدعوني إلى افتراسها مالئة يديها بما قبضت عليه من جسمي وجذبتني وهزتني كيلا أغيب، كيلا أنسى أنها هي الحاضرة وحدها، ومنحتني لذة شعوري بسطوة فحولتي، وأسعفتني على الذهاب فيها حد التلاشي.

4

ففي شموخ امرأة جريح، كانت أدبرت عني بخطى الفشل.

فصُعقت بتيار اللحظة التي وضعت أنفي بين فرقي نهديها وتلحّست. فتأوهتْ. ثم أقفلت عينيّ أسألني في ظلمتهما إن لم أكن اغتلت امرأة منحتني طاقة حبها ووسامة شبابها ومدخرات عواطفها ونضارة جسدها وملّكتني نفسها أتذكرها تقول لي: بين يديك أشعر دائما كأني ما زلت البكر التي ظلت تنتظر ليلتها».

وتردد لي صوت بوعلام يخبرني عن أمه تقول لها على قهوة مساء تشربانها: اربطيه إليك ببطن! لن تجدي رجلا مثله مطلقا ووحيدا وصاحب مشغل يملك دارا وجاها ومجدا صنعه له أبوه بدمه! أمام إعصار الحب لا شيء يثبت؛ لا كونك ثيبا ولا أقل نسبا، أو لأنك أكبر منه سنا! أما بوركبة العجوز الخرف الأرمل فلا ينسى

إلا ليتذكر ماضي أبيك الذي أصدر الأمر بقتله. وتذكري أن أم ولد عيسى هي التي آوت الفدائي الذي خرج من عندها ونفذ العملية. فإياك أن تنامي معه بعينيك الاثنتين.» فلامتها رادة عليها بأني الوحيد من لم يأخذها بما مضى من حياتها ولا بتاريخ أبيها. فقرّعتها على خفة عواطفها تجاه من يجري في عروقه دم الذين اغتالوا أباها. فأجابتها غاضبة: احقدي عليه أنت إن شئت».

قطعاً، سأندم يوما على أني عاشرتها مراوحا لها بين هواجس الشيطان وبين أحلام الملاك، وعلى أني أذقتها خليطا حمضيا من الغيرة والتسلط ومن الحب المبهم؛ فكيفما قلّبت شأن حالي لأتنسّاها، أياما من بعد ما خرجت من مشغلي مكسورة الوجدان، إلا عادني طيفها. واستحوذت علي لحظة أخذي إياها بعنف قائمة فصفعتها لطول غيبتها عني فتناثر شعرها وأفلتت ضاحكة فطاردتها تشرنق ثيابها الرقيقة القليلة وقبضت عليها عارية فضربتها لسبب غامض وعضضت في الفراش على موضع حساس في جسدها إلى أن تصرخ ثم بحثت عن أثر العضة بعد حين وعن لونها في اللقاء اللاحق.

فقد كنا ما التقينا إلا سألتها ما ذا فعلت. فانتشت لشعورها بأني أغار عليها، أراقبها بعين بوعلام التي لم تكن تخفى عنها، مدركة أن رجلا مثلي لا ترضى له كبرياؤه أن ينزل إلى درجة الكلمات. لكنها لم تتجرأ مرة على تضليلي. وإن كان أغواها أن تتظاهر لي بالكذب عليّ فإنما لتغيظني وتهيّجني فعنّفتها فعضتني وقالت لي تشابكني: شحال نبغيك كتغضب، شحال نبغيك.» فسألتها مقدار ذلك فردت

مهمهمة: أوسع من الأرض، أكبر من السماء.» فنثرت شعرها على نهديها وقلت لها: أريني ذلك في عينيك.» فأغمضتهما زافرة وضمتني لكني أحسست فجأة بفك ارتباط فتقلصت أعضائي الحساسة ولم أعد أشعر بالأوكسجين يصل شراييني. فهزتني من تحتي فحرنت ثم انقلبت فوقي وسألتني كأنها قرأت في سريرتي: ابني؟»».

فإني كنت، كما منذ عامين، شردت عنها متفكرا في حاجز ابنها فعلا؛ أراه يكبر بسرعة تضيّق عليها حدود التستر على ما كان لن يغفره لها حين يدرك. وكان ذلك هاجسها هي أيضا. فأجبتها بتضايق سافر: أنا مستعد للتعويض. اطلبي مني ما ترينه كفيلا بأن يحفظ الود لبعضنا.» فقطعت بأصابعها على فمي وارتمت جنبي خشية أن تسمع مزيدا مما كنت سأنزلها به إلى درجة العاهرة. ثم نطقت بصوت مهزوم: نحن لا نعيش سوى حال من الفسْق.» فذبحتها بحدة جافة: لذلك، يجب أن يتوقف الذي بيننا».

لم تنبس حرفا ولا حركت غضنا وقامت صامتة ولبست واجمة ثم فتحت الباب ولم تلتفت تاركةِ لي برودة أشبه ببرودة أرضية القبو نفسها، التي كنت أهجعتها عليها عاريين أروي لها متوسدة ذراعي قصة إتلاف القنينات المعتقة واصفا لها سخط بوركبة على خالي قائلا له يوم عاد يزور بيتنا: أنت لم تحسن صنع شيء جميل في حياتك. ما عملته بحق تلك المعتقات فعل شنيع. خذ الآن مرفعها وتدفأ عليه حطبا!» فضحكت بصفاء وسألتني متعجبة: بوركبة نفسه.» ثم أضافت فماً في فم: وما ذا تقول في من أتلفوا معاصر بأكملها؟»

فأجبتها بصدق أني لا أدري. فتنهدت متذكرة بشجن: كم تعذبت أمي مما كان يفعله والدي.» فأطرقت ثم احتملت لها أن أباها كان يمكن أن يكون والدي. فردت علي فوراً: وأن والدك كان يمكن أن يكون أبي لتصير أنت أخي.» وطوقني تترجاني: الآن، فكّر فيّ.» وراحت تستنطق خفايا جسدي لا أستجيب لها مشغولا بوجودي وبأبوي وجنسي وبلدي وديني وبزماني ومكاني وباللحظة الفاصلة بين ذروة قواي وبداية عجزي وبزوالي من هذه الدنيا.

وقالت لي كأنها لتزيل كلفة ما ظنته أسكتني: لم تبك أمي لمقتله ولكن للغبن الذي لازمنا». فخلّلت شعرها فتنهدت ممسكة بيدي على صدرها تحكي لي: هجرتْه في الفراش واشترطت عليه لعودتها أن يكفّ عن الشرب وعن التردد على مكتب ضابط الفرقة الإدارية المتخصصة فسبب له ذلك نوبات عصبية حادة وأدخله في هوج من السباب واللعن، يمزق ملابسه ويضرب على الحيطان بيديه ورأسه إلى أن ينزف ثم يركل كل شيء في طريقه ويكسر ما تطاله يداه. وبرغم ذلك لم يضربها حتى لما رفضتْ بإصرار أن يزوجني لأحد الحركى وهددته بأن ننتحر معا ثم صارت تجد الذريعة تلو الذريعة لتأخذني معها فنقيم ليلة عند الجيران وأخرى عند بعض الأقارب».

وهمست لي خدها على صدري أن الخامسة عشرة كانت عمرا متأخرا قليلا عن الزواج، لأن قريناتها زُوجن في سن أقل لخوف أهلهن عليهن من اغتصاب العسكر. وروت لي لا تسمي والدها مشخنة الصوت ببحة قائلة: لم أكن أنتظر أن يُخرج المسدس الذي كان

أعطاه إياه ضابط الفرقة الإدارية المتخصصة ويوجهه إلى بطن المظلي الذي صحبه ذات ليلة إلى بيتنا فدخل وتحرش بي في لباس نومي فذعرت محصورة في ركن من حجرة وحيدة يتكون منها، هي والمطبخ، الحوش الذي اشتريناه بما قبضته أمي من بيع حيواناتها ومن مدخراتها القلية إثر انتقالنا إلى المدينة هربا من تهديد الجبهة.» فخجلت أن أبوح لها أني تصورتها في ذلك السن فادحة النضج بطعم فاكهة الجنة.

وأضافت: شاهدت فيه لأول مرة ظل الرجل وهو يقف حائلا بيني وبين المظلي الهائج المسمر مكانه أمام فوهة المسدس، فيما اقتربت مني أمي وحضنتني فأحسست جسمها لو كان من حجر لتناثر لرجة الرعدة التي خضتها.» وسكتت عن أن تقول لي هلعاً من أمها عليها من الاغتصاب ثم رميها في أحد مواخيرهم، كما كان مصير آلاف الفتيات الجزائريات.

كنت أصغي بأحاسيسي المسافرة في تلك الأعوام المظلمة: صب عليه المظلي كل شتائم الدنيا. لكنه بقي ثابتا لا ترتعش يده على المسدس إلى أن خرج لاعنا. كانت الحرب دخلت عامها السادس لما قتل. فرعتني أمي بصرامة رجل إلى أن تزوجت بعد نهايتها بثلاثة أعوام. حينها، كنت بلغتُ العشرين».

فسرّبت يدي إلى نهدها وضغطت حلمتها بين إصبعيّ فأغمضتْ على تلاشي زفرتها. وهمست لها بين سُكون القيلولة وعتمة القبو وحرارة جسدها: قارسيا اختبأ حيث نضطجع قبل فراره نحو

الميناء ومنه إلى فرنسا.» فردت همسا: أحس نفسي في منام.» فعبثت بأصابعي في ما بين فخذيها صامتا. فتأوهت مبعدة يدي وترجتني أن أسمعها تستعيد لي المكان نفسه لما كان أبوها يقوم على تنظيفه وترتيب محتوياته، منذ أن عهد له به قارسيا، فيشرب خلسة من تلك المعتقات المصنفة بحسب أعوام تعبئتها ثم يعود كل مرة إلى البيت منتشيا كأنه نفذّ ثأرا. وقالت لي بحسرة: لو أمهله الزمن قليلا لكان كفّر عن خطاياه.» وتحولت عني بجنبها تسألني: أليس كذلك؟» فقلت: ما ذا ينفع؟» فاستدارت وصالبت سبابتها على شفتيّ. فدغدغتها بلساني. فترجتني: لا تُجب.» ثم زحفت مبتعدة قائلة بمرارة: مات خائنا، يرضيك؟».

جذبتها إليّ وحنّنت براحتي على وجنتها قائلا: وقتها، كنت أصغر من أن أستوعب معنى الخيانة.» فأخذت إبهامي ومصته. فوشوشت لها أنها كانت سمعت مثلي كلمة الحرية فسحرتها. فنقلتْ يدي إلى نحرها ونطقت أحس ذبذبات صوتها أنها في سنها كانت تستوعب الفرق بين مقتل الأبوين وتعجبت لي: ماتا في عام واحد.» ثم سحبتْ يدي عبر صدرها إلى بطنها الصارم فأدخلت رأس بناني في تجويف سرتها قائلا: كي أجس نبض حقدك.» فلم تقاوم الدغدغة. لكنها ألحت عليّ أن أصارحها فعبثت بلساني في أذنها فقرصتني في داخل فخذي فتألمت أسألها: بما ذا؟» فردت في تنازل: لا شيء.» داعكة على جانب فخذي وهناً. ثم عادت فسألتني إن كنت أقتله لو قدر لي أن أكون مكان الفدائي فأجبتها: المحتل كان واحدا

سافر الوجه، وله اسم، ويوجد في أرض كان يجب أن يخرج منها.» فأخذت يدي الأخرى وحطتها على جبهتها تلومني: عرفتك صريحا إلا معي.» فقلت لها: لم يكن من حق أي جزائري أن يخون.» وكانت الحرب قد انتهت منذ أكثر من عشرين عاما.

فبسبست لي ناشبة أصابعها في صدري وحذرتني صارمة: أحمد! أنا لم أعد قادرة على المحاذرة إلى ما لا نهاية.» وشكت إلي تأريقها من انتظارها طمثَ دورتها الشهرية. فأخذت وجهها بين يديّ وتعجبت لها: حقا.» فأغمضت عاصرة شفتيها؛ ليقينها أني كنت لن أمنحها رخصة تخفيض عمرها بخمسة أعوام، ولأني كنت سأسألها ما ذا فعلت بأيامها البيضاء قبل زواجها الثاني الذي جاءت منه بطفل تيتّم رضيعا ولم تنعم به أمها حفيداً لها سوى شهور قبل أن تموت مسلولة. ثم قامت إلى المرآة وراحت تنقّب بأصابعها في وجنتيها عن فتنة لها على وجه نُقع بالمداراة والخجل. وتلمست مواقع من جسدها العاري الرطب الناعم كأنها تتفقَد فيها آثار أصابعي وشفتي وضواحكي أحيانا. وعبّت من زفرتها وأسمعتني: أردتني لنزواتك. لا عليك! أنا التي «. وأجهشت منتحبة. لعلها من يومها التفتت إلى ابنها. فقلت أنا: طشت يا خالة! عصيت يا إلهي! لم تبق لي غير التوبة».

5

نزلت أدراج السطح حرِج الصدر؛ أسفا على أني خيّبت بوركبة، مهموما بحيرتي على رشيد ما الذي كبلني أمامه لما تظاهر لي بأنه جاءني ليرى أخته نجاة ثم ترجاني أن أحضرها له ليسلم عليها في الحوش، مصدقا تودده إليّ بأني أخوه الأكبر فقبلت اعتذاره عن الدخول معي، وبأنه يعرفني أُعزه فلاطفته بشكي فيه أنه عاد لينفذ وعدا قطعه على نفسه قبل ثلاثة أعوام، ورضيت له أن أمنحه ليلة يقضيها في القبو بعد أن تعشينا معا، ولم أسأله لما ذا حينها ترجاني أن أتكتّم عليه لدى بوركبة، وقال لي عن الضابط لخضر إنه شخص يقدر الرجولة، وطمأنني على أنه شحن قلبه بما يكفي غسل ذهن نجاة من صورة الوحش ثم نطق لي بقسوة: استباح دم عائلتي ثم عاد من غير حساب؟».

وخرجت من الحوش لأدخل القبو من بابه البراني فلفحتني برودة الفراغ. ونزلت حاشرا حواسي أسمع الصمت يتردد في أنفاسي على وقْع خطواتي. وتلمست السرير على غشاوة فتوهمت شبح الموت نهض بفحيحه من الفراش البارد. ثم أشعلت الضوء فظهرت على المائدة بقايا أكل وفوق كأس ورقة أخذتها وقرّبتها ثم قرأت: أوفيت بما أقسمت عليه عند قبورهم. لكني أشعر بألم كبير لأنني تسببت في شرخ لا يجبر. لن أخاف على نجاة بين يديك. الزهرة تحتاجك في أمر مهم. رشيد».

فقد وضعت الورقة في جيبي جالسا على حافة السرير أستعيد طيفه واثقا صارما؛ كما قبل ساعات يأكل الكسكس بمرق الخروف ويذكرني: بيني وبينه زمان! آخر طبق تناولناه معا كان في دارنا يوم جئت تشيعني قبل التحاقي بالثكنة.» كان حينها أقفل دراسته الجامعية.

لكنه بخْلق إليّ إذ سألته في نهاية الأكل إن كان مؤمنا ورد عليّ مستغربا: بما ذا؟ بالله.» فاعتذرت له على أنه لم يكن في نيتي أن أرْقب على ما في قلبه. فتحسّر لي: من ذبّحوا عائلتي يقولون إنهم مؤمنون.» فقلت له: هناك رب يعدل يوم الدين.» فتمعّن في أخاديد يده كأنه يقرأ منها: ذلك يوم بعيد! وإزالة الظلم لا تنتظر القيامة».

صمتّ أشعر بخواء من حولي. فسألني عما أصابني فأجبته: صداقتي لك قائمة وعميقة.» فشد على يدي قويا وضمني ثم فك عني بخطوة إلى الخلف ينظر إلي برجاء أن أتركه. فتوليت عنه

فاستوقفني. فلم أستدر. فطلب إليّ أن أعمل على ألا أعود إلى القبو إلا مساء. فأجبته: كما تريد.» وانصرفت عنه أحس شخصا غيري سكن ذاتي فتكلم من داخلي: لا شيء يوقف رغاء الدم».

كان كالموت برداء أسود غامق؛ من الجاكتة الجلدية وسروال دجين إلى الحذاء الرياضي وبعزم حديدي حالك إذ فتحت له باب الحوش على أذان العشاء يُرفع تحت قصف الرعد وخطْف البرق. فسلم ولم أسأله غيابه المدة كلها مرتضيا نزوله عليّ كقدر. ثم مسح دمعة إذ أبصر نجاة، على الضوء المنبعث من فتحة باب الرواق، تحررت من يد حورية وجرت نحوه تحت الظلة المنارة فركز ركبته على الأرض وحضنها وقبّلها على خدها وفي جبهتها، فيما أرسلت هي أصابعها الصغيرة في شعره تسأله أين كان. فلم يجبها وضمها إلى صدره ثم قدم لها علبة: ستجدين فيها شيئا يتكلم.» لم يكن سوى الدمية التي وعدها بها فأخذتها على صدرها. ومن جيبه أخرج لها كيس حلوى أضافه لها فوق العلبة.

كنت أتابع بنار في صدري وكانت حورية تشهق. ثم استقام وتعجب لها واضعا راحته على رأسها: شحال راكي شابة.» فلم تنطق تسأله بصمت الوحشة أين غاب، كيف يتركها. فجثا أمامها فوضعت هديتيها أرضا وعلقته ضاغطة بذراعيها الصغيرتين على رقبته. فأخذ يديها المرتبكتين وقبّلهما واحدة بعد أخرى. فتنهدت. ومسّد على خديها براحتيه هامسا لها أنه سيعود. وقال يقوم حاجرا دمعه: يا الله الآن مع عمي أحمد.» فامتثلتْ. كنت حملت العلبة وكيس الحلوى إذ

أشار إليها بيده مودعا. وتولى خارجا تحت هبة العصف ورائحة المطر لينتظرني عند باب القبو البراني.

أخرجت الورقة من جيبي وأوقدت عود ثقاب عرضتها على ناره: لا يمكن يا حضرة الضابط.» ثم عدت أدراجي ففاجأني شخص وقف قرب باب الحوش فهيأت مسدسي مستطلعا خلفي وشمالي وتقدمت فنطق: أنا بوعلام.» وفزع نحوي قائلا إنه لم يستطع أن يجيئني من قبل. وأقسم لي أنه لم يخبر الضابط بشيء. وتشفّع لي أنه لم يقصّر يوما في خدمتي. فأمرته أن يدخل فتمنع فأجبرته. وفي صحن الحوش رطن لي أنه مستعد لتقديم أي خدمة يطلبها منه رشيد. فسألته ساخرا كيف أقابل رشيد. فرد: رأيته يدخل عندها.» فأمسكت به من نحره وأكرهته على أن يسميها لي. فأخرج مقاطعها من خناقه: الز..ههـ..رة.» فتوعدته إن عاود الادعاء. وفككت عنه فنطق لي مبحوحا: أبدا! كأن سيدي لا يفهم.» فصفعته. فأهمد براحته أثرها على خده متذللا: خادمك يا سيدي، وأنت صديقه الوحيد.» ثم أدنى مني وجهه وقال متهيّبا: خالتي فلّة ما زالت تبغيك.» فهششت عليه فتجنبها وانصرف يصر علي: أريد أن أفعل شيئا من أجله.» فخرجت خلفه.

6

فتحت خادمة بوركبة الباب فسمرتها المفاجأة إذ رأتني، واقفا بقامتي الواثقة في لباسي المديني النظيف، فحييتها مبتسما فاطمأنت وسألتني كيف حالي. ثم همست لي في الرواق أن سيدها أمسى على قلق غير معهود. وكانت ستضيف شيئا آخر إذ أطل من باب الصالة وأشار إليّ بالإسراع في الدخول، كما ضابط تماما! ثم نظر إليّ بوابل من التخمينات لما جلست قبالته على سداري وقال لي بوثوق لا ينتظر مني ردا: رشيد بات عندك».

واستفسرني عن نجاة إن سرّتها رؤية أخيها، متفرسا في ملامحه صلدةً برغم العمر. فأكدت له ذلك. فافتخر لي أن الرجل الكريم خلق ليقاوم اللؤم والوضاعة. وطلب إلي فجأة أن أزيح جانبا موقفي الشخصي تجاه من رفعوا السلاح في وجه نظام الدولة. وحذرني أن أحشر ضمنهم ولد فلّة، كما نبرها لي بشماتة، لأنه لم يكن سوى مجرم

صغير، قائلا: عشت أقدّر ما يثور في داخل الشخص عند الإحساس بالظلم. والتزمت باحترام أفعال الرجولة، حتى ولو كانت خارجة على القانون أحيانا بسبب القهر الاجتماعي أو الانتقام لانسداد الأفق في تحقيق الحلم! مثل أولئك هم الذين تتحرك فيهم ضمائرهم يوما ليعترفوا بذنبهم! أما من أجرموا في حق الأبرياء فليسوا سوى وحوش لا يجدر بهم أي اعتبار».

ورفع شاهده يذكرني: ولد صديقنا كان وحده مثل فارس صياد في مواجهة عدو حقيقي متمرس وخطير تربى في الجبال على حيل الثعالب ومكرها.» فأنعمت له، وفي ذهني وجه رشيد بملامحه الجليدية يردد لي عند باب المقبرة: الوغد! سأذيقه طعم الموت بيدي».

ثم أصلح من جلسته ملقيا بثقل ظهره إلى الخلف وقال لي بصرامة المكابر: الفتوة هي الحقيقة الباقية لهذه الأمة! أتصور كيف دخل رشيد عليه وباغته برصاصتين قالتا له ما لم يحدثوه به عن القتال والجنة والنار والموت.» وتنهد ناظرا فلم أعلق فأضاف: الآن أحس أن الإهانة في حق رفاقي غسلت بالدم».

وقلّب بصره في وجهي إلى أن كسر سياج تحفظي فقلت له: دخل علي في المشغل شخص لا أعرفه وقال لي: رجع الطائر إلى العش! ثم اختفى. فاتصلت بالزهرة.» فتمتم مبتسما: بنت سي إسماعيل.» وتساءل لي إن كان الضابط لخضر، بما تراكم بين يديه من إثباتات على أفعال لحول وجماعته، يستطيع أن يقدم خدمةً ما لرشيد.

ولما أحسني أحجمت ذكّرني: لن ينسى لولد فلّة دم أفراد

طرقته، ولا الكمين الذي نصبه له فنجا منه بمعجزة لتَعطل دارة القنبلة التقليدية المزروعة في طريق الدورية.» وكان الاشتباك الخاطف لم يسفر سوى عن خدوش لسرعة سيارتي الدورية ولكثافة الرد على مصدر نيران الأسلحة الخفيفة.

كنت توقعت أن يرى ذلك بعين المنطق لما اعتقدت له أن أصحاب القضاء ينظرون إلى رشيد بصفته جانيا. فرد عليّ: وتهضم أنت أن يُدان ابن صديقنا؟ فعلا، بلد معجزات.» فافترضت له قائلا: ولكنه يستطيع أن يسلم نفسه.» فقام ثائرا ملوحا بإصبع الشرف: يجب أن يقبضوا عليه أولا.» ونظر إليّ من أعلى يسألني عمن دغدغ مشاعري بالفكرة ثم أمسك على ساعديّ ولامني: أنت، يا أحمد».

أحسست نفسي، قابعا مكاني، قد انخزلت إلى حد التلاشي، أتابعه في صمت يخطو، وسط صالة هادئة مضاءة بثريَيْن كبيرتين، كقائد في غرفة عمليات تكبد خسارة إستراتيجية، قائلا في الفضاء: البلد كله جُن؛ بشره وما فيه.» ودار نحوي: تذْكرُ يوم المذبحة؟ التفتّ إليّ ونظرتَ إلى قدميك ملطختين بدمهم. ثم سألتني عما أصابنا. وقلت لي، كأنك فقدت إيمانك: تخلى عنا الله! حينها، لم أملك لك ردا. الآن، أستطيع أن أجيبك: ربما! إنها لعنة دماء من حرروا البلد أصابتنا بعد أن نكثنا عهدهم وتنازلنا للخطائين من كل أفق والآثمين والطاغين أن يعيثوا في مال الريع فسادا وأن يتحكموا في رقابنا. وإلا كيف يدان شخص لم يقم سوى بما عجزت عنه أجهزة دولة أصاب دواليبها صدأ الفشل.» وحذرني أن أكون تصورت أن ما

قام به رشيد جناية. فشعرت لحين أني نسيت ما قصدته فيه فقلت: أنت محق».

ومن فوق رخامة الموقد التقليدي المنطفئ رفع بيد واحدة رشاشا من نوع "ماط" وقال ملتفتا إليّ ببرودة: أعرف أنك كنت ستقوم بذلك لو حدث لرشيد مكروه! وكنت أنا على هذا العمر ما ترددت لحظة في تصفية المجرم.» وناور المشط مرجعا إياه إلى وضعية عمودية ثم نزعه وأخرج من المغلاق رصاصة بيت النار وحطها على الرخامة فأحدثت صوتا أصم.

فقد شد الرشاش من وسطه ونظر إلي بعين متأملة قائلا بوقع: سأبقى أكذّب من زعم أن الجزائريين خاضوا حرب تحريرهم من غير أن يكونوا مشحونين حقدا على جيش اغتصب بلدهم وعفّر شرفهم وأهانهم وأذلهم وأذاقهم ألوان الحقد كلها من أجل حماية مصالح معمرين جشعين وعنصريين لم يكونوا في الأصل سوى ضالين وقطاع طرق وجائعين أرسوا لأسيادهم الساسة من وراء البحر قاعدة بنوا عليها مشروع استئصال شعب آخر من جذوره».

فكثيرا ما أدهشني باسترساله الطافح وأوقعني، كما غيري، تحت شلالات كلامه إن غضب أو تذكر أسباب أحزانه! غير أنه في تلك اللحظة بدا لي على حدود الانهيار لشدة تأثره: ما حييت، سأحتقر من حوّلوا ولد فلّة وأمثاله إلى آلات تدمير! ولكني سأظل أحترم أولئك الفتيان الذين رفعوا السلاح في وجه الحكومة مدفوعين بالشعور بالغبن واليأس».

وإذ وضع السلاح على الرخامة نطق لي بصوت مشروخ: يحقد الشخص لأنه تعرض لظلم بقي المتسبب له فيه بلا جزاء من عدالة لا تنصف.» ثم اقترب مني، فأحسست حرارة أنفاسه المنبعثة من جسم ملتهب قلقا، وطلب إلي أن أصارحه إن كنت مجبرا على إخفاء شيء ما حول رشيد. فنفيت أخبره: جئت لأستشيرك في أمره.» ففاجأني بعصفة من غضبه: يعفون عن القتلة بلا محاكمة ويقاضون المقتصين منهم؟ لعنة! لا تندهش إن خرج علينا يوما من غرفة النظام الخلفية سياسي ألمعيّ وأقر محاكمة من رفعوا السلاح للدفاع عن بقاء الدولة».

وأشهر إصبعه في وجهي قائلا: رشيد، سيعرف كيف يخرج من المدينة كما دخلها.» وتحرك فأعثره طرف الزربية المبثوثة فكاد يسقط فأسعفته فطاوعني وجلس جنبي فتنهد يطمئنني على أنها مجرد غشاوة عابرة.

بعد صمت، ذكرني بنبرة لوم: لم أعرف بعدُ لما ذا أبديت لي في تلك الليلة معارضة على تشكيل محكمة الحقيقة لإدانة من ثبتت جرائمهم في حق الأبرياء.» فأجبته: سي الطيب نفسه كان أصر على إشعار الضابط لخضر فبعثموني إليه فعدت بتحذيره القاطع من تشكيل أي تنظيم غير قانوني تحت أي ذريعة».

فزفر. كان لحظتها تأسف بمرارة صارفا عني نظره قائلا للطيب بن العربي: يحق له الآن أن يتصرف كرجل قانون.» وقام من السداري ليرمي قطعة حطب في كانون الموقد التقليدي قائلا في انفعال: أنا لا أعيد اختراع البارود! إقامة المحاكم السرية لمعاقبة

المذنبين أمر سارٍ عبر التاريخ. ما الذي يمنعنا من ذلك ما دامت الدولة عاجزة عن العقاب! يجب أن تعلموا أنه لا شيء يحرّض على الجريمة ويحثّ على الفوضى مثل جهاز عدالة ضعيف لا يقمع سوى الضعفاء».

أذكر أن الطيب بن العربي رد عليه بأن ذلك يؤدي حتما إلى ظلم أكبر. فابتسم منَهْنها: أبدا! أمام عجْز الحكومة عن مواجهة الظلم العظيم يتحتم القصاص ممن لا يحترمون النفس البشرية. العين بالعين.» وسألني: أم ما ذا؟» فلم أنطق. فأضاف كأنه يشْرح حقيقة: يجب نقل الرعب إلى المدبرين الذين لم يمسسهم سوء مما يقع، وإلى من يجندون منفذين من المشردين ومن الصعاليك والمدمنين والهاربين من العدالة والفارين من السجون ومن المجرمين والضالين ومرضى النفس وأبناء الزنى كيلا يهْنأوا بدقيقة واحدة من الأمان لا يدرون من أين تأتيهم ردة الضربة بالمثل ولا متى».

ثم كنس من على وجهه آثار اللوم قائلا لي بود: أُرعبت أنت أيضا وعرفت ساعات اليأس وتوقعت طعنة الغدر في كل مكان وحين.» فقلت واضعا يدي على ركبته: كنا جميعا معرضين للغدر والموت مثل آلاف الناس الآخرين».

فاعترف لي بهمس أنه تنازل لوساوسه فظنني عارضت مشروعه عند الضابط لخضر. فصارحته بأني فكرت حينها أن ضريبة حرب التحرير التي قدمها كانت كافية. فتحسر لي: ليت الجنون الذي أُدمي به البلد كان وُجه إلى من كانوا سببا ثابتا في خرابه! وأما الضريبة

الحقيقية فهي ضريبة الدم التي أداها رجال أحق بالمجد، بالأمس كما اليوم، فألبستهم الشهادة زينتها».

فاعتراني شعور بالأسف على أني كنت ضخّمت له من رد فعل الضابط لخضر الذي ألمحت إليه بالفكرة على سبيل الإمكان فاعترض حتى لا ننساق، كما نبهني، إلى مغامرة مجهولة العاقبة.

فكعادته، حين يرجع إلى ذاته، نهض بوقار رجل متعب. فقمت أنظر إليه مهموما. فطمأنني بابتسامته العريضة الدافئة قائلا: البلد في حاجة إلى أبنائه العقلاء المخلصين؛ لا إلى همج الساسة المستهترين».

ثم أخذ سلاحه وأعاد تركيب ما كان فككه منه. وإذ رآني أتأهب للمغادرة تفحصني متعجبا: أبدا! والعشاء؟» فاعتذرت بإصرار. فاستقام في استعداد عسكري ونبهني: رشيد لم يرتكب جناية! إنما اقتص. أرجو أن يفهم السيد لخضر هذا الفرق».

ولما ودعته استوقفني شادا على معصمي: أتمنى أن لا تخطئ التقدير! السيد لخضر عسكري ينفذ أوامر». فأكدت له ذلك. فأفسح لي يوصيني بنبرة آمرة: بلغ ابن صديقي أني مستعد لأصرف عليه مدخراتي كي يبقى متمتعا بالحياة وبالحرية».

فأجبته متأثرا: هو يعرف ذلك.»



الفصل الرابع

1

على أبواب المسجد الكبير والبلدية وقهوة الساحة وحمام الوسط وسوق الخضر والفواكه وفضاءات التنشير وعلى جدران شوارع مركز المدينة، اطلع المبكرون على المعلّقة نفسها ببنط غليظ ولغة قاطعة «أهالي ضحايا هذه المدينة المدماة، امنعوا أن يقاسم القتلة أهلكم وأبناءكم الأشبار التي يرقدون فيها».

فقد فوجئ نادل قهوة الساحة بالبلاغ ملصقا على مصراع الباب الزجاجي، وقرأه زبون ثم جلس منفعلا وطلب بيد مقبوضة قهوة معصورة قائلا في الفراغ: بلد تلاحقه اللعنة! الآن يدعون لنقل الحرب إلى المقابر.» ثم أشعل سيجارة مبعثر النظرات وجذب نفسا لم ينفثه وحمل الفنجان من غير سكر ووقف خلف زجاج الباب مناوبا جبذة برشفة فأفزعه شخص مد يده إلى البلاغ ونزعه بكمشة واحدة في صمت ثقيل وانصرف.

وفيما كان أعوان الأمن الآخرون ينهون تمشيط المدينة بحثا عن بقية الملصقات، في أماكن كانت التنظيمات السرية السياسية والدينية المحظورة في عهد الواحدية الحزبية تتخذها لنشر بياناتها التحريضية والتخريبية، وضع الضابط لخضر بين يديه البلاغ الذي سلمه إياه أحد أعوانه وردد: استفزاز! قتَله ثم راح يؤلب المدينة على جثته.» وقرأ في التقرير الأولي الذي أعده أعوانه أن التوزيع كان سريعا ومعمما. ثم فتح ملفا ورّقه أمامه سرعان ما أغلقه على وجوه كثيرة تظاهرت له. وحرر برقية عاجلة لتراتبيته أبرز فيها عبارة "المعني لا ينتمي لأي تنظيم».

في حين وقف ميمون على الرصيف يرى الذين تجمهروا، أمام دار البلدية المطلة على الساحة وعلى وجوههم شُهْبة الخريف، يكادون يكونون جميعا ممن أصيبوا في أهل أو ولد. ففكر فوريا في لحول، مخمنا ضخامة الأموال والمجوهرات التي ابتزها ثم انفرد بها وخبأها خلسة عن جماعته في مغارات الجبال وفي الآبار الجافة المهجورة أو قرْب الينابيع الغابية لوقت مناسب.

وارتد إلى من تقاطروا من حوله على الرصيف فألفى أكثرهم أولياء أو أهلا وقربى لمن التحقوا بالجماعة. فذكّره ذلك، مثلي، بمأثرة الساحة التي بدت لي كأنها تتأهب ليوم من أيام استنفارها الكبرى بمكبرات الصوت ومكثفاتها خلال تلك التجمعات والمظاهرات الاحتجاجية والاعتصامات التي لهجت فيها الألسن بالوعد والوعيد وصاحت الحناجر بالوَحَر والزفير.

فقبل أربعين عاما كنت شاهدت السيارة العسكرية الميدانية ذات (أربعة أربعة) توقفت في مركزها مشهرة رشاشها الثقيل وسط المحوَّشين من أطراف المدينة، وقد جاء بي الفضول ككل الأطفال مثل ميمون كغيره من المراهقين. ثم وقف منها مظلي ذو قبعة حمراء ورطن عبر مكبّر صوت محمول رددت الحيطان صداه. فترجم كْلابو من خلفه أن ما سيعرض دليل على قوة فرنسا وبطش جيشها الذي يتعقب (الفلاقة) ويبيدهم حيثما كانوا.

فشقت التجمعَ شاحنةٌ لنقل العسكر وتقدمت تدور حول ذات الأربعة أربعة المتوقفة. ثم فُتح بابها الخلفي فظهر عسكريان راحا يحملان جثثا من أطرافها ويرميانها الواحدة تلو الأخرى فترتطم بالأرض متدحرجة قليلا قبل أن تهمد مبعثرة المفاصل. فعددت في روعي إحدى عشرة جثة امتدت سرادقا بين المحوشين وبين المظلي وعسكرييه في السيارة، أسمع صوت كْلابو المنكسر يتلاشي: يقول لكم المسيو الضابط إنهم آخر (الفلاقة) الذين طهرنا الجبال منهم».

وبعد ثلاثة أعوام كان ميمون، مثلي، من المغمورين في الساحة بتيار الحشد الأكبر من الأطفال والنساء والرجال ومن الفتيان مثله الذين كانوا وضعوا أسلحتهم البيضاء من الفؤوس والخناجر والسيوف والآلات الحادة والسلاسل، لرد هجمات فتيان المنظمة السرية المسلحة وبقايا أبناء غلاة المعمرين، فأنشدنا الليل كله وغنينا فرحا بالحدث الأعظم. وانتظرنا كما الناس جميعا حتى الضحى فظهرت لنا أولى طلائع الجنود النازلين من الجبال بألوان الغابة في

انتظام استعراضي بديع. فتفجّر في قلبي كما في قلوب الحشود، تحت الزغاريد وظلال الرايات، شلالاتٌ من الفخر والعزة. وذهبنا نحن الأطفال والمراهقين والفتيان في الموج البشري عبر الشوارع التي عتّقناها بأصوات الفرح حتى الليل.

لكنه بعد عامين آخرين شهدت الساحة جمعا مختلفا أكثر تصفيقا لكلام جديد سمع ميمون، مثلي، مفوضين من الحزب رددوه عن ثورة أخرى فحسبهم تحدثوا عن حرب أخرى فتخفى، فيما شدني بوركبة قائلا للمسئول على المنصة: هناك ثورة واحدة أكملتها أحسن دم أفضل رجالها أمانة في عنقي ولا أراكم أنتم اليوم سوى تجار بائسين تبيعون وتشترون بأرواحهم في سوق الكلام.» فقطع عنه مسئول الحزب الكلمة فرد عليه بصفعة كبست الساحةَ ثم غادر المنصة تحت صدى الذهول.

كان المشهد أكبر من أعوامي الأربعة عشر! فقد بحثت عن ميمون لأبدي له شعوري بالفخر أن يكون شخص مثل بوركبة رفيقا لوالدي في السلاح. كان لا يكبرني إلا قليلا؛ عرفته جارا لنا هنالك في الريف قبل أن تفارق بيننا الأيام والحرفة. وأبصرت فلّة ظلا عبَر من أمامي بألق الفتنة ووهج العشرين، ولم أكن عرفتها بعد. كانت من صبايا ما بعد الحرب الفاتنات.

فلم يكن سوى وهْمٍ أني تصورت بعد عقود أنها تمنت لو كان أباها ذلك الذي صفع المسئول ثم نزل من المنصة بكبرياء أمير فتطهّرت من وصمة الخيانة، وأني خلتها قالت لأمها محبطة: لما ذا

ألبسَنا العار؟» فإنها كانت يومها رأت في الساحة، ولكن بغيرة، أولئك الثكالى والأرامل اللائي يصغرنها أحيانا والشابات اللاتي كن في سنها أو أكبر منها مغمورات جميعا بعزة عارمة.

2

أذكر أن بوركبة لم يصعد من يومها أي منصة نصبت في الساحة التي ظلت، كلما غصت بالحشود والخطباء، تعلن إلى سكان المدينة أن موعدا انتخابيا على الأبواب نادرا ما لم يكن حملة رئاسية بمرشح وحيد. حتى إذا انفجرت حوادثُ أكتوبر، قبل أحد عشر عاما، استعادت منصتها حياتها بألوان أخرى مختلفة وبخطابات جديدة مباشرة محرضة قاسية وعنيفة. وبرغم ذلك بقيت تثير عواطفي بتذكار فلّة أقبض على يدها في يدي قبل ثلاثين عاما شابةً ملتهبة الأنفاس فادحة القوام مطلّقة لما واعدتها فيها بمناسبة الاستقلال، عندما كان لا يزال عيدا كبيرا يحييه الآلاف من سكان المدينة من الأعمار كلها فيتزين الليل بالألعاب النارية وطلقات البارود وبأصوات المغنين المتعاقبين على المنصة وباستعراضات أزواج العشاق من درجات الفئات كلها متخفين ومجاهرين تحت الأعلام

الوطنية أينما كانوا، فأحسست لذة العسل في صوتها الرخيم إذ عاتبتني بكلام امرأة: شاب مثلك.» لأني تجرأت على دغدغة كفها.

كنت أحدس أنه أثارها مني بقايا رائحة نجارة تحس جسدي يتنفسها، وقد كانت جاءتني قبل أيام إلى مشغلي وقربت جسمها مني حدّ أن تنشقت أنفاسها ونطقت تثني عليّ: ما دخلت بيتا ورأيت خزانة متقنة الصنع إلا سألت عن صانعها فأجابوني بغيرة أنها بيد وحيد أمه! أريد من يديك واحدة لغرفة نومي.» وابتسمت برغبة ملتبسة فصُعق كامل جسدي. وبصّرت في أصابعي العامرة والجميلة، كما قالت لي يوما تمصّ أطرافها واحدا واحداً، مشْبوكة الوجدان بمطلعي المهني وبيفاعتي. وأضافت برفة غمْز: أنا مسكونة بإتقانك.» وراحت تُفصّل لي طلبها، مستمعا لها بانتباه الصانع، ثم حاصرتني بنظرة مفعمة بالمعصية مسوقة نحوي باشتعالٍ بهيمٍ قائلة تضع يدها على صدرها النافر: ثمنها عندي، هنا.» فانفتحت عيناي على سَعة الخطيئة واستجابت حواسي لدعوتها المتحرشة بصهيل الشبق فلم يُجْدها بعد ذلك أنها لمت على وجهها الجميل خجلا.

كان هو الوجهَ الذي رأيته مرة في الساحة سابحا في محيط من نظرات رجال أكبر مني عمرا تستثيرهم بدلالها الموزع نغما على حركة مشيها الفاتنة لابسة الحايك مدفوعة باضطرام شبابها أمواجا ما فنيت واحدة منها إلا مدت أختَها خطوةً أخرى أكثر رشاقة!

لم أنشغل بأن تكون تذكرت شيئا مني؛ فنظراتي كانت أقل حدة لتحفر في ذاكرتها أثرا لوجهي أو تحدث اختراقاً في قلبها! لكني

في زوال ذلك اليوم، الذي أنزلتها فيه إلى القبو وضغطتها إلى صدري فطاوعتني، أيقنتُ أنها نسيت وجوه كثير من الرجال أمام وجهي الذي أخذته بين يديها وتلثمتني وقبلتني تتلظى شهوة. وذكرتني بكل شيء ولا شيء فقلت لها مصهودا بلهيب جسدها: خزانتك انتظرت في مشغلي عامين.» حدث خلالهما أني تزوجت زواجي الأول. فلاعبت لسانها على شفتيّوحكّت بذؤابة أنفها على أنفي هامسة: كنت أنتظر زواجي الثاني فأخذني رجل لم يخلف لي سوى فركوس واحد ورحل في عامه الثاني.» فأغمضتُ على وجع خفيّ ولذيذ. فمررت براحتها على خدي مضيفة: لو علمت أنك كنت ستطلّق ما قبلت زواجا من أحد.» ففتحت عينيّ على توهِ فأعادتني إلى عتابي: ولكنك تستطيع أن تأخذ مني ثمن الخزانة.» فنثرت شعرها الأسود الكثيف فراشا لكتفيها ونطقت لها بين شفتيها: لكني لم أوصل يوما إلى أي دار شيئا مما أصنعه.» فحمحمت لي: كنت أبغي أن يراني رجل مثلك سافرة.» وضغطت صدري على صدرها ضاحكة: كلما فتحتها تخيلت أني سأجدك قابعا فيها تنتظرني.» فحضنت بين يدي وجهها المزهر أنظر في عينيها المشعتين بفرح الدنيا وقلت لها: كذلك كنت أتخيلك.» وافتعلت لها أنها لم تدفع ثمن الخزانة بعدُ فطوقتني وضمتني ملتهبة: خذه الآن نقدا نيئا.» وإذ تمددت جنبي حدثتها أني شاهدتها ذات مرة في الساحة فشعرت نحوها بشيء مبهم وقلت لها: كنت أحمل في صدري قلب رجل.» فانقلبت فوقي ونظرت في عيني ببهاء ثم همست لي: أنت، عفريت!».

كان صباحي على رصيفها كاسفا برائحة الخريف. فحننت إلى

بوركبة يسكن ذهني وجهُه الصارم إذ غادر المنصة فوقفت أمامه صامتا أتأمله فوضع يده الواثقة على كتفي واستفسرني فقلت له: أنت الوحيد، من بين الرجال جميعا، من يجرؤ على صفع مسئول.» فهزني خفيفا وقال لي بصوت متضخم: أبوك.. و.. كلهم كانوا حاضرين في قلبي.» ثم رفع ذقني بيده الأخرى وقطع لي: أنت، يجب أن تدرس أو تتعلم حرفة. غدا أراك.» فإني مذ قُتل والدي فالتجأنا إلى المدينة كنت دخلت أكثر من مدرسة بأكثر من اسم خشية أن يكتشف أمر أمي لدى الإدارة التي كان فيها بعض المعلمين من الفرنسيين مخبرين يتقصون لدى أطفال الأهالي عن أوليائهم قبل أن أنقطع لأتردد على الكتّاب وحده. ثم تجاوزني فدرت أتابع خطاه الرزينة في اتجاه حانته يشق كشفرةِ سفينةٍ بحرا من البشر انغلق فرقاه على نظرتي الضالة إلى فلّة ليرتسم في ذاكرتي أنا الطفل المراهق بريقٌ من وجهها.

أحسست قلبي نبض بعمر أكبر من أعوامي الأربعة عشرة لما عدت إليه في بيته قبل توجهه إلى حانته فقال لي بنبرة لا تقبل التكرار: شرف أمك أنت الذي تحفظه ككل الرجال! وغدا تدخل مدرسة أشبال الثورة.» فرجعت إليها محمولا على جناح الفرحة أكاد أجهش مثل طفل بين يديها: غدا، أرجع إلى المدرسة.» فألزمني فيها وتابعني ثلاث سنين قضيتها بين الدراسة وبين التمهن. ثم أقنع مديرها، الذي كان أحد رفاقه في السلاح، بأن يسرحني بصفة مسبقة كما طلبت إليه بعد أن أخذ مرض التهاب المفاصل يجتاح جسم والدتي. وسعى لي نحو البلدية في مشغل نجارة مغلق كان في ملكية فرنسي غادر المدينة غداة إعلان الاستقلال فحصلت عليه بالإيجار.

3

لكن الذين تجمهروا عند مدخل البلدية لم يكونوا بالعدد الذي يثير في الساحة صيحة واحدة مما ارتفع فيها قبل سبعة أعوام من لغط آخر التجمعات البشرية رددته جدرانها المحيطة وذاع عبر مكبرات الصوت في الشوارع وفي أعالي المنارات وعلى أعمدة الكهرباء، وفي الأماكن التي كان البلاغ نشر فيها قبل ساعات، ثم حملته الجموع الهائجة في حناجرها رافعين ما كان يوما رفعه المختصمون في "الفتنة الكبرى" هاتفين بلسان واحد: لا دولة إلا دولة الإيمان! تسقط دولة الطغيان.» فصاح الواقف جنب الخطيب من على المنصة نفسها: وهذا الآن أخونا لحول.» فجهر في لهجة المحرضين المتمرسين بصوت قوي ثابت وواخز رافعا يديه نحو المعتصمين: يقول لكم الشيخ الأزرق: عقيدتكم في خطر. فانهضوا إلى الفريضة الغائبة! اليوم، اليوم! لا غدا ولا بعده.» فرجّ جسمي وعيدُهم وأرعبت قلبيَ أصواتهم ثم صعَق

روحي شعورٌ بالهول القادم؛ لكنّ مدهم العارم كان اصطدم بالحواجز الأمنية فجزرته القنابل الدخانية والطلقات النارية وخراطيم المياه الساخنة الملوثة فلم يعقبه تجمع ولا تجمهر في الساحة من بعدما أُعلنت حالة الطوارئ.

كنت على الرصيف بلا حاضر تماما كأني أسمع صوته المتلجلج لا يزال يدوي في أرجاء الساحة متداخلا بصوت فلّة قائلة لي: من زواجين اثنين كان لي فركوس واحد.» واصفة لي إياه كذلك في حضني مشمولة بغرامي! لكني لم أسألها، ولا أدري لما ذا، كيف تحول الصوص الداجن وحشا يقتل لغريزة القتل! وخمّنني أنها لا بد أن تكون بكت في عزلتها بعد أن لم أجبر خاطرها بكلمة استنّي! التي انتظرتها مني لما ولتني خارجة آخر مرة من مشغلي مكسورة الوجدان لتصبح مرتدية الحجاب وأصبح أنا على خبر اغتيال أول فتى لم يكمل طريق عودته من الخدمة العسكرية إلى بيتهم.

كالأمس أو يكاد، كان المتجمعون على الرصيف، واقفا بينهم، ينتظرون كما انتظر السابقون على الرصيف نفسه في صيف بداية الأهوال أن تميل الكفة للمعتصمين في الساحة فيميلوا إليهم، قبل أن ينصرفوا متفرقين بشعور خيبة غامض إثر تدخل قوى الأمن محفزة مدججة لقطع الطريق على قواد الحركة نحو المؤسسات الحكومية والأمنية التي كانوا سيحتلونها إيذانا بإقامة الدولة الموعودة. وكنت شاهدت العشرات منهم، بعد أربعة أعوام، أحاطوا بعمارة حاصرتها فرقة خاصة من الأمن لتدخل في اشتباك مع ثلاثة مسلحين، من

الجماعة كانوا التجأوا إليها، انتهى بمقتلهم في آخر النهار. فارتفعت زغاريد من العمارة فلم أدر أكانت على مقتل المسلحين أم لهم؟

وكنت نويت أن أغادر الرصيف لما رأيت ميمون تقدم ثم توقف فجأة يشاهد بوركبة التحق بالمتجمهرين عند باب البلدية فتهامست النساء وكلم بعض الرجال بعضهم وحياه آخرون فرد عليهم بإشارات من يده ورأسه مقتربا من السيد بلخير منتصبا متأملا ليقول له من وراء ظهره: هذه أعوام يا سي بلخير.» فرد عليه من غير أن يلتفت إليه: عفّروا كرامتنا وحطوا من عزة الأمة؛ صوتك لا ينسى.» ثم دار فحضنه فأضاف: حقنوا الناس بأمصال الوهم ولما فشل نظامهم في النهوض بالدولة استنسخوا بعبعا وقالوا لنا: اختاروا بيننا وبينه».

فحنن بوركبة على كتفه في صمت فراح يمسّح بنظراته الدامعة فضاء ساحة مكدودة كان ابن جاره اعتصم فيها مع المحتجين ولهج معهم بالوعيد ثم أحرق مدرسة وحظيرة سيارات إدارية وصعد إلى الجبل وفي الحاجز الأول، الذي أقامته مجموعة لحول، ذبح ابنه العائد في إجازة عسكرية بشوق إلى أهله، وكأنه لم يكن يومًا جاره ولا صديق طفولته.

وتفكهت واحدة من وسط النساء لصاحبتها قائلة: كانت الجماعة ستنصب في الساحة منصة للجلد والتقطيع يقيمها لهم ولد عيسى النجار ليبدأوا به عليها! فلا فلّة ولا غيرها كانت ستشفع له عندهم.» فنغزتها في خاصرتها أن تكف عن هزلها.

فطاوعتها وقصت عليها في همس: ولد بدرة كان نزل من الجبل فذبح أخاه العسكري في بيتهم فصعقت أباه سكتة وخرجت أمه إلى الزنقة نادبة ناترة شعرها! أما جمال ولد العونية فألزم أمه على الاغتسال وإعادة قول الشهادة، وأقسم لأخته أنه سيجلدها بيده على الأشهاد إنْ لم تنقطع عن الدراسة! تعرفين؟ يوم داهم الضابط لخضر مقرهم المطلي بالأخضر عثر على قوائم بأسماء نساء ورجال للجلد وآخرين للشنق وأخريات للرجم».

فردت عليها ثقيلة الصوت: أشعر بالنار تأكل قلبي كلما تذكرت ابني. قطعوا أملي في هذه الدنيا. لن أغفر لهم.» فشدت على يدها وقالت لها مبدلة نبرتها: ذبحوا زوجي لأنه رفض تسهيل الهروب لواحد منهم كان محكوما عليه بالمؤبد.» فسألتها مجهشة: كاين رب في هذه البلد؟».

فهزتها من يدها: استغفريه.» وقالت لها أن تنظر إلى الشخص الثخين الذي تقدم المتجمعين على الرصيف ونظر إليهما شزرا. ثم نطقت لها كازة على أصوات كلماتها: ولد الهاشمية! كم أمقته! جرى معهم في مسيراتهم وآوى المسلحين منهم ودلهم على ضحاياهم وكأنه لم يفعل شيئا.» فدار لمن كان خلفه قائلا: نوارة! أعرفها العاهرة تتحدث عني! كان يجب إلحاق الفاسقات بفجّارهن جميعا.» فسأله: وما ذا يريدون؟» فأجابه ساخرا: يقتلون أهلنا ثم يمنعوننا أن ندفنهم في مقبرة المدينة.» فاستدرك له: ولكن لحول لم تقتله الحكومة.» فتهكم له: وكأن أيدي الحكومة نظيفة من دماء أبنائنا المقتولين وأهلينا

المختطفين والمعدمين المردومين في حفر جماعية.» فيما تولت المرأتان عنه فسمعتا قريبا منهما أحدهم قال لصاحبه: إن كان رئيس البلدية أمينا لأرواح الضحايا فلن يسلم رخصة الدفن؟» فرد عليه متعجبا: وكيف؟ يقتلهم ويُدفَن جنبهم».

4

في الأثناء رأيت كأنه طيف شيخ هرم ذلك الذي ظهر! بل أبصرت به أكمل دورته حول الساحة ثم غشي المتجمهرين فتحسر لمن تذكرت خطيبها المغتال، وتألم لمن زفر كرْباً على عِرضه المنتهك، واستوقفه مَن ردد للثاني أنه لا رئيس البلدية ولا الوالي ولا رئيس الجمهورية ولا كائنا من كان يستطيع أن ينظف يدي السفاح من دم ضحاياه. فنطق: فاز بسخط الخالق من خرق حرمة النفس المقدسة فنهض يوم النشور فأشارت إليه ملائكة الحشر: هذا مغضوب عليه ملعون! وقال له ربه: قتلتَهم؟ أعدْ إحياءَهم! فما استطاع فأخلده في جهنم! اللهم إني أعوذ بك من الشرْك بك، فإن القتل بغير حق ظلم عظيم.» وشق عصاه نحو المتجمعين على الرصيف فلمس بينهم مغيظين وحاقدين ومحزونين على أبنائهم وآبائهم وذويهم فردد: لا حول ولا قوة إلا بك! أنت العادل في زرع الشعور الإنساني متساويا

بين البشر خيرا وشرا! اللهم إن المتسبب في الفتنة أجرمُ من القاتل والنافخ فيها أفسق من المغتصب! أستغفرك وأحمدك.» ثم اختفى كانقشاع غمامة ضباب.

كانت نجاة تتحسس بعض الدفء يسري إليها من يدي على خدها صامتة لما تكشف بوعلام غير بعيد عني مظهرا لي اغتباطا. فحركت رأسي فرد علي مشيرا بيد نحو المجتمعين على الرصيف وبيد إلى المتجمهرين عند باب البلدية كأنه يقول لي: حضروا جميعا؛ هؤلاء كما أولئك.» ثم اقترب مني تحت عين ميمون الفضولية وهمس لي: خبَرٌ رشيد.» فرفعت نجاة عينيها إليه فابتسم لها فلم ترد عليه. ونظر إلي على لهفة ردٍّ مني. لكنْ شغلني عنه صياح عجوز ارتفع فجأة نحو المتجمهرين: خطفوا ابني! قتلوا حفيدي! دلوني على قبرهما؟» وأخرج في يديه صورتين مكبرتين لهما وجّههما نحوهم. فانشقت له منهم امرأة اتجهت صوبه في ثقة شامخة وتوقفت أمامه وجها لوجه ناظرة إليه بصمت. فكسر نظراته مخفيا الصورتين وراء ظهره وارتعدت خده لصرخة الموت التي كانت أطلقتها يوم وقفت له ببابها مقابل بابه صائحة فيه: أنت وحش يا والد الوحوش يا جد الوحوش».

فهمس أحد الواقفين قريبا منهما لآخر: حليمة أم عاشور! والعجوز جد من اغتال ابنها لما عاد في إجازة عسكرية ثم هرب ولما نزل مرة من الجبل ليزور بيتهم بلّغ عنه من قيل كان يرصد لبوركبة فطوق الأمن بيت الجد وداهموه بالقنابل والرشاشات فأُخرج هو

ومسلحان آخران كانا معه جثثا مشوهة». فيما رفعت حليمة بين يديها صدار ابنها الملطخ بدم عتيق وأشهرته بخروق الرصاص صائحة بصوت مجروح: كان نائما فيه.» تصعقها طلعة جمال الغادرة إذ فتحت له الباب فصبّحها بخير كعادته ثم ترجاها أن توقظ له عاشور لما اعتذرت له أنه لم ينم باكرا ودعته إلى الدخول خلفها فشكر وقال لها: أنتظره في الحوش.» فخرج إليه في لباس نومه حافيا مبتسما وفتح ذراعيه لاحتضانه فأطلق عليه من مسدس في البطن والصدر فذهب عاشور، كما في معمعة كابوس! فلم تصرخ في ذلك الصباح الصيفي إلا صرخة واحدة صدّعتها ثم تهاوت.

فقد تصعّدني لهيب خانق كمثل الذي أحسسته تركز في صدري يوم دخلت عليها جنب ابنها عاشور مضرجا في دمه فأصابتني غشية عابرة رأيت أثناءها أيادي كثيرة رفعت صورا وكتابات وسمعت أصواتا رددت: خطفوا بنتي! اغتصبوا أمي! قتلوا أهلي! مزقوا رضيعي! فعرفت وجوها وذكرت أسماء وتناهى لي صوت مبتعدا: إلا النسيان.» ثم فتحت عيني على نظرات مغسولة بماء المطر فأبصرت حليمة دورت بيدها زغردة فناوبتها النساء من حولها ومن على الرصيف أيضا فدوّت طلقة نارية رددت صداها جدران البنايات المحيطة بالساحة فذعرت نساء وتلفّت بعض الرجال هنا وهناك في ابتذال.

وبينما كانت حليمة راجعة قاطعها بوركبة وطلب إليها أن تعيد الزغردة ففعلت لكنها أجهشت فأطلق في الهواء ثم وجه رشاشه

نحو المتجمعين على الرصيف ففككت عن نجاة، تلحق بي، وركضت ناشرا ذراعيّ أعترضه هائلا في جلابته الوبرية وشاشه العسكري الأخضر موقّعا خطواته غاضبا مهددا: فلتتفرجوا على عورات أمهاتكم.» فيما كانت الزهرة خرجت مسرعة وحضنت نجاة عائذة بها. فهدأته قائلا: تفرقوا كالدجاج.» ومددت يدي لأخذ سلاحه فأبعده عني قائلا لي حانقا: لم يُثقل عليّ يوما سلاح.» ورفعه إلى أعلى بيد: لا ينفع معهم غير هذا.» وبيد أزاحني عنه مسافة ما أطلق طلقة ثالثة في الهواء. فعوت صفارة سيارة الأمن التي نزل منها أعوان انتشروا على الرصيف بتعليمات من محافظ الأمن الحضري الذي توجه نحو الضابط لخضر ينزل من سيارته.

تعجبت لي الزهرة ممسكة بيد نجاة المتسائلة بنظراتها الفزعة عما يحدث: رجل مدهش.» فقلت لها مسترجعا أنفاسي: كان سيطلق النار على أول من يتحرك ولو بكلمة.» فردت: ربي ستر.» وأسرّت إليّ أن بوركبة كان زارها قبل ساعة من وصولي عندها، لتسلمني ملصقات البلاغ مرفقة بخطاطة للأماكن المواتية قائلة لي بثبات: سحبت لك ضعف ما طلب رشيد. أهل القتلة هم أيضا يجب أن يتذكروا.» وأخبرتني أنها جحدت عنه وجود رشيد فطمأنها على أنه جاء يعطيه سلاحه الشخصي. وقالت لي: كان رشيد يسمع محاورتنا من خلف الباب ثم أعجلني تجنبا لملاقاتك وأوصاني بأن أقول لك إنه سيعرف كيف يتصل بك».

ولما أبلغتها أن بوعلام رأى رشيد يدخل عندها تبسمت على اعتداد وقللت لي من شأن ذلك. ثم طأطأت قليلا سائلة نجاة إن كانت تريد البقاء معها. فنظرت إلي فمررت براحتي على خدها وأشرت إليها بحركة موافقة فأشرقت عيناها وهمست للزهرة تهزها من يدها: وين راه رشيد؟» فأجابتها في أذنها بأنه يوجد في مكان غير بعيد وهو يراها من حيث لا تراه. فتلفّتت يمينا وشمالا فطمأنتها: لا يستطيع أن يظهر لك أمام الناس.» فراحت تحكي لها أنه زارها في الليل وجلس عند طرف سريرها فأخبرته أنها رأت من فوق الخزانة ذلك الوحش الذي ذبح أمها فوعدها بأنه سيقتله. وقالت لها برعب متبق في صوتها: لم يعلموا أني كنت نائمة بين ماما وبابا! وجدوا مبروكة لأنها كانت نائمة وحدها».

ثم انتبهت إلى حليمة واقفة تتأملها فحيتها فأخذت وجه نجاة بين راحتيها وقبلتها على جبهتها زافرة. فقالت لها: اغتالوا أهلنا وخربوا بلدنا وها هي الحكومة تعفو عنهم.» فواستها فتنهدت متمسكة بيدها متذكرة تلميذها واقفا على بابها عيناه تنطقان لها بالرعب: أستاذة، أستاذة! سيدي، قتلوه.» فلم تسأل ولم تصرخ متسمرة مكانها لحظة قبل أن تنطلق نحو الطريق فاغرة على الهول فلاقتها بفزع الطير وضمتها بشدة قائلة لها بصوت محرَق: سي إسماعيل، يدوم الله في ملكه.» فانفجرت باكية ناحبة.

وبغشاوة من الدمع نظرت إليها صامتة فدعكت أصابعها فتوجعت لها: كيف يأتي أشخاص لم ينزلوا من السماء هم من طيننا

ودیننا فیستبیحوا أرواحنا ثم یأتي غیرنا فیعفو عنهم من غیر جزاء؟»
فضمتها إلى صدرها وهمست لها: ولكن الله لن یغفر لهم».

5

عند الأدراج المؤدية إلى مدخل مقر البلدية استوقفني بوركبة، سلاحه على كتفه مدلّى إلى أسفل، ليعلن إلي فجأة أن الناس مثل طقس مدينتهم يتغيرون أربع مرات في اليوم. وبعد درجتين نبهني ممسكا بذراعي: بريق المسئولية يغري بسلخ الجلد.» فابتسمت رادا: المختار رجل أصيل وشجاع، لم يتردد لحظة في حمل السلاح مثلنا.» فاعترف لي عند آخر درجة: فعلا! لا زلت أذكر قوله يوم تنصيبه: لا خصم لي في هذه المدينة سوى الفقر والظلم والأوساخ! لم أعرف مسئولا مثله أخضع حساسيته السياسية للمصلحة العامة.» وأضاف: لا بد أنه ينتظرنا».

وسألني خاطفا التفاتة إلى الضابط لخضر يتقدم في أثرنا: ولكنْ، أخبرني كيف فعلت؟» فأجبته أني وجدت بنت سي إسماعيل،

كما يجب أن يكنيها، هيأت كل شيء وأني لم أقم سوى بتسليم أوراق البلاغ إلى من قام بتوزيعها وتنشيرها. فهمس لي في غبطة: ولد مامة! لو لم أفاجئه يرمي البلاغ من تحت الباب ما صدقت! هرب مثل عفريت ثم عاد ومد لي نسخة. هل أخبرك؟» فابتسمت فنطق الضابط لخضر من خلفنا معاتبا: سي الحاج! أنت آخر من يفقد صوابه.» كانت حليمة قد صعدت الأدراج مسرعة ووقفت جنبنا لما راح بوركبة، بعد اعتذار، يردد: بذور شر، حضرة الضابط، بذور شر.» فلم يرد عليه. ونبهها إلى أن التجمهر محظور فنطقت بغضب: لم يعد في هذا البلد شيء مباح غير القتل.» فلم ينفعل. وأشارت بإصبعها نحو الرصيف مضيفة يتابع حركتها بهدوء صارم: إلى أن أموت، وحتى يوم القيامة، سأظل أحقد على القتلة وعلى من أسندوهم من أهلهم وغيرهم».

فهَمّ بوركبة بالكلام فشددت على يده أضغطها فتنهد حاجزا نطقه يسمع الضابط لخضر يرد على حليمة: وهم يحقدون علينا نحن أيضا، لأننا نعتبر المتواطئين معهم مذنبين.» ثم توجه إلي يذكرني: الجزائر بلد كبير يسع جميع أبنائه.» فانفلت بوركبة رادا بلهجته العسكرية القاطعة: ليس ابناً للجزائر من فجر القنابل وقتل الأبرياء وخرب المنشآت وباع ضميره للشيطان وتعاون مع من يكنون الحقد لنا! من يرضى من أبناء هذه المدينة أن يكون أخاه هذا الذي ذبّح عائلة سي الطيب وقتل سي إسماعيل واغتال سي سمان؟».

كنت تحت وقع انهيار شلاله أراقب ملامح الضابط لخضر لم تتبدل حازمة لا لين فيها ولا قسوة، يتلقى بصمت ولا يعلم ما ذا كان

يدور في ذهنه إلا الله، وكنت أنا أتذكر صور الدم وساعات الأحزان.

ثم فتح يده نحو حليمة مضيفا: كان لا بد من فتيان جزائريين حقا مثل ابنها تحدوا تهديد الجماعة واستجابوا لنداء الواجب مثل آلاف المجهولين الذين حصدهم الحقد.» فارتعشت حليمة لألم لدغة الغدر. وتذكر هو بالتأكيد مئات من أوامر الاستدعاء إلى الخدمة العسكرية التي أرسلها وبسببها اغتيل أو قتل عدد كبير من المجندين.

لكن الضابط لخضر بقي على ثباته وقال بصوت ممتلئ: مشكلة الدولة الآن مع همج من الساسة الطموحين المغامرين المتواطئين مع من يديرون الجريمة المنظمة ويغذونها.» ثم أشعرنا أن رئيس البلدية يكون استدعى والدة المقتول واعتذر منا متقدما. فقلت: الأفضل أن ندخل جميعا.» فذكرني بأن الشأن من صلاحيات الإدارة والأمن. فجازفت قائلا له: نريد أن نتجنب فتنة أخرى.» فتعجب: فتنة أخرى.» فاندفعت حليمة مباشرة: دفن سفاح في مقبرة المدينة جنب ضحاياه، هذه هي الفتنة.» فرد عليها بنبرة أعرف صدقها: ولكنه مواطن، وفوق ذلك مسلم.» فرفعت سبابتها بنفي: أبدا! كان يجب أن يقدم للعدالة ويحاكم فيعترف بذنبه ثم يعلن توبته.» فوافقها بحركة من رأسه ونبهها: لكنْ يوجد رئيس دولة يخول له الدستور إصدار العفو».

عندها ثار بوركبة قائلا: والعهد الذي قطعه على نفسه تجاه ضمائر الضحايا وذاكرة الجزائريين؟» فرد عليه بقطعية: ذاك شأن آخر.» وسأل حليمة ما ذا تريد فأجابت: مقابلة رئيس البلدية لأطلب

إليه باسم النساء المتجمهرات أن لا يدفن المقتول في مقبرة المدينة.» فأطرق لحظة ثم أشار إليها بالدخول قبله. فردد لي بوركبة: أزور المقبرة لأترحم على أصدقائي وأهليهم وعلى زوجتي أم لألعن سفاحا يرقد جانبهم».

بعد ساعة، تنازلنا لمنطق رئيس البلدية وخرجنا فواجهتنا أسفل الدرجات وجوه مململة بالانتظار. فتقدمت حليمة خطوة واستنشقت عميقا ثم أعلنت أن جثة المقتول ستنقلها سلطة مفوضة في وقت غير محدد وأن قبره سيسوى مع الأرض بلا إحاطة ولا كتابة. وسكتت لحظة فلف المتطلعين إليها صمت بارد. ثم أبلغتهم بنبرة خلخلتها حسرة أن ذلك تم برضا من أمه التي تقرئ الجميع اعتذارها.

فعبرتْني رعدة خاطفة. وصاحت واحدة: لا اعتذار ولا سلام.» وصرخ آخر: وسيصلّون عليه.» فظهر من بينهم طيف الشيخ الهرم ناطقا: من سيصلي عليه غير الإمام إسماعيل الذي اغتاله في المحراب ذبحا.» فيما كان الضابط لخضر خرج من الباب الخلفي فوجد ميمون في انتظاره فأمره ماشيا: أريد فقط اسم الذي نشر البلاغ.» وركب سيارة كانت تنتظره في ركن الشارع العاج بحركة الراجلين.

6

في نهاية الزوال كان بوعلام دخل الحانة الوحيدة في المدينة وأخرج من قفته بيضا مسلوقا وشَمّة وكاوكاو وعلب سجائر محلية ومهربة مغلقة وأخرى مفتوحة للتجزئة. ثم رتب كل شيء في صينية وشرع في دورته على طاولات الشرب واثقا مرددا لنفسه بابتهاج مخبوء: قلت لك يا سي بوعلام، تستطيع أن تفعل شيئا في حياتك أفضل من القوادة».

فأوقفه أحد أربعة التمّوا على طاولة منزوية قائلا له: بوعلام الزلط! ما زلت تغربل الماء؟» فابتسم له عارضا عليه: بيض جديد، كاوكاو مالح، دخان البلاد، دخان الخارج، واش يبغي سي لكحل؟» فأظهر له أنه يريد شيئا آخر. فتجاهله فأخذ علبة سجائر محلية وطلب الثاني كاوكاو، بينما اكتفى ثالث بالتحديق في وجه بوعلام ثم قال

ناظرا إلى الرابع: هو الذي رأيته وأنا أدخل حمام الساحة يلصق ورقة على شق بابه المغلق.» فأنكر منفعلا وطلب أن يخلّصوه ثم انصرف عنهم إلى طاولة قريبة من باب الخروج.

فقال لكحل تحت هرج من موسيقى غناء رخيص النوع والطبع: قلت لكم! كان يمكن لرشيد أن يعامله بالمثل فيلحق به أمه وينكل بهما.» ثم عب فأشعل صالح سيجارة ومرر الولاعة لمسعود الصامت بينما صب عبد القادر في كأسه.

وأضاف: تذكرون نذير؟ لن تفارق ذهني صورة جثته المشوهة! يومها كان جحيم قيامة! ارتفعت شاحنة نقل الجنود الثانية مثل علبة بفعل انفجار قنبلة شديدة المفعول تحتها وارتطمت وتقلبت فمات أكثر من فيها بغير الرصاص. وكان من استطاع القفز من الشاحنة الأولى وتحرك هرّأته عيارات الرشاش الثقيل الذي نصبته الجماعة على الكدية في المنعرج الحاد. كنت مع البقية في الشاحنة الأخيرة فلم تسعفنا حالنا، تحت كثافة النيران تصلينا متقاطعة، إلا على القفز والرد في تبدد عارم. فلم ينج من الذبح، لهول المباغتة، سوى الذين تمكنوا من الانسحاب. كان كمينا ساحقا! خلّفنا وراءنا جثث رفاقنا والشاحنات الثلاث التي اشتعلت فيها النيران. ولم نقف على فظاعة المشهد إلا بعد وصول المدد. كانوا خمسة عشر عراة مذبوحين وأشياؤهم محشوة في أفواههم! سائق الشاحنة الثانية كان متفحما».

وركّز صالح منقبض الملامح مضيفا مشنجا أصابعه: أرى

وجه نذير كأنه أمامي كما أراك، جروحه غائرة ونحره ممزق. كان يبدو طفلا خرج في نزهة ثم نام! هل اختار أن يكون حيث كان الموت؟».

فأفرغ عبد القادر إلى امتلاء فمه وجرع دفعة واحدة ثم أشار برقبة الزجاجة إلى صالح: كيف ترد على شخص فعل ما لا تفعله بعض الوحوش؟» فرد مسعود خارجا من صمته: ذلك من أخطار مهنة العسكري.» فثار فيه لكحل غاضبا: أنت يا مسعود طيزي، تسكتْ! جندي اختار أن يكون عسكريا فقتل، نعم! وليس من كان مجندا إلزاميا مثلنا جميعا.» وسأل صالح مشيرا إلى مسعود المتضجر: قل! هل كان عبد القادر أمامك يقوى على حمل الرشاش الهجومي أكثر من ساعة أثناء الحراسة».

فتظرف عبد القادر ملاطفا: ولكنك تعلم يا حضرة لكحل، وليس في قلبك سوى بياض مثل رغوة البيرة، أني أستطيع تحمل محتوى برميل من الشراب.» فرمى عليه مسعود ضجره: لذلك، تكرّشتَ وكززْت ورحت تتضخم عُرضا».

وعب لكحل عبات متتالية ليُغرق في ذهنه تلك اللحظة التي غيرت طبيعة إحساسه بالقتل إذ أطلق ضمن فصيلة الإعدام رصاصة لم يرْتب في أنها هي التي أصابت قلب المربوط إلى العمود معصب العينين. وحدق في وجه عبد القادر بغشاوة، كتلك التي قابله بها مثقل الروح مغثّى فتوجها إلى إحدى حانات المدينة التي كانوا يؤدون فيها خدمتهم العسكرية. وما إن شرب جرعته الأولى حتى تقيأ. فأسعفه إلى دورة المياه وبلل له رأسه ثم أعاده إلى ركن منزوٍ وجدد للنادل

طلبه وقال له: احك، أفرغ تسترح.» فقال مضعضعا: خلال ثواني الاستعداد، لإطلاق النار، أحسست أنني لم أعد أنا قبل أن أتلاشى في إيعاز القائد. ولما عدت إلى فراشي لم أستطع التخلص من شبح الشخص المربوط إلى عمود الإعدام معصوب العينين بلباس أعِد ليدَلّى به في حفرة مجهولة. كان اقتيد بين حرس شدوا وثاقه. لم أنس حركة رأسه الضائعة في كل اتجاه ليستشعر ما يدور حوله متوقعا كل شيء إلا إيعاز القائد الصارم. فتخبّط وحاول أن ينطق فأخرسته الطلقات! لم أكن أعلم عنه شيئا. تمنيت فقط أن يكون أحد الذين شاركوا في مذبحة رفاقنا».

فشد على يده وترجاه أن يتنسى فتبسم وقرع لهم جميعا ثم قال: رشيد، لم يقتل لسبب سياسي أو بدافع عقائدي، ولا قتل بنفسه مذنبا لو لم يعطل الساسة قانون العدالة.» فعاتبه عبد القادر على أنه تكلم مثل سياسي. واستفسر الآخرين فوافقاه ثم قال بحسرة: أنا لا يزال في قلبي شجن من أيام الثكنة البائسة! ما ذا كنا نفعل أكثر من عد أيامنا الباقية فيها وتوقع الموت المرعب».

غير أن لكحل عاد إلى صالح وقال له: من أكرهك على اعتناق معتقده فكأنما لاوطك.» فانفجر عبد القادر ضحكا وطلب إليه أن يبادله النخْب. ورد مسعود مؤنبا: كبّرتها يا لكحل.» فقام صالح غاضبا: أنا سأعري عليك.» فأمسك به مسعود وهدّأه. فاعتذر لكحل رافعا يديه: لم أقصد يا صالح، السياسي هو اللوطي لأنه لا يمارس السياسة إلا بشعور أنه يواقع مثله متلذذا بإذلاله.» فوافق عبد

القادر منشرحا: حين يخطب سياسي أو يرأس اجتماعا لا يرى نفسه إلا من فوق.» وكهكه ثم أضاف: أنا أكره السياسيين وأمقت خطاباتهم وأتقزز من صورهم، لذلك لا أحب أن أتكلم عنهم».

فرد صالح ناظرا إلى لكحل بوقع: وبالمثل، أبغض من قوى الأمن أولئك الذين طالما شهّروا بجثث قتلاهم منشورة في ساحة المدينة أو مرمية في منتزه المستشفى! أولئك كانوا من سلالة البشر أيضا ولهم أهل.» فوافقه قائلا إن حالة الطوارئ تغري بأنواع الانزلاقات كلها؛ فعل عنيف ورد فعل أعنف بلا قانون وفي غياب للشعور الإنساني. ثم ترجاه: صالح، تصور نفسك ساعة واحدة رجل أمن يعيش ليل نهار مهووسا بهاجس الموت لا تعرف من أين تأتيك طعنة في الظهر أو رصاصة في الرأس من قاتل تعرفه أو مراهق ضال أو شخص في زي امرأة! وكن هذا العسكري الذي اغتيلت عائلته أو قُتل له أخ أو أخت أو قريب أو صديق أو زوجة أو صديقة لتدرك معنى الشعور الذي ينفجر في داخلك حين يقع بين يديك القاتل».

فتساءل له من خلف قناع الاعتذار: من ندين؟» فنطق من وقف على رؤوسهم مجيبا: الساسة بلا تمييز، والرشاة جميعا.» ثم وضع كأسه بين زجاجاتهم فضحك عبد القادر عاليا وعرض عليه الجلوس معهم فلم يكترث له وصدّق لهم على دهشتهم: نحن جميعا ملعونون بسبب عجزنا عن تأديب ساستنا.» ثم تولى عنهم فجأة كأنه تذكر شيئا نسيه وخرج على لسانه كلمة: مقبرة».

فعلى نزول المساء الخريفي المتسرع كان رشيد تابع من طرف المقبرة بين أغصان شجرة الخروب آلية حفر أتمت العملية وتراجعت مفسحة لسيارة شحن صغيرة تقدمت بالخلف نحو الحفرة ففُتح بابها الخلفي وأنزِل منها نعش حمله أربعة أشخاص وضعوه أرضا ثم نزعوا عن الجثة ما لُفت فيه غير كفنها ودلوها من أطرافها فابتعدت السيارة وتقدمت الآلية فشرعت في الردم مسوية باقي التراب مع الأرض على رذاذ مؤذن بليلة ماطرة.

ولما فتح حارس حديقة الحيوانات الباب لرشيد وقف لحظة مستطلعا الحركة فلم يسمع غير زفيرّ الأشجار من شدة الريح تعوي في ممر طويل تضيئه أنوار مجهدة تغربل حبات المطر الثقيلة ثم أذن له بالدخول فواجهه صامتا مبللا بشكل مفرط فاسترعته منه آثار الطين اللاصقة بحذائه وبقايا من تطايره على ثيابه فسأله هل يريد شيئا آخر فأجابه ببرودة: لا شيء».

فتقدم نحو ما كان وضعه فوق الطاولة قائلا: جوّعته لدرجة أن يفترس الحديد، ونوّمته منذ دقائق بجرعة تكفي لساعة قبل أن يستيقظ.» وطمأنه على أنه مكمم، لكنه حذره أن ينسى أنه وحش. فرد عليه بحزم: الوحش هو الإنسان.» وأخرج من جيب جاكيتته الجلدية الداخلي مظروفا قدمه له صارفا عنه نظره قائلا: وهذه الدفعة المتبقية. عليك أن تقنع من يسألك عنه كيف خرج من هنا.» فأجابه أنه سيعرف كيف يثقل لسان الفضوليين.

وإذ مد رشيد يديه إلى الطاولة أمسكه الحارس بقوة من

معصمه فنظر إليه بصمت مفرغ نظرة سوداء شالة فابتسم له باسطا قبضته عنه في حركة من فكك قنبلة: سامحني! قلت ربما أخبرتني ما ذا ستفعل به فساعدتك.» فتجاهله وحمل على ظهره الحيوان من قوائمه المضمومة اثنتين اثنتيْن ثم غادره تحت المطر.

الفصل الخامس

1

لم يُثر الحارسَ عمران قناعُ وجهي الحفارين بغداد ويعقوب إذ وقفا على رأسه يُعد قهوة في بوابة المقبرة فنظر إليهما من تحت جبهته المخددة بوطء السنين نظرة متغضنة. وحك ذقنه الذي بدا بزغب يومين وقال لهما: ترعبان الشيطان نفسه! أتصور أنكما لم تكتشفا كنزا.» فإنهما كانا سيشرعان في حفر القبر الأول لميت جديد من يوم جديد.

فتمسك بغداد بالمجرفة اليدوية وبالفأس معا، وكحكح يعقوب بلا سبب ظاهر، مسلطين نظراتهما المشوشة عليه قد انشغل عنهما يذوب السكر. ثم ذاق وجرع دفعة واحدة وقرّعهما: يجب أن تحشرا مع الدجاج! كنت آمل أن يطلع عليّ صباحي من غير نكد.» ذلك لأثرٍ طيّب من سكينة تحمّم فيها قبل يوم كان يشعر أنه لا يزال يتنفس نفحها. ثم قام مصلحا شأنه فنطق بغداد محركا يده مرتبكا:

عمّي عمران». فلم يأبه له مزيحا من أمامه المائدة الصغيرة قائلا في نفسه: لا يمكن أن يكون حدث ما هو أكبر مما شاهدت من صور الروع! سبع سنين وأنت لا تزالين تتسعين كل يوم للمغتالين والمقتولين بالأسلحة البيضاء والنارية والممزقين في التفجيرات». وخرج أمامهما على هالة من عزلته المدهشة.

عرفته على رزانة لها مفعول قنبلة مغروسة ما إن يوطأ حتى ينفجر، وعلى مزاج قدَريّ راسخ في مواجهة العوارض بصمت الصخر أحيانا؛ رأيت شيئا من ذلك يوم وقف أمام البوابة يتابع بنظرات صماء سي بلخير يحمل تحت إبطه العلم الوطني مطويا بعد مواراة ابنه العسكري المغتال ونطق لي على درجة قصوى من الحزن: حضرت دفن رجال أمن وجنود ودرك في مقبرتي ماتوا موتات عادية أو في حوادث مرور أو بقتل غير عمدي أو لإصابة في أداء مهماتهم العادية أو بجناية عليهم من مجرمي الحق العام أو بسبب تصفية حسابات أو انتحار فلم أتأثر كثيرا، ولكن أن يقتل المجرمون سلالة من حرروا الجزائريين من الاستعباد فشيء يحزنني».

ويوم خرج للزهرة من بوابته وناداها، إذ كانت تغادر المقبرة وسط جمع من النساء اللائي رافقنها غداة دفن والدها إسماعيل، عزّاها وقال لها: كان أتقى الناس.» فقابلته بسكون وصفاء متجمّلة له: كان يحمل في صدره السلام! لم يغتالوا سوى جسده.» فاستغفر ثم طمأنها على أنه سيشرف بنفسه على إقامة القبرية. واحتبس مخفيا دمعه. وقال لي بعد انصرافهن: ربوا في قلوبهم الحقد وزرعوا في

عقولهم الوهم بأنهم سيعيدون البشرية إلى أصل واحد وعقيدة واحدة.» وأشهقته عبرة: من علامات الساعة أن يتطاول الأراذل على الكرام».

كان وجه الزهرة اللطيف أشع نسخةً من أبيها إذ نطقت لنا تودعنا بصوت مأهول بالإيمان: أللّه أحيا اللّه أمات. له الملك وله الحمد.» من غير أن تذكر لحول بكلمة. فرحت تحت الوطأة أراني أشرئب للإمام إسماعيل يردد في خطبة جمعة: في كل زمان تظهر فئة تضيق صبرا على مجيء قضاء الخالق في إزالة الشدة ورفْع الغبن فتعسّر على نفسها وتغالي على غيرها لاستباق ما قدّره الخالق لأجل معلوم. ثم حين لا يستجاب لها تكفّر من خالفها الرأي وتطلب الشهادة بدمه، وكأنها لا تحيا إلا لآخرة.» لأن لحول كان قبل أربعة أيام أنزله من كرسي المحراب إكراهاً وأشار إلى عليان: هو الذي سيلقي الدرس في الموضوع الذي كنتم فيه منافقين».

وأحسسته طمأن فؤادي، كما المصلين، إذ قال بثقة: ما قيل في الموضوع لا يُعتد به شرعا، لبعده عن العلم وأهل العلم. فالفريضة المتحدث عنها ليست غائبة بل هي قائمة سارية يؤديها المؤمن كل يوم بعمله وسعيه ومجاهدة نوازع نفسه الأمارة بالسوء. وإنما هم يبغون غرضا دنيويا مدفوعين إليه دفعا من غير دراية يُلبسونه ثوب الدعوة على ضلالة ويخادعون به فتياننا الذين تقطعت بهم سبل الحياة بسبب الحيف والطغيان».

ففي صباح ذلك اليوم دخل عمران مشغل منصور المجاور

للمقبرة وطلب إليه أن يتخير رخام القبرية وينقش اسم الإمام على الشاهدة بخط جميل وأن يلوّن المذكور فيها بالأسود والأحمر. وذكّره بأن بعض قبرياته كشف عيوبَها ثلج الشتاء الأخير. فالتزم له بأنه سيفعل ما يرضيه. وترحم له على روح الإمام وقال له بأسى: منكر! قلوبهم أشد قسوة من الصوان! في عيونهم جميعا الخوف من كل شيء إلا من القتل! كأنهم خلقوا للموت.» فرد عليه بوثوق: دود مقبرتي أقوى منهم جميعا».

ولما عاد إليه بعد تساقطات الخريف الأخيرة فاجأه بها أراه إياه مكتوبا بين "باسم الله" وبين "إنا لله" على شاهدة مصقولة "هذا قبر المرحومة زكية بنت عبد القادر ولدت فاضلة وعاشت طاهرة وماتت وفية ادعوا لها بغمرات الرحمة" فبصّرِ وقرأ ثم نظر إليه مشحون المزاج لا ينطق فقال له: وهذه بقية قطع القبرية هديةً من عندي. فهي من الرخام الجيد. المرحومة زوجتك تستاهل.» ففتح ذراعيه وضمه هامسا له همسا ثقيلا: أقبلها لأنها منك».

فبرغم إحساسه بانقباض في مفاصله قاوم ألا يعتقد بغداد ويعقوب، سائرا أمامهما، أنه وهن. ولكن كم تمنى لو أنه رجع خطاه فتمدد علّه يعوض ما أخذه منه اضطرابه في ليلة قضاها نائما فوق الماء؛ فتخيل بفعل السهاد أنه سمع أصواتا في المقبرة! وردد لنفسه: ما ذا يتصوران؟ عشت لا أعرف خوفا ولا جبنا. ولا شكوت من علة مزمنة! نصحت لمنصور أن يقلل من الجماع والأكل إن أراد لعمره أن يطول ولجسمه أن يسلم لأنه غبطني على حيويتي برغم أعراض فالج

الشيخوخة».

وتذكر: دفن مستعجل! وصدقت موظف إدارة البلدية إذ أشعرني بذلك وأخذ مني مفتاح المدخل وطلب إلي أن ألزم بيتي وطمأنني على أن لا أزعج نفسي لأنهم سيتكفلون بكل شيء ولم أر فائدة من أن أسأله لما أعاد لي المفتاح بحرك مبتذلة ثم غادرني بسرعة وعدت أنا إلى سكينتي؟ يا ألله! ما ذا أصابني؟».

واسترجع أن أي قبر لم يكن حفر على مدى أربع وعشرين ساعة تقريبا؛ صادف ذلك أن الأحوال الجوية كانت ماطرة فأرغمته على قضاء يوم في تنظيف بيته اللاصق بسور المقبرة وفي إعادة ترتيب الحوش تؤنسه قطة ودجاجات مستهترة بلا ديك تتحرش إحداها أحيانا بأرنبين داجنين فينط أحدهما أو هما معا فزعاً. حتى إن جاره منصور كان سافر قبل يومين ليجلب المادة الأولية لمشغله الذي خلفه فيه ابنه. وكان لما دخل البوابة هجع في سكون الليل فتلا مما يحفظ من القرآن وقرأ تفسيرا مبسطا لسورة "التكاثر" على أثير من التأمل في الدنيا وفتنتها وفي الجحيم والملذات وفي ما يلهي عن ذكر الله. ثم وطن نفسه على أن الدفن المستعجل مجرد ردم خص شخصا من الجماعة مجهول الهوية تكون قوى الأمن قتلته.

2

كان عمران توقف فجأة وسأل الحفارين من غير أن يلتفت: من أين؟» فأشار يعقوب بيده إلى الأمام شرقاً. وقال بغداد: عمي عمران، على قِبلتك.» فنطق بصوت متضخم: ولد فلّة وجماعته غالبا ما لا يردمون جثث ضحاياهم.» ثم التفت لهما كابسا بغداد بنظرته: لا بد أنكما عثرتما على نغْل مرميا.» فارتكز على المجرفة وسلم يعقوب الفأس قائلا: لا! هو، والله هو.» فحفر بعينيه الزجاجيتين في وجهيهما. فحرك يعقوب كامل جسمه متشفعاً: عمي عمران، كأنك لم تسمع.» فانقضّ عليه وجذبه إليه بيد: ما ذا لم أسمع؟» فصعّر خده مقوسا عينه متهيئا لتلقي الضربة ناطقا: ولد فلّة.» فدفعه فترنح مثل فزاعة وأمسك ببغداد فترك ما بيده يسقط قائلا: ولد الطيب بن العربي، هو الذي قتله.» وتخلص مبتعدا.

فلم يجد عمران أمامه غير حجرة قذفها بعصاه فتابعها بغداد وسبقها يعقوب بنظراته حيث سقطت ونطق بصوت عال: النغل! لا بد أنهم نهضوا جميعا وطردوا روحه من هنا.» غيرَ مبدّل من وقع خطواته، ممسكا عصاه كقائد ميدان، يسمع بابتذال بغداد يقول من خلفه بصوت مرجوج: نبشوا قبره وعرّوه.» فيما أضاف يعقوب: كفنه كله دم.» ثم ضجّ: قدامك عمي عمران، قدامك.» فلم يتزعزع شعرةً وردد: ما الذي أعجزني عن النهوض لما سمعت عواء الذئب؟ كيف هادنت نفسي على أن الذئب أو غيره من بنات آوى لا يستطيع اجتياز السور؟».

لكنه إذ وقف على ما رأى تنهد ونطق مصعّرا: يا للفظاعة.» ثم زفر كما قبل أربعين عاما واقفا على ثلاث جثث مفترَسة، بعدما كان أُرغم ضمن مجموعة من كتيبته على التخلي عن قتلاهم إثر اشتباك طاحن مع قوات من الجيش الفرنسي حاصرتهم، قبل أن يعودوا بعد يوم لدفنهم. فشعر بتصدع هالة الكرامة التي طالما ظنها خالصة للإنسان. وأشار من خلفه إلى الحفارين أن يقتربا معاينا لهما: الإنسان على طبيعته الحيوانية الوحشية.» مطأطئا قليلا في حركة تأكيدٍ: كلب بن كلب! مزق عن صدره الكفن تمزيقا ثم لم يفترس منه سوى الأحشاء! قليل في حق سفّاحٍ مثله.» ثم قام مشيرا بطرف عصاه إلى النحر: هذه آثار أنيابه. كان يظنه نائما».

وكمشرّح حدد المواضع التي تسقط عليها معايناته: عضه على ذراعه ليتأكد من أنْ لا حركة فيه ثم نهش هنا في الثدي أولا.»

واستنتج لهما: لم يتعبه لأنه كان معروضا على الظهر، يدل على ذلك أنه ليس ممرغا في تراب النبش ولا موحلا».

ثم غرس طرف العصا في البطن المفترس وحرك قليلا في فراغه: لم يُبق الحيوان شيئا من الحشايا.» فتلوى يعقوب وأعأع شادا على فمه بيديه فانبزع القيء من بين أصابعه فنهاه متضجرا: بعيدا، بعيدا.» وجلده على مؤخرته فنط متألما. وقال لبغداد: ليس في الذئب أقوى من أنيابه! الأضلاع السائبة متلفة وهناك أضلاع مكسورة. لكنْ، يا له من قفص قوي».

وبإشارات من عصاه راح يوثق كلامه: الشخص كان وحده. أسعفه أن القبر لم يكن سوى حفرة وأن تربة الردم مبللة. هذه آثار قدميه فوقها أحيانا آثار قوائم الحيوان.» ثم قرفص يتفحص التربة، فيما مسح يعقوب فمه بكمه يبصر بغداد مؤتلفا وكأنه مساعد محقق لا ينقصه سوى كناشة تسجيل معطيات تقرير الخبرة. وسألهما: تشمّان رائحة الذئب؟» معلّما دائريا بطرف عصاه على أثر سائل في وسطه ثقب خفيف: هنا بال.» وأضاف على دهشتهما: تعرفان كيف يفعل عندما يبول؟ ليس مثل الكلب تماما حينما يرفع قائمته اليمنى، لأنه حذر».

وهو يقوم أزاح بيده بغداد ونظر إلى يعقوب أكان لا يزال يتألم. ثم استكشف من حوله فرأى جزءا من حبل ملطخ بالطين فنطق: هاه! وأخذ معه جزءا.» وتقدم فأخذه في يده وتفحصه: ليس مبتورا بآلة.» والتفت إليهما منتبهين كتلميذين تغلّبا على ذعرهما:

مقطع تقطيعا! الذئب وحده هو الذي يفلح في تمزيق لحمه بأنيابه ليتخلص من الكمّاش.» وسرح نظره عبر طول بقَية الحبل وجذب إليه في نترة واحدة فرسا طرفه الآخر غير بعيد وتطايرت غرقة الطين العالقة به. فغمرته غبطة: عفريت! كيف لم أنتبه إليك ولا إليه؟» فتبادل بغداد ويعقوب نظرة ذهول.

ثم ترك الحبل يسقط من يده: وهذا الجزء المتبقي.» ومشى بموازاته بضع خطوات وسألها من ورائه مشيرا إلى الوتد المغروس: تعرفان هذا؟» فاقتربا صامتين فشرح لهما: من نوع لم يعد موجودا الآن، كأنما جيء به من خردوات قبو قديم.» والتفت إلى بغداد ينبهه إلى الوتد والحبل: انظر طرفه الأعلى! لم يدكّه بحجرة، والعقدة محكمة الربط.» ثم أرسل نظراته هنا وهناك وجذب يعقوب من ذراعه مشيرا إليه بعصاه: هناك، أتراها؟» فتأهب مثل سلوقي متسائلا: ما ذا؟» بينما أبدى بغداد استعدادا ليسبق. فرمى له حجرة صغيرة نحو الهدف ودفعه من ظهره: حيث سقطت».

إذ طأطأ مادا يده نحو الشيء انتهره: لا تمس.» وسأله: مطرقة؟» فأكد بحركة من رأسه قائما فأمره أن يعود وسأل بغداد: هل عرفت الآن كيف فعل؟» فبهت لا يدري أقصد الحيوان أم الإنسان. فأوضح له: الذي جاء بالذيب.» فحرك رأسه. وركز يعقوب منتصبا أمامه كمن ينتظر ثوابا: هل تعرف الذيب؟» فلم يجب. فشق بينهما راجعا. فسأل يعقوب هل يشرعان في الحفر. فأشار إليه من خلفه بعصاه إلى أسفل: احفرا! نعم، احفرا.» وتعقبه بغداد عن بعد فرآه

قصد مشغل منصور. فهرول في اتجاه طريق المدينة تحت ريح خارج سور المقبرة كانت تهب قوية.

3

أبلغني بوعلام خبر النبش، فرحاً بسبْقه. وكمش الورقة النقدية من يدي، في خطفة واحدة، وانصرف على حال من الابتهاج. ففزع في ذهني ما كان جاءني فيه جلول، حارس الحديقة، ليلا قائلا لي بتوسل: ما بينك وبين رشيد وحده يستطيع أن يثنيه عن شيء خطير ينوي فعله.» فاكتفيت بأن شكرته. ثم أذعنت لقوة قاهرة كبّلتني عن التحرك في أي اتجاه.

في الأثناء، كان بغداد دخل حمام الساحة لقضاء حاجته فتفاجأ بميمون مستلقيا. فنظر أول ما نظر إلى رجليه تحملان آثار تراب مبلل. فارتبك مسرعا إلى المرحاض. وإذ خرج وجده ينتظره فابتزّه سبب عودته العاجلة من المقبرة في بداية النهار قائلا له: جاء بك أمر عظيم، وإلا كنت تستطيع أن تخرأ خارج سور المقبرة إن احترمت الذين تحفر لهم قبورهم».

فإني أحسست كل شيء كان يثور من حولي بسرعة تجرفني إلى أمامٍ غير معلوم؛ فإذ دخلت على بوركبة في قهوته وجدته يشيع عجوزا من متقاعدي عمال السكك الحديدية مستذكرا له: أحرقوا قطارك مرة، ومرة حرّفوه. كل شيء عابر ولا باقي غير ربك وربي.» وأخرج سيجارة أشعلها له فنظر إليه مُمتنا ورد عليه بصوت نخر: الريع هو الذي أفقدنا طبيعتنا الإنسانية. وساستنا هم الذين صيّرونا أنعاما لا يشغلها غير العلف. لا شيء يُنسى. والفاني وجهك ووجهي.» وانصرف بعد أن حياني.

فتبّصر بوركبة في ملامحي بما أشعرني أنه وقْع انجذابٍ خفيّ حيالي بالرغم من أن جبيني كان غائبا وراء سحابة كدر؛ لعلّه لِما يظهر عليّ من همة عرفها للمحاربين، ومن شدةٍ فرَزها عندي يوم أخرجني من مدرسة أشبال الثورة فقلت له: أشعر أني خلقت لأكون مقاتلا. تمنيت لو أسعفني قدري حتى أتخرج ضابطا».

حدست لذلك أنه لمس دائما خيط شبه بيني وبين الضابط لخضر، الذي أَضمر له احتراما لم يخصّ به سوى رفاقه الخلّص في السلاح خلال الحرب. أذكر أنه صرح له بشيء من ذلك يوم سلمنا السلاح لتنظيم عمليات الدفاع الذاتي قائلا له: أثق فيك لأنك من مدرسة ربّت أجيالا أبقت على نسغ الوطنية ساريا في وجدان عشرات الآلاف من المجندين ومن الجنود ومن رجال الأمن كي يحيا هذا البلد العظيم».

في خارج المقهى، قلت له بحيرة: قطع رشيد شعرة الصلة بيننا

وبين الضابط لخضر.» فرد عليّ محمولا على أثير من الغبطة المبهمة: لم أكن أتصور ولد الطيب أشد عنادا من آبائه.» وسألني: واش تدير قدام واد إذا حمل؟» فأجبته متفكرا: الآن أخاف عليه.» فهوّن لي: لا يخاف سوى الشجعان لأنهم لا يَغدِرون.» وأضاف: لا تنس موعد المختار».

وفي حركة تلك السرعة، كان ابن منصور نقل خبر النبش إلى مختار رئيس البلدية، الذي اتصل فورا بالضابط لخضر ومحافظ الأمن الحضري والنائب العام.

ولما عاد إلى عمران وجده ينظف بالماء بلاط مدخل بيته من بقايا آثار أقدام فأبلغه أداء المهمة فشكره باتزان معهود ثم صرفه ودخل فأغلق الباب دونه ونادى ملاطفا: اخرج يا ذيب».

كان رشيدا! فقد أطل برأسه ثم تقدم في ملابسه، التي غادرني عليها، عدا السروال. فقال له: جاء عليك! كأنه خِيط على مقاسك! من نوع الترقال الجيد. لبسته مرة واحدة يوم زواج أحمد الثاني.» فأدخل يديه في جيبيه ومدد ساقا ثم أخرى، كطفل لعب لعبة عنيفة ونسيها. ورد بإعجاب نافضا براحتيه على ركبتيه: أنتم، كان لكم ذوق رفيع».

واعتذر له عن خرقه حرمة بيته. فمد له يده مبتهجا: أنا سعيد برؤيتك.» فالتمع له وجه الزهرة تقول له أن يلتجئ في كل الأحوال إلى دار عمران فضمها وهمس لها أسماءهم جميعا أمه وأخته وأباه ووالدها متسائلا لها كيف لا يسيطر على شعوره وحش الثأر قائلا لها

إن ما سيقوم به فظيع وأخبرها أنه ذاهب إلى حارس الحديقة فأجهشت فهربت عيناه إلى رفوف المكتبة العامرة الصامتة لتستقرا على (الفتنة الكبرى).

ولاطفه بأنه كان عليه أن ينظف رجليه من الغرقة. فرد عليه بأنه تعمّد ذلك ليشعره بوجوده. وأقرأه سلام الزهرة. فأغمض عينيه لحظة ثم تنهد وقال: أنا من بين المَدينين لوالدها بها على عبد لسيده! سي إسماعيل علّمني القراءة والكتابة وأنا كهل، مثل رفاقي في السلاح، التزاما بعهد بوركبة على أن لا يبقى واحد منا أميا! كنا نتعلم في غرفة حولها الإمام إسماعيل من بيته الملحق بوقْف المسجد إلى حجرة درس تكفل بوركبة بتجهيزها».

وابتسم له: لكن سي الطيب كان أسرع مني في الفهم.» ثم سأله: كيف حالك؟» فأجابه مغتبطا: كما ترى.» فأشار إليه جهة المقبرة: حين ينزل الليل أبلغهم جميعا سلامك».

4

فأمام المقبرة، كان أعوان من الحرس البلدي وقفوا مانعين الدخول ليلف أفراد من الأمن، بلباس مدني، الجثة في لحاف أبيض ويضعوها في عربة غادرت مسرعة، تابعها يعقوب من شجرة الخروب التي نزل منها مضطربا. وأعاد على بغداد، الذي كان رجع، ما شاهد. ثم أنهى له مذهولا: كل شيء تم في رمشة عين».

وفي خلال حفرهما القبر الأول، روى بغداد ليعقوب ما حدث له في الحمام قائلا: نزلت لأخبر بوعلام؛ لأنه وعدني بقنينة إن سبقت إليه بخبر مهم. فتلقاني ميمون القوّاد وهددني باستبدالي بحفار آخر إن لم أطلعه في الحين. فحكيت له ما رأيت دفعة واحدة واسترحت كما من برازي. وتوعدني بالتبليغ عنا أننا نطلب من ذوي الموتى أجرا على الحفر إن لم أقل له أين قضى بوعلام ليلته أول

البارحة. ابن الجرباء! أين أراده أن يذهب إن لم يكن عند جلول حارس الحديقة ليشرب معه مما اشتراه له؟ لكن ابن الكلبة لم يطلق عني إلا بعد أن اعترفت له أني أخبرت بوعلام بأن عمران عرف أن الذئب جاء من الحديقة. فهمهم: آه، جلول! ولبس على عجل ثم خرج من الحمام فخرجت من بعده».

فلما كان ميمون دخل بوابة الحديقة قال لحارسها جلول بصوت متوعد: سمعت أن الذئب خرج من حظيرة الحديقة. أستطيع أن أسبب لك متاعب تصل حد الطرد أو السجن. لا ترغمني! يعنيني بوعلام، ولا شأن لي برشيد.» فأذعن له حينا: ظهر لي على ثقة زائدة كمن ينوي فعل شيء خطير. ثم فرك يديه وقال إنه يشعر ببرد في قلبه. لذلك استبقيته ليشرب معي فراح بين حين وحين يتفقّد كيسا من البلاستيك مملوءا بأوراق ثم نهض فجأة وقال لي: حانت ساعة الشجعان! وخرج في الظلام». فكشر في وجهه ثم غادره.

بقي جلول مسمرا مكانه للحظات قبل أن تنزل عليه فكرة الرحمة: أعترف بأنه أشهر في وجهي سلاحه وهددني بالقتل إن لم أخرج له الحيوان فخضعت لطلبه لأنه كان على حال من التهيج».

وفي أحد أروقة إدارة البلدية كان الموظف، الذي أشعر عمران بالدفن، قال للسكرتيرة: نبش قبره وأكل كبده.» فردت بتقزز: سينتقم منهم جميعا. لذلك اختفى حمرون! تعرف؟ هو الذي آوى جمال بعدما اغتال سي سمان رفيق بوركبة. وهو الذي أدخل في سيارته ولد فلة وجماعته إلى المدينة ليلة اغتيال عائلة رشيد. نادية زوجة

المفتش حسن هي التي أخبرتني أن شرطيا كان يغطي على حمرون ويعده بمساعدة مالية، قبل أن يتوصل زوجها حسن إلى اكتشافه هو وعونين آخرين، على صلة بجماعة عليان. فألقي عليه القبض مع شريكه. لكن الثالث تمكن من الفرار».

فنظر من حوله وهمس لها: أنتظرك!».

5

وفيما كان المفتش حسن يتأهب إلى الخروج في المهمة العاجلة قال لمساعده: إنه ليس سوى غريزة الوحش النائم في الإنسان، وإلا ما بالغ في التنكيل بجثته إلى حد عرضها على ذئب.» فرد عليه: عندما نكون في مواجهة الإساءة القصوى يتعطل فينا الحس الإنساني.» فاستدرك له: ذلك جانب».

وروى له قصة قاتل، لم يبلغ الثامنة عشرة جندته الجماعة، قائلا: عندما عُرض على الطبيب النفساني فسأله عن إحساسه تجاه ما قام به رد ببرودة أنه شعر بدوار خفيف إذ اغتال عون أمن من حيهم كان عائدا إلى بيتهم صباحا، وبأنه لم يكن أحس شيئا لما وجه مسدسه إلى رأس إحدى النساء وأطلق عليها مرتين. ولما أخبر أنها كانت إحدى معلماته رد غير مبالٍ بأنه كان عليها ألا تكون هي! وأذهل

الطبيب ذاته إذ صرح له أنه كان يحس نفسه مثله تماما يقوم بمحاربة المرض».

فأبدى له أن التنظيمات السرية والمنظمات المسلحة غالبا ما تلجأ إلى مثل هؤلاء لقابليتهم المرضية.

فوافقه وأضاف: يوم محاكمته تمكن من الفرار وسط معمعة اجتاحت قاعة المحكمة لإنذار خاطئ بوجود قنبلة. ثم قاد المجموعة التي استولت على أموال البنك ولجأت إلى أحد البيوت في الضاحية. فبلغ عنهم شخص كانوا اختطفوا بنته فحوصروا. وكان هو الذي رفض أن يسلموا أنفسهم رادا في كل مرة بطلقات متقطعة. وتحسبا لسقوط الليل، حتى لا يفلتوا، تَمّ شحن دبابتين تقدمتا من الهدف في وضعية متقاطعة وأطلقتا نيرانهما تزامنا. فتطايرت أشلاء البناية. ثم أعقب الصمت الغبار». فلم يعلق وخرج خلفه.

فلما فتحت لهما الزهرة باب بيتهم تنشقا معا نسيم الصمت. وأبلغها المفتش حسن الأمر بالتفتيش فاستقبلتهما بوثوق. وسألها عن رشيد إن كان قضى الليلة عندهم فردت بالنفي مستغربة. فتأسف لها متلبسا بقناع رجل المباحث الحازم قائلا إنها مقتضيات المهنة، ناظرا إليها واقفة في كبرياء.

فقد وجدها، كما توقعها، امرأة شابة ذات رسوم من النبل أضفت على طلعتها مهابة لا تخفى ورثتها من رجل لم يكن قبل ثلاثة أعوام إمام مسجد المدينة الجامع فحسبْ ولكن إحدى شخصياتها المبجلة. فثارت مشاعره بمشهد اغتياله في المحراب وقد وقف في

ذهول على جثته النازفة.

كان مساعده، كما بدا للزهرة بهيئته القوية، من أعوان الشرطة القضائية الجدد؛ بتسريحة موجة الشباب الثلاثينيين السائدة. يرتدي كمفتشه سروالا من الدجين وحذاء رياضيا وجاكتة لحجب مسدس من العيار الكبير يغرس غالبا خلف الخاصرة.

وتقدم في الرواق النظيف الساكن لا يزال محتفظا بشيء من الحزن، غمر المساعد بسكينة الأضرحة، فأسّنت في ذهنه موجعة تلك الجمعة التي لم يغب عن جنازتها سوى القاتل وجماعته. فردد في نفسه: عبث! أي مهمة هذه التي أؤديها في بيت آمنٍ لأدوس على روح إمام».

فإنه ما إن تقدم خطوة حتى التبسه ظلٌّ لمراقبٍ خفي أحاط به. وشعر بأن الجدران تتلمسه فاجتاحته حرارة مباغتة؛ هو الذي أنجز مهمات أمنية خطيرة وحملات تفتيش خاطفة مبعثِرة وعمليات مداهمة عضلية كان فيها حادا وشرسا أحيانا بحثاً عن المسلحين أو من يتعاونون معهم في المدينة وضواحيها وفي الأحياء الشعبية خاصة.

ومن صالة الضيوف الفارغة، المفروشة بزربية ووسائد صوفية على مطارح ثلاثة بينها مائدة كبيرة من الخشب المصقول المبرنق ولوحات ثلاث لآيات بخط النسخ مذهبة معلقة في وسط الجدران، تضوّعَ لهما عبير مسك حشوم ممتزج برائحة صوف عتيقة.

ودخلا الغرفة الأولى فانتبه إليهم فتى أنيق جالس إلى طاولة على جانبها مجموعة كتب وبين أصابعه قلم قالت لهم عنه: أخي إبراهيم.» فقام ودار. فأشارت إليه نحوهما: من الشرطة ومعهم أمر

بتفتيش الدار.» فتعجب له المفتش حسن كيف لا يكون مع الطلبة المضربين. فرد برزانة: فضلت الاشتغال على موضوع مذكرة تخرجي.» بينما استطلع المساعد محتويات الغرفة من كرسي وطاولة وخزانة خشبية ببابين وسرير فردي نظيف وجهازي تلفزيون وستريو ورف كتب ومجلات وحذاء كرة قدم مصغر معلق في الجدار وصورة مكبرة بالأسود والأبيض للإمام إسماعيل.

فاستدرجه بنبرة حنين: جو الجامعة عجيب ومغرٍ بأنواع التطرف كلها. لكني أعتقد أن الطلبة تغيروا.» فأجابه: ربما.» فسأله متى كان رأى رشيد آخر مرة. فتفكر لحظة ثم أجابه: ربما قبل ثلاث سنين.» فتمنى له مواصلة موفقة.

وفي الرواق قال للزهرة: وأنت يا أستاذة؟» ففتحت له الغرفة الثانية مجيبة: منذ أن ودّعني أسبوعاً على مذبحة عائلته.» فرمى: آهاه.» ثم انشغل عنها بصورة الإمام معلقة في وسط الجدار مقابل سرير نومها بوجهه المسالم حاسر الرأس بشعر يبدو أسود أملس ممسدا إلى أسفل. فصعقت ذهنه ومضة من وجه لحول. وضجّت في سمعه ترديدات من تلك التجمعات والمسيرات قبل سبعة أعوام.

ثم مد يده إلى مرفع مكتبها المكون من كرسي خشبي عتيق ومن طاولة نظيفة منظمة عليها حاسوب وطابعة فظهر لها أخمص مسدسه. وأخرج كتابا قرأ عنوانه ملتفتا إليها بإعجاب: المواقف! لم أكن أعلم أنه للأمير عبد القادر». وتصفحه. ثم قرأ تحت نظراتها المتسائلة. وفيما راح مساعده يتلمس ورقة إحدى الوردات في زهرية

على المائدة، قطع وسلّط نظره عليه: جَنية بلا شك.» فأكد له: فعلا.» فقالت الزهرة موزعة نظراتها بينهما: كان العرب من أحرص الأمم على زراعة الورد وتقطير العطور، وإلى وقت غير بعيد كانت البيوت الجزائرية في الحواضر كلها بحدائق أو بساتين أو جنان لا تكاد تخلو من أزهار».

فحرك المساعد رأسه حركة خفيفة. ونطق مفتشه: ذلك من تفاصيل التحضر.» ثم عاود فتح الكتاب مستغربا لها صعوبة ما يقرأ. وكان في واقع الأمر يستعيد شهادة خطية كأنها نضدت على الصفحة بين يديه تنضيدا فقرأها كما في مكتبه: إنما قَتل الإمامَ إسماعيل إصرارُه أمام تهديد الجماعة على أن الدين لله الحافظ لكل دين، وأن الدعوة إلى الاقتتال بين المسلمين حرام، وأن الخالق أراد للمسلم أن يكون وسطيا يحب أخاه في الإنسانية وأن يدرأ الشبهة عمن هو من ملته، لأن الإسلام سلام إلى البشر أجمعين، وأن الديانات التوحيدية على قدم من المساواة عند معتنقيها" وكان والده كشف له أن مصدرها الزاوية. ثم قال لها يعيده إلى موضعه: يحتاج تركيزا بدرجة التأمل التي كتب بها! ربما قرأته يوما؟».

لكن الذي شد انتباهه على الجدار لوحة زيتية معلقة. فتلمسها بإصبعه قائلا لمساعده بإعجاب: وعلى قماشة.» ثم دار نحو الزهرة: أصلية؟» فأجابته: نسخة وحيدة.» فأشار إلى مساعده بالاقتراب وهمس له: مفارقة! رجل دين مثل الإمام على سماحة من قبول التصاوير».

فراح المساعد يتأمل معركة حية بين جنود جزائريين في ألبسة عسكرية خضراء اللون أو في جلاليب متمنطقين عليها بأحزمة الذخيرة وعلى رؤوس بعضهم عمائم بجانب الصخور وعند أقدام الأشجار في حال قتال بأسلحة خفيفة خلفهم مجاهدة بلباس ميدانيّ قائمة بعمليات الإسعاف، وبين قوات عسكرية فرنسية تزحف بأعداد لا تقل عن العشرة مقابل الواحد بأسلحة مختلفة وطائرات تقنبل ودبابات عند سفح الجبل تقصف.

فقطعت عنه الزهرة من خلفه قائلة للمفتش حسن: ربّانا الوالد على أن لا نرى الله فينا إلا جميلا! كان يجد فيها معنى آية: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة.» فثار فيه نزوع طالب علم النفس؛ فحدث مساعده عن ألوان اللوحة وعن حركات ظلالها ولغات شخوصها وعن تعابير تفاصيلها.

ولما أضافت: أخبرني الأستاذ الذي سلمني إياها هدية يوم حفل تخرجنا أن من رسمها امرأة»، سألها إن كان هو أستاذ الرسم نفسه فأجابته: بل أستاذ التاريخ.» فنوّه لمساعده: كان على حسّ متوتر.» ونظر إليها متذكرا: أستاذ التاريخ.» ثم همس إلى مساعده: كان أستاذا استثنائيا ذا قناعات علمانية لاقى بسببها المضايقة والتحرش من زملاء له يدْعون إلى إقامة نظام ديني بديل. اغتيل ذبحا في حاجز نصبته جماعة لحول على الطريق المؤدية إلى الجهة الغربية».

ثم أشاد لها: أثمن ما نقدمه لأعز من نقدر أو نحب لوحة زيتية.» فاجتبت السكوت متذكرة أختها زبيدة سألتها يوم رجعت

باللوحة لما ذا اختارها أستاذ التاريخ من بين المتخرجين من دار المعلمين ليهديها إياها. فلم تذكر لها سببا مقنعا، لأنها كانت هي نفسها لا تدري. فخمن المساعد: لا بد أن الأستاذ كان مشدودا إلى الأستاذة بشيء ما».

وسألها إن كانت تخمن سببا حقيقيا لاغتيال الأستاذ. فحرّكت حاجبها متفكرة. ثم قالت: كان في دروسه دائم التوتر قلقا». مستعيدة رنينا من صوته المغموس في الكدر، عرِق الجبهة، طافح الوجه بلون الدم، قائلا لهم: تاريخ حرب التحرير المكتوب هو اللاتاريخ! معجزةٌ أن الحرب لم تؤُل إلى الفشل! كل شيء فيها كان قاب قوسين من الانتكاسة؛ لأن رموزها أقاموا كل شيء على تنازلاتهم التي وصلت حد التواطؤ على الاغتيال والتصفية! أعرف أن واحدا منكم على الأقل سيبلغ مصالح الأمن عما أقول. فإنه لا موضع نتنفس منه لا يوجد فيه مخبر مدسوس يراقب ضمائر الآخرين. أنظمتنا تسير هكذا! ولكن لا بد أن تعرفوا أن هناك شيئا ما يتم تحضيره في الخفاء. أشهد أنه سيكون مدمرا.» وأضافت متغضنة الصوت: ثم كان الدور على والدي وعلى الآخرين».

فتماسك المفتش حسن أن يبدي لها أي مواساة وعاد إلى طاولة المكتب واضعا يده على وحدة الحاسوب يستفسرها إن كانت الطابعة تشتغل. فأجابته مهتزة النظرة، عاين ذلك في عينيها، مكبوسة باللحظة التي كانت أتمت فيها السحب: نعم.» مقدّرة تضمينه أن البلاغ خرج من عندها.

6

لم يكن المفتش حسن لينكبح عن إثارة موضوع البلاغ لولا شعوره بغتة بأن مهمته تحولت إلى سخرية مآل غير متوقع. وقد راضت الزهرة، من جانبها، نفسَها بأنه كان يمكنه أن يشعل الجهاز لمراقبة الملفات أو أن يحجز وحدة الحاسوب؛ لعرضها على المختبَر لاسترجاع الملف المتلف بوسائل أخرى.

وكان مساعده، إذ فتح كناشته ليسجل معاينة عن الحاسوب والطابعة، قرأ في أعلى الصفحة: الحياة ليست سوى مجموعة عناصر مترابطة تبدو غير منسجمة؛ يكفي أن تنظر في جسمك لتتوهم أنه كتلة وما هو سوى جزيئات ذرية سابحة تدور حول بعضها" فرد على نفسه مبتسما: ولكن يجب أن أفجر من تحتي قنبلة ذرية صغيرة لأرى ذلك».

ثم أغلقها. وسرق نظرة إلى الزهرة، تبدو له على ثقة فائقة خمّنها هي التي ضغطت مفتشه عن أن يحرجها. "أجل، تجنبت إحراجها لسبب قاهر! كأن كل شيء هنا مطلسم! ولكن ذلك لا يبدو بديهيا. فلو كان للإمام قدرة لاستخدمها حتى لا يذبح في محرابه أمام أعين المصلين ووسط عجزهم المذهل».

في الغرفة الثالثة وقفوا على امرأة ولتهم نحو القبلة تسلّم، لم تلبث أن دارت إليهم بوجه هادئ مطمئن على هالة من وقار؛ لم تُفقده إياها فاجعتها في زوجها إسماعيل متمسكة بصبر جميل أمام معزياتها اللائي حسبنها لذلك أصيبت في ذاكرتها وقد كانت قائمة لصلاتها فقطعتها وخرجت إلى الزهرة المعصوفة بالخبر المروع فضمتها إلى صدرها من بعدما تخلصت من حضن حليمة في الرواق ووحّدت الله ثم شهقت وبكت.

تبدو في الخمسين؛ لوافر الأناقة المحجوبة خلف لباس تقليدي من عباءة بيضاء وشال أبيض غطى رأسها نازلا على كتفيها، لضرورة الصلاة، ومحرمة ذات ألوان وردية باهتة تستر شعرها، ونطاق من معدن الفضة.

دعا لها المفتش حسن بالقبول، وقد ولج مساعده في عين التهيب. فردت بآمين. فزادت ملامحها المؤنسة الجو الروحاني كثافة. فاعتذر لها: آسفون يا سيدة! لن نثقل عليكم».

قالت لها الزهرة مجيبة عن نظرتها المتسائلة: السيد المفتش حسن مع مساعده في مهمة تفتيش.» فتنهدت وأمرتها أن تحضر لهم

قهوة. فاعتذر ممعنا نظراته في سحر وجهها المسالم المحتفظ بآثار جمال عتيد. ثم رفع عينيه إلى لوحة (آية الكرسي) معلقة في إطار خشبي منقوش مكتوبة على ورق بخط يد من النوع المغربي القديم. فاقتربت منه الزهرة قائلة: هي التي خطّتها.» فاستغفرت.

وانتبه المساعد عائدا من معاينته العابرة للمحتويات التقليدية المكونة من مجموعة من الأفرشة والأغطية الصوفية ومن بطانيات مرتبة فوق بعضها مسندة إلى الجدار على طاولتين صغيرتين ومغطاة بستار أبيض قرب خزانة ذات خشب بلون بني فاقع وسجاد كبير على طرفيه مطرحان مغطيان بجوخ القطيفة العتيقة ووسائد أربع على أرضية ذات بلاط أبيض منشى بالأسود نظيفة حد اللمعان ورائحة أقرب إلى بقايا احتراق البخور منها إلى العطر.

وأضافت أني أنا الذي نقش الإطار. فتفحص خشبه المنمنم بما يشبه الحروف التي كتبت بها الآية. ثم تحسس أحد الأضلاع في لطف: متقن.» فقالت: بقلم برَده والدي شخصيا من قصب حر ممتاز.» فالتفت إليها، واضعة يدا على يد في حجرها داخل هالة وقارها. فأشارت إلى الزهرة أن تواصل معهما.

فلم يقض المساعد في غرفة الحمام سوى لحظات ليدخل المطبخ ويخرج من باب له مفضٍ إلى حوش فارغ إلا من بعض الدلاء وأنبوب ماء مطاطي وقطة ماءت مرتكنة. ثم رجع فهمس إلى مفتشه: لا شيء».

ولما فتحت لهما باب آخر غرفة وسبقتهما، فصرّعت دفتي

النافذة الزجاجيتين ثم الخشبيتين مسوية الستار الشفاف، غمر المكان ضياءٌ خارجي. فظهرت لهما ثلاثة أشعة كبيرة من الكتب والمجلدات تتوسطها طاولة بستة كراس خشبية وفوقها حُق خزفي مملوء أقلاما سيالة ورصاصية وجافة وقصبية شِقّية أيضا.

نظر المساعد إلى مفتشه باهتمام إذ أخرج القلم القصبي الأطول، تحت عين الزهرة، وأمسكه من وسطه متأملا عقبه فحفرة لسانه الصغيرة حيث يتجمع السمق عند كل تغطيسة في الدواة. ثم وضعه بين أصابعه الثلاثة ممعنا في حدّيه المبريين بتناسب دقيق وقال: لذلك كتبت الآية بتلك الاستقامة والأناقة.» وردّه مكانه.

فقد التحق به مساعده ناظرا بانجذاب شديد إلى مئات الكتب مصفوفة على الرفوف بقطْع صغير إلى متوسط وكبير. ولما وضع يده على أحد المجلدات ناطقا بانشراح: الفتوحات المكية.» انشغلت الزهرة بمساعده ركز فجأة على صندوق خشبي من النوع القديم فأنبهته بلهجة مطمْئنة: ذاكرة العائلة.» فحرك رأسه بصمت.

ثم قرأ عناوين بعض المجلدات: وفيات الأعيان، الحيوان، معجم البلدان، تاريخ ابن خلدون، طبقات الأطباء، طوق الحمامة». وأشار إلى مساعده بالاقتراب وهمس له: لا شيء يُشعر الشخص بضعفه ومحدودية عقله مثل مكتبة.» فرد: فعلا.» فأضاف: من علامات الانحطاط أن يغتال جاهل عالما! الكتاب هو رمز الدين في الأصل. لكن كم هي الكتب التي تخرج عن الدين حينما توجه خطابَها المآربُ السياسية».

وأراه عناوين في الفقه والتفسير وفي الفلسفة التاريخ والتصوف وفي السير والرحلات والجغرافيا وفي علوم الطبيعة والطب والكيمياء وفي علم الديانات وفي الشعر والرواية وفي علم النفس. وقال له: لا بد أن عددها يزيد على ألفين! لذلك لم تستطيعوا محاججة الإمام ولا مناظرته فأسكتوه إلى الأبد لأنه أعرف منهم».

ثم مشى، تحت نظر الزهرة الساهر، إلى أن أكمل دورته على الأشعة وقابلها بجانبه مساعده قائلا: تشبه حقلا زاهيا بأنواع الأزهار البرية. لا يسعني إلا أن أعجب.» فردت: ورث والدي عن جدي الكتب الأولى فزاد عليها. إنها أثمن ميراث تركه لنا.» فتأمل مساعده في وجهها لحظة ثم قال: شيء يبعث الدفء في الروح! الدنيا بخير ما وُجدت عائلات تتخذ من الكتب والمكتبات المنزلية علامة تميز.» فشكرته.

وإذ هم بالخروج همس إليه مساعده كلاما فنظر جهة الصندوق. فانتبهت الزهرة معتذرة: آه، قلت له عنه إنه ذاكرة العائلة.» وتقدمت ففتحته. فقلب محتوياته الموضوعة بعناية على رفين. ثم استدار بسجل في يده: مخطوط بقلم القصب.» فقالت: إرث جدي لأمي إلى والدي. ضبط فيه نَسب العائلة، وأحصى فيه أهم حوادث المنطقة، ودوّن فيه أنواعا من عقود البيع والشراء والتوكيل والوصية».

فاقترب منها بالسجل مفتوحا واستفسرها مشيرا إلى وسط الصفحة: جدول حسبة الميراث؟» فأجابته: كما خطه جدي بيده.»

فلاحظ لمساعده أن حساب الميراث من أعقد مسائل القسمة في الفقه. ثم مازحه: تحفظ آية حساب الميراث؟» فنفى مبتسما. فأغلق السجل وأعاده إلى موضعه. ثم تظرف له بأنه كشرطي لن يخلّف مالا ولا عقارا يرثه عنه أبناؤه إلا مبلغا معتبرا من الهم ونصيبا كبيرا من القلق. وذكر له، على مراعاة من الزهرة، أن غالبية الجزائريين كانوا لا يعرضون أحوالهم الشخصية، التي تستدعي الثقة والكتمان والحشمة، على إدارة الاحتلال مقاطعين القضاة الشرعيين الذين كانت تعيّنهم.

وإذ فتحت لهما الباب المؤدي إلى الجنينة ونزلت الدرجات الثلاث، تسبقهما في الممر الإسمنتي الممتد إلى نهاية جدار السور الحجري، كان المفتش حسن حدد بلمح بصر أشجارَ الليمون والتين والدالية النافضة، فيما ألقى مساعده نظرات على المربعات الصغيرة المعدة للغرس والتي غرست متقدما حيث صوت ضربات في الأرض فوقف على من قرفصت منهمكة في جرف التربة من أمام الماء ليصل إلى أحد المربعات. فأعلنت له الزهرة رافعة صوتها: زبيدة أختي».

فاستدارت قائمة ثابتة مكانها لحظة مستطلعة وجه المساعد، الذي ركز على القادوم التي تحملها بتصميم فلاحة ولكن بملامح وسيمة باسمة، لابسة سروالا وجزمة طويلة وجاكتة، معصبة شعرها الأسود بسبيبة بيضاء. وتطلعت إلى من وقف جنب الزهرة بسؤال من عينيها. فقالت لها: إنهما في مهمة تفتيش في البيت».

فتركت القادوم تسقط، مقلصة شفتيها، هازة رأسها تشعرها أنها خمنت السبب. فقال لها المفتش حسن ناظرا إلى يديها: شابة مثلك

تعنى بالفلاحة المنزلية! ما ذا تغرسين؟» فردت باتزان: فول وسلاطة وجزر.» فتبسم ودار عنها معاينا علو جدار السور. فركزت مساعده ثم واجهته مضيفة: وأقلم الأشجار.» فتبسم. فسألته، مقتربة منه، عما يعجبه في مهنة شرطي. فارتبك لحظة قبل أن يقول لها: أنت شجاعة إلى حد ألا تخافي من شرطي.» فردت عليه ببداهة أنها فكرت أن تنخرط في سلك الشرطة لتكون ضابطة مباحث. وأعلنت إليه: أنا مولعة بالمغامرات البوليسية، الملغزة منها خاصة».

وفيما راحت الزهرة تجيب المفتش حسن عنها قائلة: وفوق ذلك فهي منذ صغرها مفتونة بالنباتات وطيور الربيع! أما عنايتها بالغرس فتعود إلى تربية والدنا الذي كان يقضي وقته بين المسجد وبين المكتبة وبينهما وبين الجنينة». كانت هي تجاوزت المساعد وتقدمت نحو دلب. ثم عادت بزهرات في يدها فسلمت مفتشه واحدة قبل أن تلتفت إليه مبتسمة قائلة بلا حرج: وهذه لك، كيلا أخاف منك».

فضحكوا بانشراح.



الفصل السادس

1

وعلى مائدة الغداء، كنت قلت لزوجتي حورية: أن يكون رشيد قضى أربع سنين ثقيلة في جامعة الجزائر وسنتين أخريين في خدمة عسكرية كابسة كضابط صف، رتبة الجامعيين المجندين، ثم اختفى خلال شهورها الأخيرة التي أعقبت اغتيال عائلته لتمتد غيبته إلى ما بعد انتهاء تجنيده فيظهر فجأة ويقتل لحول ثم ينبش مدفنه فوقائع على شدة أوجاعها لا تبدو بدرجة العبثية ولا بذروة النزق اللتين أخرجتا إلى سطح الحياة العامة شخصا مثل لحول جاء من الشارع في لباس السفاهة لينتهي إلى اغتيال إمام مسجد جامع حيي على خلُق العلماء».

فلم ترد. ثم قامت زافرة وتوجهت إلى غرفة نجاة.

فإني كلما تذكرت ذلك قفز إلى ذهني وجه عليان، لا أجد سواه من حضّر الفتيل وأشعله بغُلوائه التي كان ظهر عليها يوم توجه

إلى مقدمة المحراب وجلس على كرسي الإمامة ثم حدّث فبشّر في درسه بزوال نظام الدولة القائم على المكس والربا والضريبة.

فلم يعترض عليه الإمام إسماعيل؛ اتقاء لإثارة ما كان سيوقظ في قلوب الآوين إلى بيت الله فتنة التنازع، لا خوفاً من طيش لحول الذي كان جاءه قبل ذلك وأبلغه أنه معفى من الدرس. وقد عرف الناس بعدها أن الإمام إسماعيل نزل إكراها لا إكراما منه لعليان على تأديته سنّة العمرة.

لكن الآوين إلى المسجد لم يكونوا جميعا يعرفون أن الشخص الجريء، المدعو عليان، دخل المدينة ذات شتاء قبل خمسة عشر عاما رفقة أمه وأختين له صغيرتين لم تلتحقا بالمدرسة، وكأنه بلا أهل ولا جهة أو أصل. عاشر محيطه حذرا متكتما كثير الترحال. حتى إذا كان عاد بعد غيبة طويلة برز بلباس أهل المشرق من سكان الجزيرة العربية بالشماغ والغطرة. فأُعجب به لحول، لِما أضفى عليه ذلك المظهر من زهو حسبه لأمراء. فأهداه كتابا وقميصا. فأشاعت فلّة أن صديق ابنها اعتمر.

شخصيا، كنت ظننته وافدا من الحجاز فعلا إذ جاءني إلى مشغلي يطلب إليّ أن أؤدي زكاتي السنوية إلى لجنة المسجد الجديدة فأجبته بأني سأنظر في الأمر، مشدودا إلى لحول الواقف إلى جانبه في استعداد جندي كيف تغيرت هيئته جذرياً لولا وشم من ملامح أمه! لم يوجّه نحوي نظره ولا نطق خلال حديث عليان، الذي خلا من أي تهديد أو وعيد على عكس ما وقع ذلك منهما لاحقا مع تجار آخرين

وحرفيين وأصحاب مقاهٍ وحمامات وخبازين.

ثم ما لبث أن انتقل من بيته المتواضع إلى بيت جديد واسع ومؤثث. فصار يقصده فيه أشخاص يأتون من كل صوب، يدخل بهم لحول غالبا لحضور مجالسه الدورية التي كان أحد الأغنياء من تجار الجملة الجدد قال له فيها: أبلغك يا شيخ رغبة جماعة ممن وهبهم الله رزقا في أن يقيموا لك مسجدا جامعا تؤمنا فيه.» فشكره رادا عليه: الدعوة تحتاج عدة وعتادا لا مساجد ومصليات».

عن ذلك، كان بوركبة أخبرني قائلا: أعرف من بين أولئك الذين يترددون على بيته تسعة من أثرياء المدينة الجدد مصادر غناهم مشبوهة؛ بعضها آت من التهريب وبعضها الآخر من تحويل أموال عمومية تَم تبييضها. لذلك كان الإمام إسماعيل رد هبات منهم قالوا إنها لخدمات المسجد. ومثله، كان السيد الحسين شيخ الزاوية، كما روى لي سي رضوان والد المفتش حسن، لم يتقبل صدقة كبيرة من أحدهم وحدّث عن ذلك في درس ما بعد صلاة العصر الذي يلقيه على طلبته بدأْبٍ قائلا: اسألوا عقولكم، كما قال أحد السلف، قبل أن تسألكم بطونكم يوما عما تأكلون ومما تأكلون؛ وإنما الاهتداء إلى المحرم بالحس؛ فإن قلوبكم تخبركم فتراه عيونكم حشرات أو أعفانا».

لكأني ما زلت أسمع رجرجة صوت عليان في الدرس الذي ألقاه في المسجد الجامع قائلا: بلباسك تتميز وبلباسك تشهر لدينك راية! فليُلبس كل منكم أهله ما يرضي به ربه! ألا فأحرقوا عنكم

لباس الجاهلية.» فوقع الآباء والإخوان في حرج ضاغط تجاه بناتهم وأخواتهم وأهليهم؛ فانقطعت الفتيات جميعا عن ممارسة الرياضة في المدارس وأبطُلت حصص الموسيقى والرسم.

حدثني رشيد، في تلك الأيام، أن أحد أساتذة الزهرة في دار المعلمين قال لها بصوت مريب: يا ابنة إمامنا، ألا اتّقيت فتنتنا؟» فردت عليه مشيرة بيدها إلى قلبها: الله، ينظر إليّ هنا.» وإذ عادت إلى بيتهم فأخبرت أمها طمأنتها على أنها أكثر معرفة من الأستاذ بما يليق بها.

واستغرب لي بدهشة كيف صار موظفون في أسلاك الدولة يلتحقون بأعمالهم في قمصان ونعال ويضعون على رؤوسهم عَرّاقيات بيضاء أو كوفيات سوداء وبيضاء أو حمراء وبيضاء مطلقين اللحى، وصارت موظفات يرتدين حجابا خشنا شاعت عنه تسمية التشادورا ثم قال لي إن اللباسين علامة على الالتزام بأسلوب حياة مغاير للنمطين التقليدي والأوروبي السائدين حتى وإن أصبحا سترة عن فقر صارخ لدى فئات وجدت نفسها فجأة غير قادرة على مماشاة متطلبات الحياة من اللباس.

لكن رشيد، خلال سنته الدراسية الأخيرة، كان وصف لي بالأمر المريع سيطرة المتشددين من الطلبة والطالبات على المعاهد بقبضة حديدية فارضين الفصل بين الجنسين في الأحياء والمطاعم وفي المكتبات بعد وقوع هجومهم الكاسح على ممثليات المنظمات الطلابية غير الدينية فجرحوا العشرات وسقط على يدهم أول قتيل بالسلاح

الأبيض.

وفي المدينة، فإن ما كان جلب انتباه الناس على قلقٍ هم أولئك الفتيان، من العاطلين ومن الطلبة ومن تجار الرصيف والعربات ومن الحرفيين الصغار ومن ذوي السوابق العدلية أنفسهم وممن كانوا منحرفين، الذين يلبسون قمصانا وأحذية رياضية غالية، كان بعضهم يحيط بلحول أو عليان، مشكلين ما يشبه سرايا شرطة أخلاق متحرشين بالنساء والفتيات السافرات؛ فقد جلدوا عاهرة وحرّقوا يدي ساحرة برصاصها المذوب وطاردوا مدمني الكحول واقتحموا حانة ومطعما وكسروا ما فيهما.

حتى إذا كان الضابط لخضر أثبت ضلوع ثلاثة منهم في إحراق الفندق السياحي الوحيد برأ أحد القضاة ساحتهم لعدم كفاية الأدلة؛ وسط هبوب دوامة اللهيب، التي كانت تهيّجها الخطب في المساجد والمصليات.

ثم صاروا يشكلون حرسا لعليان، بقيادة لحلول، كلما انتقل إلى بلدة مجاورة ليؤم فيها صلاة الجمعة فيقصد إليه فتيان وفتيات وتجار ونساء لم يخرجن من قبل إلى أي مسجد مرتديات حجبا وخمرا وبراقع أحيانا، يسمعون جميعا خطبه التحريضية على الإعداد للأمر العظيم.

ويوم أمّها في أحد مساجد المدينة الجامع، وقد شوهد والي الولاية على غير العادة يؤديها خلفه فشاع أنه يهيئ لانتقاله إلى صف جماعة الدعوة قبل سيطرتهم على الحكم، رفع عقيرته عبر مكبرات

الصوت المكثفة التي كان مداها يصل الضواحي وكأنه ينفخ للرحيل: الله! الله! نريد دولة كما أرادها الله! سنقيم دولة الله! سنحكم بما أنزل الله.» فلم يبق قلب لم يفزع لندائه في حرم المسجد وصحنه ومدخله القبلي ولا على رصيفه أو بعيدا حيث تلاشى في الفراغات.

قبل ذلك اليوم، لم أكن أحس أن للقيامة رائحة! ولكني لم أقتنع أبدا أن يكون شخص مثل عليان يملك كفاية سياسية أو سَعة معرفية أو علما ربّانيا ليعلن بثقة مرجرجة متحديا: سنهدم أصنام الدولة الطاغية على رؤوس من يرضون بحكمها ويستظلون تحت رايتها! فمن المال نجمع ومن الرجال نحشد ما نمكن به دولة العدل من القيام.» كنت أسمعه ينطق بلسان من يكلمه من جانب خفي.

فلما قضيت الصلاة دعا لحول، بمكبر الصوت، إلى الالتئام في الساحة الكبرى، كما فعل غيره على عهد سابق، مبلغا عن مقْدم الشيخ الأزرق. ثم نشر أنفارا من جماعته لإقامة الحزام الأمني. فضربوا حوله طوقا مذ وضع قدمه على أرض المدينة في طريقه نحو الأنصار المحتشدين، كما احتشد الذين من قبلهم في آخر تجمع لمساندة انتخاب رئيس الجمهورية الثالث مرشحا وحيدا للحزب. فاقترب ميمون من لحول وسأله: ألا يكون الشيخ الأزرق هو الإمام الذي طال انتظاره؟» فسخر منه، على فارق العمر بينهما، قائلا: وعليان! أليس أهلا لها؟ ربما رأيتني يوما أنا ذلك الإمام».

فيما مشى الأزرق صاعدا إلى المنصة باختيال زعيم كبير فاعتلاها ناشرا ذراعيه كفاتح عظيم مغمورا بالتهليل. ثم نطق للبحر

البشري فاضطرب لكلماته وارتفعت صيحة من عمق الموج بسؤال حاد: متى أداء الفريضة الغائبة؟» فقطع كلامه وأجاب بابتسامة لائمة: أداء الفرائض لا ينتظر فتاوى».

فجهر لحول بمطلع نشيد الجماعة: عليها نحيا.» فارتفعت الأيادي بالمصاحف مرددة إياها قبل أن يربت الأزرق على كتف عليان قائلا بعزة المنتصرين: تركت فيكم هذا وليا عليها.» فحرك شفتيه بالقول: كنت حدثتكم عنه، هو إمامكم.» فضاع صوته في صرخة لحول: الجهاد، الجهاد! السلاح، السلاح.» فصعّدتها الحناجر كما النار في القلوب والحديد المصهور في اليد.

وختم الأزرق مهنئا: دولتكم الموعودة هذه، ستقوم في عامكم هذا.» ثم عاد إلى العاصمة على عجل لأمر طارئ؛ قيل كان الإعلان عن بداية العصيان.

ذات ليلة، بينما كنا نصبنا كمينا عند مدخل المدينة من جهة الغابة، قال لي الضابط لخضر بكامل الغيظ مستذكرا تلك البدايات: لأنهم يحملون في صدرهم محيطا من الحقد للإنسانية كلها! فقد أُهّلوا وبُرمجوا ليصيروا قتلة! أي تحفظات لا تجدي معهم ما دامت مؤسسات الدولة مهددة بالزوال».

كنت أحمل إلى جانبه المسدس الرشاش، الذي سلمني إياه أياما من قبل وسألني عن المسدس الآلي الذي كنت اشتريته من السوق السوداء فلم أجحد له. حينها كانت الدولة تبدو أصيبت بفداحة العجز عن صيانة وجودها وحماية مواطنيها.

وردد لي: بلد بأكمله يُخرِجه من الحلم إلى الجنون ساسةٌ منخورون بالطموح والجشع ليدفع ثمنَ حماقاتهم خيرةُ أبنائه.» ثم أوعز إلينا بالاستعداد قبل الاشتباك.

2

حقيقة؛ فإن مختار، برغم مجريات الوقائع المتسارعة، غمره طيف سعادة إذ استقبلنا أنا وبوركبة في بيته بعد الزوال، مؤجلا بعض التزاماته لحين؛ وفاءً بوعدنا له قبل يوم لدى خروجنا من مكتبه.

فقد لاطف بوركبة: أنت الذي تقول رفع السلاح في وجه الظلم فروسية نهاية القرن العشرين.» ووادني شادا على يدي: وهذه تعلمتها منك: يمكن للرجل أن يخسر كل شيء إلا شرفه.» واعتذر لنا: لقاء أمس لم يسمح لنا حتى بتبادل أخبار أحوالنا.» ثم جاملنا بأنه سيظل مَدينا لنا؛ فإننا كنا من أشد الناس إقناعا له بدخول الانتخابات البلدية الأخيرة، ومن أنشط معاونيه في حملته، بصفته مرشحا حرا. والواقع أنه انشق عما كان يسمى الحزب الحاكم.

وأشعرنا، على قهوة وحلوى، بصدور مذكرة البحث عن

رشيد، من غير تعليق على حادثة النبش. فرد بوركبة: طبيعي أن يحوّل ساسة هذا البلد الظالم إلى ضحية.» وخاطبني منفعلا: قلت لك».

فنطق له مختار بصوت هادئ: ولكن الضابط لخضر يستطيع أن يفعل بحيث لا يعثر على رشيد.» فهز رأسه ارتيابا ناظرا إليه نظرة فيها شيء من ذلك الأنس، الذي طفر في عينيه إذ أخرج له قبل أعوام قطعة السلاح وقدمها له واثقا: بترخيص من الضابط لخضر، لتدافع عن شرفك! الوضع خطير والدولة معرضة للانهيار.» فأمسكها بيد مقاتل.

غير أن كل شيء انفرط فجأة لما قال مختار، متحدثا عن سياسة إدارة الوضع الأمني وتسييرها، إن قصر المرادية سيظل حريصا على أن تحقق أهدافُه نتائجها القصوى؛ كان ما كان! فانفعل بوركبة رادا: لبّيت دعوتك لاعتقادي أنك ستقف مع الحق الذي يعلو على قصر المرادية نفسه! أم نسيت أنك أقسمتَ لي على معاقبة من استباحوا دم عائلةٍ رهن ربها نفسه ليتحرر هذا البلد كي يلقى ذلك المصير على يد ابن قحبة.» فنكّس مختار حياء. وانصعق ذهني أنا بآلاف الشرارات من وجه فلّة.

ثم قام وسوى وقفته بانفعال مضيفا: كيف يصير اليوم من كانوا أمس حماة للشرف أنصارا لمنتهكي حرمة الشرف من الساسة الفاسقين الذين نكلوا ابن صديقي مرتين».

انفجاره كان مذريا. فلم أدر إن كنت قلت لمختار شيئا وهو يصحبني إلى خارج داره في صمت. لكني كنت على يقين بأن بوركبة،

الذي خرج قبلنا مشحونا، سيجتاح كل ما في طريقه؛ فقد كان دخل قهوته من المؤدى الخلفي ونادى الخادم من باب الغرفة الخاصة وأمره أن يستدعي له ميمون من عند الحلاق المجاور. فحضر فقام له في فورة غضب وأمسك بخناقه واضعا له فوهة مسدسه في صدغه قائلا: حتى أنت! كنت أحسبك رجلا شريفا.» فصعقته المفاجأة وأقسم بالله أنه لم يقل أو يفعل شيئا ضده. فدفعه نحو الجدار وعنّفه: الخونة، كنت أذبحهم وأضع في أفواههم أشياءهم التي بين أفخاذهم».

فرفع يديه حد صدره وتلعثم: تعرفه.. أنت تعرفه أحسن مني.» فجذبه إليه ثم رده ضد الجدار وخضه بشدة كازا أسنانه: وتبيعني إليه؟» فصالب يديه نافيا. فضغط بفوهة سلاحه حتى ألصق خده الأخرى بالجدار وذكّره باشمئزاز: أبكرت عندي لتنقل له أخباري؟ وأشربتك قهوتي يا خبيث».

ثم بسطهما قائلا في استسلام: لم أنقل له شيئا عن رشيد أو أحمد، كان يعنيه من وزع البلاغ.» فسأله: تعرف أنت من وزعه؟» فأجابه: لما أخبرته تبسم. وسمعته قال: بوعلام المحتقر يقوم بعمل لا ينجزه سوى مناضلي المنظمات السرية».

فأبعد المسدس وضغط بقبضته اليسرى على نحره مصعّدا إياه مع الجدار: هو أفضل من جرذ مثلك.» فتخبط وتمرمس. فبخّ وجهه برذاذ غضبه: ما ذا يعطيك الضابط لخضر؟» ثم خلّى عنه فترنح وكح مدمعا: لا شيء، لا شيء! له علي ديْن؟».

فضربه على فخذه بماسورة سلاحه ثم على زنده يأمره: زد!»

فتألم وأخبره أنه سكت عليه عن أموال ابتزها منه لحول تحت التهديد ولم يتابعه بتهمة إسناد جماعة محظورة مقابل تعاونه معه. فصرخ فيه: أنت كلب مرتين!» فتنهد ثم قال ببحة بكاء: أنا لا أستحق كل هذا من رجل مثلك.» فغرز فوهة مسدسه في بطنه ونظر إليه بصمت جليدي ثم نغزه: اتلف من أمامي!» واستدار عنه ملقيا بنفسه على أريكة.

للحظات، زفر وتنهد واستغفر. ثم سكن على إغفاءة عميقة أخرجه منها عمران بنقرة خفيفة على الباب المفتوح. فقام إليه وحضنه قائلا بنبرة عتاب ودية: الأمر مهم وإلا ما خرقت عادتك ونزلت إلى المدينة لتمر علي هنا في القهوة.» فرد عليه مبتسما: جئت لأراك، أنت».

فشد على يده ونظر من حوله ضائقا بالمكان. ثم دعاه إلى بيته. فاعتذر طالبا منه قهوة معصورة أحضرها له بنفسه وقابله على كرسي. فأشار إليه نحو المسدس لا يزال على الطاولة قائلا: يذكرني بشبابك.» فرد عليه بأن حضوره أثار فيه تاريخا كاملا. فلاطفه: كأني لا أزال أمام ضابط لم يُفقده الزمن كثيرا من شراسته.» فترجاه بنبرة شابتها حسرة: لا تنفخ في جمر القلب.» فمد يده وأخذ المسدس يتأمله قائلا: هذا والرشاش! أتذكر أنك، قبل سبعة وثلاثين عاما، قلت لقائد الثكنة المستعادة: حتى لا أنسى أني حاربت من أجل حرية الجزائر! ثم خرجت».

فأشرق الدمع في عينيه وذكّره بتأثر: ولم يكن في جيبي سوى نموذج مصغر من العلم الوطني سلمته لي بيدك قبل نهاية الحرب

بعامين وأنت في المخبأ على شعرة من موتك بسبب جرحك الذي أنتن! أم نسيت؟» فابتسم له: أبدا! ولولا ممرضتك المجاهدة لهلكت.» وأعاد له المسدس فتنهد ثم رفعه بهدوء: لا أملك لابن صديقنا سوى هذا والرشاش! ما ذا سيفْضل لنا من هذه الدنيا سوى شرفنا؟» فطمأنه: لا شيء سواه.» وأضاف: بلغني صدى طلقات رشاشك في الساحة.» فقدم منه وجهه وهمس: ولكن، من هذا الشيطان الذي دله على الذيب؟» فلم يتزعزع. فتراجع ناظرا إليه بلوم. فنطق له: على الأقل، الذئب أنبل من الكلب.» فضحك.

وسأله إن كان رجال الأمن استجوبوه عن النبش فأجابه: كنت سأصرح للضابط لخضر أو المفتش حسن بأني لو علمت لأسندت ابن صديقنا ورفيقنا سي الطيب.» فمد له يديه مبسوطتين مبتهجا: أخي وصديقي ورفيقي عمران، أنا في الخدمة.» فشد عليهما وأخبره: يبلغك سلامه ويطلب منك قبول اعتذاره.» فتنهد وتحركت شفتاه بقول مات في صدره. فأضاف له: أنا سأمر على بنت سي إسماعيل.» فحرك رأسه حاجرا دمعه. فقام عمران وودعه في صمت.

3

فكم أحست الزهرة بحريق التذكار في قلبها إذ أقرأها رشيد تحيات عمران وقالت له: عمي عمران، يا لروحه الطيبة! ذكرني بكل شيء لما أخبرني أنك نازل.» وسألها عن البيت بعد مراقبة فضائه. فأجابته أنه لصديقة لها غادرت إلى الخارج. وطمأنته على أنه في أمان. ثم دخلت المطبخ.

فاستلقى على أريكة من نوع السداري متحسسا حركة يديها بين الفناجين والملاعق. ثم رفع صوته: لا أدري كيف سمحت لك بأن تتورطي في معمعتي؟ أما أحمد فبيني وبينه عهد.» فأطلت عليه مبتسمة تحمل صينية القهوة قائلة: أنت في حاجة إلى راحة».

فإني كنت محطة عبوره الإلزامية نحو غايته. وأما تورطي فيعود إلى يوم حملي السلاح إلى جانب الضابط لخضر. ولم يكن بيني وبينه سوى عهد واحد على ملاحقة القتلة ربطناه في بيت بوركبة، في

اليوم الثالث من المذبحة، وقد كان حينها قال مضروبا بعاصفة من الحزن مكسور الصوت: إنها حرب حقيقية بين الأبناء، ولكن صامتة تنخرهم وتزرع الخراب في عقولهم وتسدل على مستقبلهم ستارا من الشك في كل شيء».

وسلمته الفنجان فأبقى أصابعه على يدها مضمومة فارتعشت شفتاها بنطق قالته عيناها حيرة: وجه بوركبة لا يفارق ذهني! كم تألمت لانصرافه بخيبة طفل رُفضت هديته لما جحدت له وجودك! أحس بالذنب».

فوضع الفنجان على المائدة الكبيرة ومسد بيده الثانية على معصمها البض قائلا لها بحنان: برغم عناده وصلابته البادية ظل دائما إنسانا هش المشاعر أمام من يحبهم. في نهاية أسبوع جنازة الأهل غلبه دمعه لما قال لي يواسيني: سي الطيب أخي، فكن ابني! فأحسست حريقا شب في شراييني. لكني قاومت شهقتي! بعد أن تفرّق الحضور دعا أحمد وجلس بيننا. حدثنا بقلب مترع بالنقمة عما تسبب فيه الساسة. وقال: هم أشنع من القُرَاد. وطفح وجهه بحمرة التأثر متعجبا: كيف يخوضون نزاعهم المزمن على السلطة بدماء الجزائريين!».

فحطت يدها فوق يده وتنهدت فهامسها: الزهرة.» فردت: أحمد.» شابكة أصابعها بأصابعه فتنهد ثم نطق بحزن: كان يجب أن أصالح ضميري تجاه أرواح الوالد والوالدة ومبروكة.» فحننت براحتها على كفه: رشيد، أتجزّأ من أجلك لأكونهم جميعا.» فنقلها إلى

خده ثم قبّلها بحنين: بيتنا شحال توحشْتَه! الوالدة وحدها كانت ستعيد ترتيب ما تبعثر. تعرفين؟ خلت لحظة وقوفي فيه أن ما وقع ليس سوى مراءاة. وتوهمت لحين أنهم خرجوا في ضيافة».

وحدَه ترداد لحظات التعازي وعبارات المواساة كان ما أرجعه إلى حقيقة الفاجعة فأغلق بابه على الصمت نفسه الذي وجده عليه يوم عاد من الثكنة، وقد كنا أنا وزوجتي حورية وخادمة بوركبة والزهرة نفسها غسلنا الحوش والجدران والرواق من آثار المذبحة قبل وصوله بنصف يوم.

فمن خلف الحزن قالت له مرتجة الملامح: صمتك الآخر أجمل. إني أنظر عميقا في قلبك. وها إني أحس حريقك.» فزفر مغمضا على بريق من وجهها ناطقا لها: أمام باب المتوسطة! تظاهرت لي بتعافيك من صدمتك في أهلي ووالدك، وكل ما فيك كان مرايا لأحزان». فقاطعته: وأمسكتَ على جرحي بجرحك راسخا أمامي بإباء موروث من سلالة نبلاء غابرين لتخبرني أنك مغادر».

وقد كانت دعته إلى بيتهم فتعتذّر لها بوقت رحلة القطار الوشيكة فأطرقت مهدودة الخاطر. ثم تولّيا عن بعضهما ظَهراً لظهر. فحجبت دمعها، فيما تقدم هو نحو صمت المحطة. وفي العربة رافقته أطيافهم تظهر ويختفي في البيت تارة، في المقبرة تارة أخرى، واقفا على لحودهم الثلاثة المحوطة بقبريات رخامية رُقم على شواهدها ذكرهم، قارئا على أرواحهم (يس).

وإذ نهضت لتحضر له العشاء جذبها قائما وضمها مرجوج

الجسد: توحشتك.» فحنّنت خدها على خده مرتعشة الأنفاس مستنشقة رائحته الأولى يوم همست له بشفتيها على شفتيه بشعاع من الخجل وهو يلقاها مساء إثر عودته الأولى من الجامعة بعد عام في آخر احتفال عرفته الساحة بمناسبة عيد الاستقلال التي لم تر عيدا آخر بعده وقالت له: توحشتك».

ثم رفعت إليه نظرةَ وحشة: أنا خطيبتك.» فسرب يده في سواد شعرها الأملس المقصوص عند كتفيها. فتنهدت تتذكر والدها يفعل لها ذلك كلما أرته نتائجها المدرسية فأشعرها بالأمان!

فكم كنت ابتهجت أنا لرفرفة الفرحة على وجهه لما أبلغته في مشغلي ما كان سي الطيب أوصاني به له قائلا: تراضى الوالد مع الإمام إسماعيل على أن تكون الزهرة لك وتكون لها.» فنظر إلي بوابل من السعادة وقال لي بإشراق: الوالدة ستكون أسعد حماة في الدنيا.» ثم أسمعني بيتا من الشعر عن حنين الحبيب إلى رؤية الحبيب الذي هو أشد حنينا.

ومرر يده إلى ما بين كتفيها ودعك خفيفا. فهمست: أبيت أن أراه في دمه. لم أنظر إليه نظرتي الأخيرة إلا في لباس أبيض أنيقا مثل الأولياء وعلى وجهه الجميل نبل الفاضلين.» فرد عليها بهمس: مزقوا نحره كيلا ينطق أن الله جميل.» فشهقت وضمته مهزوزة الصوت: كن أبي أكن أمك».

ففك عنها قدْر ما وضع إبهاميه على حاجبيها ناظرا في عينيها يشع منهما بريق أكثر فيضاً مما كانت قابلته به في المكتبة قبل ليلتين وقد

أصلحت شأنها ومشطت على عجل، وسألها عن والدتها فقالت: أخبرتها أني سأكون معك.» فقبّلها بإحساس ما اختزنته لمطرٍ أرضٌ ظامئة.

وضعت رأسها في صدره وترجته: يجب أن تختفي.» فخلل شعرها متنهدا: بدونك؟» فرفعت إليه عينيها المليئتين برقة الحياة: سأنتظرك.» ثم خطت إلى المطبخ بصعقةٍ ذرية كتلك التي انشطرت في كيانها يوم تقدم منها في الزنقة بملء الشوق في عينيه وتقدمت إليه في قلبها الخوف فأشعلا شرنقة الخجل ليلا.

فتابعها بنظرات ثارت فيها أنقاض فواجعه فأبصر بأخته مبروكة صعدت إلى سطح لَحْدها تسأل أين نجاة فيما سبحت أمه في غيمِ عالقة يد والده. فردد كما قرأ على قبورهم: والعصر إن الإنسان لفي خسر" فمار له وجه لحول. فالتحق بها تُعد شطيرة لحم للقلي ونطق لها من خلفها: كنت لن أخطئه من بين البشر جميعا! تمنيت فقط لو أني كنت الذيب الذي مزق بطنه».

فالتفتت إليه بدهشة ماسحة يديها في منشفة رمتها على طاولة الأكل وفتحت ذراعيها فانحضن بينهما وحنّنت بخدها على خده ناظرة في المطلق: من أين لظريف مثلك هذه القسوة؟ متى اجتاز الوحش إلى قلبك؟ كيف يُظلم روحُك؟» متحسسة نبضات قلبه في صدرها صامتا مهصور الوجدان بوجه أمه. فسرّب أصابعه المرتعشة بين قميصها الداخلي وبين بشرتها بحثاً عن بشرة أمّ. فصاحت فيها كوامنها فأغمضت على انفجار آثار المذبحة في وعيها فارتعشت.

فأهمدها بكامل حرارته.

ثم تهامسا شتاتات ماضٍ صار حاضرهما مرصعا بتذكارات من أيام الدراسة؛ فأعادت له كيف أسِرها دائما بألَقه من بين الفتيان جميعا. فذكّرها أنها كانت من بين الصبايا كلهن الوحيدةَ من بهره فيها استشرافها قارئة في مشاعره كما من سجل، مجادلة إياه خلال سنتهم الثانوية الأخيرة في مسائل عن المرأة والوجود فأنزلها ذلك في عقله وفي عواطفه شعاع أمل جميل.

وابتسما، لصقاً لبعضهما، مما تذكّراه في مكتبة الثانوية فاتحين كتابين مستغفلين الأنظار مراوغين عيني القيّمة على قاعة المطالعة تتحركان كمنارة بحر، مجيبا إياها عن قلقها تجاه مدينة بنيت كأنها لتكون قوقعة للمرأة: لا تستسلمي لها لأنها ستغتصب منك ومني حلمنا.» وعند باب الثانوية نشبته: أفهمت يا فيلسوف هذه المدينة الحرجة لما ذا أنا نبغيك.» لأنه كان أثار إعجاب الأستاذ بمقالته الأدبية عن مسألة المرأة في العالم الإسلامي فنوه به، وكانت جنبه، ثم طلب إليه أن يقرأ ما قاله عن المرأة المسلمة كاتبا أنه يمكنها أن تكون براغماتية تفرق بين الأشياء التي تفرضها المعاملات، فتخرج إلى العمل وتتقلد الوظائف وتنشئ مؤسستها الخاصة وتشرف عليها وتسيرها وتبرم العقود والصفقات، وبين الأشياء التي تلزمها بها أخلاق دينها فتحافظ على أسرتها وتنشّئها على عوائد المسلمين.

فقد قلبت الشطيرة مرتين ثم راحت تقطّع سلاطة إذ قال لها جالسا على كرسي طاولة الأكل: كنا نحلم بمساحة من الحرية بسعة

سماء الدنيا! لكن». فردت تنهي التخليل: يستطيعون فعلا أن يغتالوا فينا كثيرا من الأشياء إلا الحلم بأننا سنكون بالصورة التي أرادها لنا الخالق: أحرارا».

فقام وضغط ظهرها لصدره فأطفأت النار تحت المقلاة. ثم أقعدها على فخذه، مثل صبية، ومرر ذراعيها حول رقبته وحضن وجهها بين يديه وقبّلها بين عينيها، كما لم يفعل يوم ودعها مغادرا لتأدية الخدمة العسكرية قائلا لها مفتعلا تضجّراً: لأن هذه المدينة ضاقت بي.» فردت بحزن سافر: لكن قلبي يسعك أنت وما فيها».

ثم ضم رأسها إلى صدره وقال لها بانكسار: وطنٌ بشساعته أمسى أشبه بسجن مفتوح على الضياع. كم تغير بشره! نكاد نكون الوحيدين في هذا الوجود من فقدوا إنسانيتهم.» فهمست على قلبه: لعلها الجبرية! نحن مجتمع قدريّ». واضعة يدها بلطف على جبهته فعلى خده. فذكّرها: لم أجادلك يوما في مسلّمة دينية أو إيمانية، لأنك ببساطة أكثر مني اطلاعا على ما يرجع إلى الموضوعات ذات العلاقة بالدين خاصة، ولو أني أتألم كل لحظة مما آلت إليه حال هذا الوطن؛ كأن يدا تدفعنا دفعا إلى أن نصير أشقياء هذا العالم».

فتلثمت حلقه فذقنه ثم شفتيه فجعلتها طويلة عميقة، تعويضا عن تلك التي تجرأ عليها بها أول مرة فكانت قصيرة خفيفة، مغمضة على عذوبة مثلما راودها حلمها الرومانسي بأن تتلذذ يوما من ثغره الشهي حروفها جميعا. فأحس نفسه قطرة ندى في قلب زهرة من مسك الليل.

4

قالت له راجعة إلى صدره بحثا عن دفء آخر: تذكرت شيطان الفتنة وسوس لي أنك سكت في مقالتك أنْ تذكر أن نوع ملابسي الداخلية ومواد زينتي وأدواتي وأشياء أخرى من تصورهم وصنعهم.» فهدهدها بحركة من فخذه، وأصابعه في شعرها، متسائلا بنبرة حزينة: ما الذي أضفناه منذ ستة قرون إلى الفعل الإنساني سوى بلاغة لم تقدم حلا لأي مسألة من مسائلنا الوجودية العالقة؟ ألسنا في هذه الحضارة المعاصرة أشبه بصغار الطيور، التي صارت بلا أمهات، فاتحة مناقيرها تنتظر التقوت في أعشاش تفقيسها.» فتنهدت. فأسند ذقنها بأصابعه ناظرا في بهجتها الخجلة وسألها بعينيه ما ذا تقول. فأجابته متخلصة بلطف: بقي لنا الدين والشعر.» فتشكك لها: لا أعتقد الشعر أيضا».

صمتت لحظات في نعيم دفئه متفكرة. ثم ذكّرته في خفوت: أرّقني التفكير ذات ليلة من تشوش انتظام وصول رسائلك من الجامعة فدخلت المكتبة وفرَقت جزءا من الفتوحات المكية فكانت الصفحة التي قرأت فيها الكلمة الأولى عن مرتقيات الحب. ودهشت لكون الحب والعشق والوجد والوله ليست مترادفات بل درجات في مصعد الروح إلى منزلة الإشراق! فتمنيت لحظتها لو كنت معي فأريتك أني كنت بعيدة عن الصواب لما جادلتك في دلالة المترادفات».

فتبسم لها قائلا: لكن الحب ارتبط دائما بالغيرة. ونحن نحب لأننا نغار.» فبصّرت إليه بفيض من الأنس. ثم قالت مصدقة بحركة من رأسها: وتلك نزعة أوجدها الخالق في قلوبنا. فهو الأحق بالغيرة على عبده».

فإنها كانت، كلما دخلت المكتبة، تقفّت آثار قراءات أبيها. فلم يكد يبقى كتاب، مما رأته اهتم به من غيره من الكتب الأخرى، لم تطلع على موضوعه! فكثيرا ما دخل عليها، إثر عودته من صلاة العشاء، فوجدها تقرأ. فحيته. فهلل لها. ثم استغرق عميقا في ما يقرأه. فسرقت إليه، بين حين وحين، طرْفا فألْفته كأنما في حال تهجّد. لا تسمع منه إلا سفسفة الورقة إذ يطويها أو همسه مستغفرا مدلّكا عينيه خفيفاً من أثر التعب. فهي لا تذكر أنه وجّهها يوما إلى كتاب بعينه. ولا أمها لاله حسناء نبهتها مرة أن لا تقرب المصْحف على غير طهر إذ مسته، بعد غسل من محيضها الأول، فأصابتها رعشة قوية قبل أن تقرأ منه (طه).

ثم أخذت راحته فثبتتها على وجنتها وقالت له: كان الوالد سيدي ومعلمي ومحبي! شملني بما فوق الإعزاز. قال لي مرة: محبة البنت من والدها غصن أخضر غرسه الله في الفؤاد فهفهف في قلب نبي المسلمين محمد على ابنته فاطمة أم الشرفاء! أذكر أنه قابلني آخر مرة على الطاولة بين يديه كتاب وحدثني بصوته الهادئ: إن رأيت يوما مخلوقا لم يشْك إلى أحد من الخلق غبنه، وأنت أعلم به منه، أدركت أن الحق زرع في قلبه بذرة صبر الأنبياء! وكأنه كان يستبق ليهيئني إلى الرضا بما كان سيصيبنا فيه».

ضمها بصمت عميق فهمست له: العشاء.» ففك عنها. فتولت عنه بحركة ربة بيت كانت قبل وقت ليس ببعيد لا تزال تلميذة، مثله، في الصف السادس محاطة في ساحة المدرسة بقريناتها أو منشغلة بأخيها إبراهيم في الصف الثاني، فيما كانت زبيدة أختها في الصف الرابع أصغر من أن تنضم إلى زمرتها من البنات اللائي كن أكثر هدوءا متظاهرات بهيبة الكبيرات في محيط ساحتهن المحرر من الذكور. وكان لحول، الذي أدركه في الصف الخامس من المعيدين، كعادته في ركن من الساحة يبتز أحد التلاميذ ما يأكله عنوة أو يأخذه منه تحت التهديد.

لكنه فاجأها من خلفها بما كانت طرحته عليه مرة في سنتهما الأخيرة من المتوسطة وعيناها تسبقان نطقها بإنذار من الإغواء المبكر: لما ذا خلق الله المرأة ليس كالرجل؟» فدارت إليه متعجبة: ما زلت تذكره.» فقال لها: وما فتئت لا أعرف.» فردت متولية تهيئ الطبق:

كان زغب الرجولة على ذقنك وشاربك مغريا.» فتبسم قائلا: ولكني ما زلت أذكر كيف جلست جنبي في مكتبة الثانوية وفتحت كتابا على ورقة مدسوسة فيه بخط يدك وهمست لي أن أسمع قصة رؤياك».

فتوقفت عن الحركة ورددت بغبطة تفيض من صوتها: رأيته أخذ يدي. أردفني على جواد مجنح ركض بنا في المدينة ثم طار. شاهدنا تحتنا حقول الربيع تلوّح لنا بالنوار، والطيور قد اصطفت موكبا لنا. فقالت لنا الشمس: افرحا!».

فسألها كما في تلك اللحظة: متى حصل هذا؟» فأجابته كذلك: مذ صرت أراه في منامي.» فتذكر صديقه يزيد يودعان الثانوية على اكتئاب قائلا له: الدراسة، ولا شيء غير الدراسة! وجنوننا؟» فرد عليه: مدينتنا عاقلة تُنضج حياة ناسها على نار هادئة».

فقد أحست، وهي تضع آخر لمسة على العشاء، رعشة لظل زبيدة واقفة جنبها في مطبخهم بفرح غامر مراقبة رجفة شفتيها فنظرت إليها بطرف مزيحة عن ملامحها إزار التحفظ قائلة: حدث الذي كان يجب أن يحدث يا عفريتة! قبّلني.» فوشوشت لها: الآن صارت أختي الكبيرة امرأة صغيرة.» فضمتها إلى صدرها فتنبأت لها متحسرة: يزيد سيجد غيري ما دمت تخلفت عن الثانوية».

فطمأنتها، وهي تعلم أنه شخص كتوم طموح بدرجة تتعدى آمال أختها قبل أن تكاشفها بذلك إثر رحيل عائلته في خريف التحاقه بالجامعة. فردت عليها بحزن: ومع ذلك، كنت سأحب واحدا مثله».

ثم حولت عواطفها إليها فقاسمتها أسرارها وصارت تنصح لها بما تلبسه من الأنواع ومن الألوان دون غيرها، بنلك التسريحة أو اللمسة من التزيّن الكتوم؛ ماكثة في البيت قاضية جزءا من فراغ وقتها في مطالعة مجلات نسائية متخصصة وأخرى في البسْتَنة، حتى وإن لم تكن شغوفا بقراءة ما في مكتبتهم من الكتب الأخرى مثلما كان إبراهيم يخصص أكبر وقته غير الدراسي للرياضة.

ووجدت فيها الحميمة التي عوضتها عن أي صديقة، وعاملتها بأحاسيس أنثى فسبقتها أحيانا بشعورها المتوتر إلى تلك الحاجة التي تطلبها أي امرأة في الرجل من غير تصريح.

وهامستها بكلام وردي دافئ عن الحب، وطلبت إليها أن تروي لها الحياة في الخارج. فحدثتها عن جو الدراسة ووصفت لها الوسيمين وهم يتبادلون الحديث مع صديقاتهم في الساحة وكيف ترد بعض الأخريات القاسيات حين يعاكسهن المشاغبون في غفلة من أعين الحراس.

فقصت هي عليها حكايات الفتيات القاعدات، اللائي تلقاهن في الحمّام، عن مغامراتهن وأفراحهن وأحزانهن. وحدثتها عن تلك التي جرجرتها من شعرها عارية، لأنها زعمت لها أن رشيد سيكون لها هي وحدها.

فأنّبتها: عزيزتي زبيدة، الأولاد ويخافون منك.» لأنه سبق لها أن أدّبت واحدة أكبر منها سناً، وصفتها بالغيّارة لما سألتها عند باب المتوسطة عما ذا تكون أفضت به ليزيد.

وقالت لها: أنت فلتة من المرحومة جدتك! كنت بين ساقيها تضفر لي شعري لما سألتني عن رشيد فخجلت فقرصتني في خاصرتي فتألمت فقالت لي: لو شفت قرصة الرجال! ثم عقصت لي مؤخرة الضفيرة بمساك وهمست لي: قلبي يحدثني أنه يبغيك! فقبّلتها في جبهتها وترجيتها أن تدعو لي. فتبسمت بكامل وسامتها. جدتنا كانت امرأة فاتنة».

فقد خرجا من المطبخ يدا في يد وفي البهو وقفت أمامه وقالت له: أنت ترى! يمكن أن نتغلب لحظة على الحزن والألم والخوف.» فحضنها بأطياف لحظة عابرة على رصيف المحطة يوم جاءت رفقة زبيدة تشيّعه إلى الجامعة وقدمت له نسخة مجلدة من "طوق الحمامة" وهمهم لها بأنفاسه: كم كنت أحب أن تكوني جنبي في ذلك اليوم.» فسألته بهمس: أي يوم؟» فأجابها: في محطة القطار بداية خريف جميلة كانت محتفية بأنواع الحلم البعيدة».

سكنت. ثم شهقت. فأسند خدها إلى صدره فاركا شعرها. فراحت تقول بصوت ينبع من تذكار: أصيب بحزن غريب لما أبديت له رغبتي في الالتحاق بالجامعة فأكون جنبك! زبيدة هي التي فتّحت عينيّ على أن ذلك كان يعني عنده مدينة أخرى هي العاصمة الكبيرة بمهالكها. وأجبرت خاطري بأن دار المعلمين على خطوتين من بيتنا. وقالت لي الوالدة: هو لا يمانع لولا خوفه عليك. فرجعت إليه ليلا في المكتبة فقربّني منه وبقي صامتا. فقبّلت يده ثم قلت له: إلا ما يرضيك! لم أكن أعلم أنه أغلق باب المكتبة ورائي ليبكي».

كانت زبيدة هي التي حمّمتها عشية أول دخول مدرسي لها بعد عام في دار المعلمين وكوت مئزرها وسرحت شعرها وحضرت لها الفطور وأوقفتها عند المرآة وراقبتها تكحل عينيها وتزهّر شفتيها ثم ألبستها ومدت لها محفظة الأستاذة وشيعتها إلى خارج الحوش بنظرات الفخر.

بحثت عن يده وشدت عليها قائلة بارتجاج: إذ طرقت عليّ الباب أحسست أن شيئا ما انهار. وخبرني حدسي أنك أنهيت مع السفاح. في طلعتك كان الفارس الذي تخيلته بحث عن جواد ثلاث سنين ليحلّق به في فضاء قلبي! لو تدري كم هي فادحة هذه الرغبة التي تجتاحني الآن في أن نرحل في بعضنا.» فضغطها إليه على إحساس بالتشظي.

ولما كانت عند باب الخروج التفتت إليه وأخبرته أن مفتشا من الأمن ومساعدا له زارا البيت بحثا عنه فحرك رأسه قائلا بابتذال: كنت أنتظر ذلك.» وحثها على الخروج لأنها تأخرت مضيفا بوثوق: لن يأخذوني حيا، الضابط لخضر أو غيره.» فنظرت إليه ساكنة فحرضّها بعينيه على الخروج وطمأنها: ولن يأخذوني ميتا.» فرجعت إليه وأخذت يديه ودعكتهما منكسة. ثم غادرته كاظمة لوعتها. فعالج مسدسه وأغلق خلفها الباب على رائحة بشرتها تسكن حواسه.

5

حينها، كان المفتش حسن نزع عنه حذاءه وتهالك على سداري، بعد إطلالة على طفليه النائمين، ونظر من تحت حاجبه إلى زوجته نادية المنتظرة، كعادتها منذ بضعة أعوام كلما تأخر في العودة ليلا، مقاومة هواجسها بحياكة سماط من الخيط لم تنهه أبدا؛ قتلا لقلقها عليه أن يأتيها يوما خبر اغتياله، وقال لها: لم أتأخر اليوم كثيرا».

ومد يده في ارتخاء بحثا عن سطح المائدة القريبة منه واضعا سلاحه ثم توجع لها: لم أغتسل في حمام الساحة منذ أربعة أعوام.» فذكرته أنه نسي أن تكون العناية هي التي جعلته يسافر في مهمة فلا يكون في الحمام في ذلك المساء الذي اغتالت فيه ثلاثة عناصر من جماعة لحول عون أمن وتاجرا رميا بالرصاص.

فتحول على صدره وأشار إليها بإصبعه خلف ظهره: وما ذا لو ننسى قليلا؟» فجلست جنبه ودلكت له من قفاه نازلة إلى ما بين كتفيه. فتوجّع متلذذا مغمضا عينيه على وجه زينب الضحوك وبربر لها: تمنيت لو وُلدت لنا بنت.» فآخذته على أنه ظل يتمنّع عن كفالة واحدة من الأطفال المسعفين. فانقلب ولمس بطنها قائلا: أردتها.. من.. هنا!».

ثم حدثها في السرير بصوت متعب مهموس أنه خرج من دار الإمام بمشاعر سخية جدا، ولكنْ منسكنا برغبة آسرة في امتلاك بيت واسع في محيط أخضر. فنقرت بأصابعها على صدره هامسة له: تستطيع أن تقوم ليلة القدر وتنتظر الكرامة.» فغفا على قوله لها بأسف: كان من المفروض الاعتذار لهم على أن العدالة لم تأخذ مجراها في حق قاتل والدهم بدل تفتيش بيتهم».

وفي سباته رأى الشيخ الهرم، كما وقف عليه خلال معاينته ظروف اغتيال الإمام، قد شق له بيده المشعة نحو إسماعيل في جمعة موته على المنبر ممتلئ الصوت ثباتا تتموج نبراته في زوايا المصلى فهزهزت صدور المصلين فخال الطيب بن العربي نفسه سمع حِسّ قائد كتيبته يُعدهم لمعركة جرحته خلالها شظايا قذيفة. وشعر بوركبة، كما لم يشعر من قبل والهلاك يحاصره في غير ما معركة، أن الإمام يتهيأ لرحيل.

لم أكن رأيت من قبل وجهه قد أشرق بذلك البهاء إذ أقسم بيمين الله، في خطبته الثانية عن الفتنة، أنه اجتمع ليلا إلى شيخ

العارفين فكلمّه بالحق عن أنه لا يكون داعيا إلى الله إلا من دعا على بصيرة لا من دعا على ظن وحكم به، فما واحدٌ حجر على أمة محمد ما وسّع الله به عليهم إلا ضيّق الله عليه أمره في الآخرة وشدد عليه يوم القيامة المطالبة والمحاسبة لكونه شدد على عباد الله. ثم ختم داعيا: ربِّ إن كان بلاء فخفف وإن كان ابتلاء رضينا، فلن يصيبنا إلا ما تشاء لنا.» فانخضّ الشيخ الهرم فاستغفر ووحّد.

لكننا ما كدنا نقوم من سجود الركعة الأولى حتى شق صوت قاسٍ خشعة الصلاة آمرا بالتزام الأماكن. تلتْه زخة رشاش في المصلى رجرجت الجدران وأرعدت المفاصل وأفزعت القلوب. فشخصت العيون إلى المحراب حيث وُلّي إسماعيل عن القبلة لا يأتي حركة بين يدي من طوّقه من الخلف شالا ذراعيه ليخلع عنه من كان ملثما عمامته ثم من شعر رأسه الأسود جذب إلى الخلف بيسراه وباليد اليمنى حز بخنجر ميداني إلى غياب النصل في النحر وأرخياه. فدار متهاويا في خضة واحدة شطر القبلة؛ كأنما ليكمل بقية صلاته.

فصعقني الشعور بنحْر الفداء ولكنْ من الأرض نحو السماء. وعلِقت عيناي مَن مسَح خنجره في عباءة الإمام فأفزعت في ذهني قامته وحركته وما بقي ظاهرا من عينيه، من خلف اللثام، شخصا ظننت أني عرفته. فقمت فأشهر الثاني مسدسه في وجهي فغلني القهر. ثم داسا صفوفا بدت لي أعجاز نخل. وغطى ثالث كان في الباب خروجهما بأعيرة من رشاشه أصابت الثريا. ففي جو الذهول ذاك قال لي بوركبة: هل هناك كفر أكبر من هذا».

كان الشيخ الهرم نزع برنوسه وسجى به إسماعيل. ثم أسمع المفتش حسن في لحظة وجومه واقفا داخل المسجد، الذي كان أمر بإخلائه: تلك هي الفتنة.» فخلجته نوبة صراخ قذفها إلى داخل صدره. وكشف، قبل حضور الضابط لخضر، عن وجه إسماعيل حتى صدره. فظهرت في جيب قميصه الداخلي العلوي، من تحت العباءة التقليدية الفضفاضة، ورقتان مطويتان لطخ طرفاً منهما الدم المتجمد راسما على صدره ما قال عنه لزوجته على شعور بالغثيان: يشبه غصن الجنة».

وكان لما فتحمهما، فطالعته في رأس الأولى دمغة الجماعة وفي أسفل الثانية ختمهم، عبّ ذعره. وقرأهما على عجل. ثم سلمهما إلى الضابط لخضر، إذ وصل، فقال له بصوت صخري: الآن وجبت المواجهة بما يترتب عليها من قذارة.» متذكرا لحظة تَداعيه في مكتبه على نبأ اغتيال أفراد دوريته في سوق المدينة الأسبوعية. وتحسر مستطلعا جنبات قاعة الصلاة الخاشعة: قبل أيام عرضت عليه حماية فرد علي بأنه لا شيء سيفتح قلبه للخوف من مخلوق.» فقال المفتش حسن معضوض القلب بناب الندم: كنت أظن أن رجل دين، مثل الإمام إسماعيل، تكْفل له الأخلاق الجماعية حصانة الحياة».

وفي قلب قاعة الصلاة، إذ كان يغادر، همس له الشيخ الهرم بصوت عميق: لم يكن للإمام أن يميل درجة واحدة عن مذهبه أمام التهديد! لا أنت ولا الضابط لخضر كنتما تعيان معنىً لقبوله بالاختلاف حتى مع عليان غير المتفقه المشحون بما يحسبه عقله

البسيط منهج دعوة! اعلم أن من يتولون شؤون الدولة يتوهمون أنهم قادرون على معرفة ما يتحول في قلوب الناس وما يعتمل في مشاعرهم فيخططون له ويراقبونه ويُعدون لمقاومته بقول أو بعصا وسلاح.» فترامت إلى ذهنه وجوهٌ ممن وقعوا في قبضته من الجماعة فتثبتوا على يقينهم خلال الاستنطاق أو قاوموا حتى الموت أثناء الاشتباكات المسلحة التي كانت تقع في المدينة وفي ضواحيها رافضين الاستسلام.

6

فقد كان المفتش حسن لا يزال تحت وطأة تثبيطٍ لمقتل الإمام لما خابره الضابط لخضر أن بين يديه شخصا يدعى سعادة ولد عافية يزعم أنه قابل منفذي عملية اغتيال الإمام؛ لأن المنور نفسه كان رصدهم يخرجون من بيت أمه يوم الجمعة فأخبر ميمون الذي توجه إليه وهدده بالتبليغ عنه إن لم يسارع بنفسه إلى الضابط علّه يخفف عنه.

وفيما كان يتأهب للخروج من مكتبه دخلت عليه عافية نفسها منفعلة: أنت الوحيد من يخفف عني ويلتي في ولدي سعادة! الضابط لخضر لا يرحمه.» فهدأها وطمأنها ووعدها بأنه سيفعل إن هي أدلت له بما تعرفه عمن قتلوا شخصا جليلا مثل الإمام إسماعيل. فتحصّنت له بأنهم داهموا بيتها وأجبروها هي وابنها على إيوائهم. ثم حبسوهما وهددوهما بالقتل إن بلغا عنهم، في الوقت الذي كان ابنها سعادة

اعترف بأنهم قضوا ليلة الخميس إلى منتصف نهار الجمعة في بيت أمه.

ولما ذكّرها بأن الإمام إسماعيل منع أخاها شرْعاً أن يخرجها من بيت زوجها المتوفى، مدعيا عليها أن له دينا عليه، بعد أن ألزمه بالإتيان ببيان الاكتتاب أو إحضار الشهود العدول، لانت مترحمة على روحه. وقالت بفزع: لما قدم لهم سعادة العشاء تعرّف على لحول وبوروينة! كانوا خمسة. أحسست بالموت عندما دخل علي ولد فلّة في المطبخ وأخبرني أنا وابني أنه سيطهر المدينة من طغاتها. ثم وضع في يدي دراهم وأوصاني بأن أوصل إلى أمه فلّة أمانة لما لمستها خمنت أنها حُلي ذهبية. هو الذي حمل بيديه الكسكسي بالدجاج الذي حضرته قبل منتصف النهار كما أمروني في الصباح».

فيما راح سعادة يروي للضابط لخضر كيف قضى ليلة مرعبة. كلما غفا خلالها وقف عليه شبح لحول ونظر إليه بعينين من نار. ثم نط فوق صدره زاعقا. ورقص بحربة نارية ثلاثية الرؤوس، تشبه ما كان رآه على أغلفة كتب الرصيف، ما لبث أن غرسها في قلبه فخرجت من ظهره.

وقال له: ثم رأيته، كما كنت أشاهده أمام ورشته بنظرته الصامتة المتوعدة، ومعه بوروينة بوقار وكأني لم أعرفه آثما! كانا تحولا لي، كما الثلاثة الآخرين، أشباحا مشعّرة فراحوا يدخلون من فمي ويخرجون من دبري. فتمنيت لو أن رأسي كانت مزودة بزرٍ ضغطت عليه فطرد النور صورهم من ذهني! أمه فلّة هي التي خيّرت أمي بين إعانة منه إن استقبلت ضيوفه وبين ما لا نحمده منه إن رفضت.

فاختارت لهم دجاجة ذبحتها بيدي فريّشتها وحضّرت عليها المرق».

فإنها كانت تلفّعت بثوب من الإطراق إذ دخلوا في حذر كابس يحملون أسلحتهم النارية. ففتشوا كل ركن في البيت. ثم طلب لحول قهوة وماء دخل بهما عليهم سعادة فأفزعته أسلحتهم، التي كانوا وضعوها عن أيمانهم جالسين. فاستطاع أن يلاحظ أن قطعة لحول تشبه تلك التي يحملها الدرك، فيما قطعة بوروينة مما عند كثير من الفلاحين للصيد ولكن محشوشة الماسورتين.

غير أن ما كان أفزعه أكثر من ذلك خنجرُ لحول الميداني، يحمله على الجانب الأيسر من حزامه العسكري. فتصور نفسه برقبة دجاجة أمه. لذلك تعثر إذ رجع فأبصرت على وجهه غشاوة من الموت. فلم ينطق لها متلمسا نخْره متحسسا بطنه متألما.

وفي المرحاض، وهو يُفرغ ما في قبُله ودبره، عصفت به نوبة بكاء على حاله: ليتني كنت تزوجت قبل أن أموت.» فترددت في سمعه وقوقة دجاجة أمه، التي قاومت بين يديه حتى وقد ربط قائمتيها ثم أخرج لسانها ومخره بريشة انتزعها من جناحها ليبقى خارج منقارها. وجمّد حركتها بقدمه. ثم كبّر وحزّ حزة كادت تفصل عنقها عن رأسها فتصير جيفة. فبصّر من حوله ثم ردد مستنكرا: وبعد؟».

وارتعد رعدة اهتزت منها كتفاه وانخاط لها صدره إذ رأى نفسه ذُبح فتخبّط خبطاً إلى أن برد في دمه. فتذكر أن الديك أشد من العتروس نفسه ومن الكبش مقاومةً لموته نحراً؛ شاهد ذلك من ديك

أمه الذي أصيب بهوس مطاردة الدجاجات الحاضنة. فذبحه بإسناد منها. ثم تراجع عنه وتأمله كيف قام وجرى فتعثر ناشرا جناحيه باحثا عن هواء إلى أن غلبه رأسه المشدود ببقية من رقبته المحزوزة فسقط منحردا على التراب.

ثم أضافت له: قضيت ليلتي في المطبخ ولم يخرج ابني سعادة من غرفته، كما أمرنا ولد فلّة. وعلى صوت أذان الجمعة خرجوا من عندنا فسمعت سيارة أقلعت». ثم تنهدت وأجهشت: لما ذا الإمام إسماعيل؟ ما ذا فعل لهم؟» فأسندها بكأس من الماء وصرفها. ثم جلس حاضنا وجهه براحتيه وتنهد متأثرا.

فقد طفق وجه الإمام الجميل يتشكل في ذهنه بما كان رواه له عنه والده، المريد لشيخ الزاوية، محدثا إياه عن إشعاع روحه ونباهة عقله الفذة قائلا له: كلمني عنه الشيخ فقال: دخل الزاوية طالبا فخرّج القرآن ثلاث مرات فانتقش في قلبه وسكن سمعه. إذا كرّر أحس ما حفظه ينهمر انهمارا بسوره المائة والأربع عشرة وأحزابه الستين وأجزاءه الثلاثين؛ من الفاتحة إلى البقرة إلى النساء إلى يوسف، فإلى الكهف إلى مريم فإلى طه إلى يس إلى محمد إلى الفتح والنصر إلى الإخلاص إلى ما بين الذي قبلها إلى آخر ما بعدها».

ثم استوعب المتون والمدونات فزاده ذلك قربا من شيخه وأنزله عنده منزلة التابع البار فقال مرة لوالد لاله حسناء إذ زاره يسأله أمورا شرعية: عندي لابنتك البكر فتىً من طينة نقية، ذو نسب شريف، مجبول على العلم والورع! لو أني رزقت أنثى كنت زوّجتها

رجلا مثل إسماعيل».

حتى إذا كان عاد إلى بيتهم، في عطلة ما بين محرّم وعاشوراء، وأخبر والديه أن شيخه أجازه وسرّحه عمّت الأهل والجيران وأصدقاءه القدامى فرحةٌ عظمى. فختموا سلكة القرآن وأطعموا وحمدوا وشكروا وعقدوا حلقات الحضرة فأنشدوا. ثم رفع أحد كبارهم الفاتحة وقال: إسماعيل، زين فتياننا جميعا.» لأنه تعلم مثلَ أولادهم بالتوازي والتناوب بين الكُتّاب وبين المدرسة الابتدائية.

ولما أفصح لهما عن عزمه على العودة إلى المدينة ليتولى الإمامة في مسجدها بحث والده الكفيف عن وجهه بيدين راعشتين فرحا قرّبه منه فشد عليه بقوة شوق وقبّل رأسه. فاستغفر منه الله واعتذر بدمع في عينيه آخذا يده يقبلها. ثم حضن رأس والدته المتأثرة وقبّلها على جبهتها وهمس لها أن شيخه يريد له واحدة ذات حسب ونسب. فتأملت في وجهه المليح لحظات ثم قبّلته على جبينه راضية.

فإن عرسه كان من أجمل أعراس القرية؛ لولا أن أباه فارق الحياة شهرا بعد ذلك. فرحل بعروسه وأمه، التي لم تطل بها الحياة سوى عام بعد ذلك، ليحل ببيته الصغير، الذي لم يلبث فيه إلا شهورا، لينتقل إلى سكناه التابعة لوقف مسجد المدينة حيث تولى الإمامة.

7

وبينما كان الضابط لخضر يذكّر سعادة: قلت لي إنك تستطيع أن تتعرف على الثلاثة الآخرين إن رأيتهم مرة أخرى.» حضر المفتش حسن فهمس له: عرضت عليه مجموعة صور فلم يحدد أيا منهم.» ثم عاد إلى سعادة وسأله: ما ذا تختار؟ تعرف الآن ما ذا ينتظرك أنت وأمك.» فرد مرتبكا: لست متأكدا. ولكني رأيت مرة في قهوة الساحة شخصا يشبه أحدهم. سأفعل ما طلبتم مني.» فصرفه وجلسا إلى بعضهما يتشاوران في القضية.

فلم تكن سوى أيام قليلة حتى ألقي القبض، في مقهى الساحة نفسه، على من كان ينتظر اتصالا تأخر عنه. واقتيد مكبلا إلى زنزانة مهيأة. فاعترف لهما أن أن اسمه مراد. وأنه طالب جامعي سابق قطع دراسته لأسباب عائلية بعد وفاة والده. وأقر لهما أنه كُلف أن ينتظر في

القهوة شخصا يتعرف عليه من كوفية يضعها حول رقبته كان سيسلمه مبلغا ماليا من جمع التبرعات وأموال الزكاة. وقال: كل ما فعلته أني أقمت الحراسة يوم مقتل الإمام. ولم أشارك في الفعل المباشر».

فتوعده الضابط لخضر بصوت قاسٍ: يا سافل، اغتلت إماما أمام عشرات الشهود.» وقبض على أخمص مسدسه الآلي مرشوقا في حزامه. فنطق فزعا: كنت أرابط خارج المسجد. لحول هو الذي ذبح الإمام.» فسأله بشدة عمن أصدر الأمر. فأجاب مهزوزا: كثيرا ما تلقى عليان أوامره من الشيخ الأزرق فحولها غالبا إلى لحول. في يوم تلك الجمعة انتظرَنا عليان عند مدخل الغابة ولاقى لحول بالثناء فأراه الخنجر قائلا: بمثله من الأسلحة تقام الدولة الجديدة».

لكن المفتش حسن، تنفيذا لإستراتيجية الاستجواب التي وضعها مسبقا مع الضابط لخضر، تظاهر له بعتاب قائلا: كيف سمحت لنفسك بأن تكون تحت سلطة من هو أدنى منك مستوى ودراسة؟» فكسر نظراته رادا بصوت متقطع: لا أدري. أنا آسف على ما لقيه الإمام».

ثم أصغي إلى وقع خطوات تباعدت عنه، مثل النور الذي غاب عنه نهائيا. فأضاء في خاطره بريق من شاطئ البحر حيث قضى عطلته الصيفية الأخيرة مع خولة، وقد مالت على رأسه جالسين على الرمل يقرأ رواية بوليسية. فشم عطرها وتنشق رائحة جسدها. وسألته بحرارة أنفاسها ضاحكة إن كان وصل إلى صفحة حل عقدة

الجريمة. فتحفزت فيه النشوة وخفق قلبه بألف حلم.

ثم هوى إلى غور لحظة قراره إذ جاء خولة ليقول لها في مكتبة الجامعة: يجب أن يتوقف الذي بيننا.» من غير أن يمهلها ردا. ثم غادرها ملتحقا بمن كان ينتظره واقفا على استعداد فدائي فقال له: وجب النهوض مع الجماعة لأن شهادة الإله أعظم من شهادة وثن».

وردد في عمق صمته بكمد: آه يا خولة! أي حماقة، وأي متاهة.» فدخل عليه المفتش حسن وحيدا وجلس في وضعية تقاطع معه على كرسي قائلا له: إما أن تقر لي بكل شيء فتنجو بجلدك. وإما أن أتركك لضابط لا يعرف استعمال الوسائل اللينة.» فنظر إليه نظرة متشككة سريعا ما حالت إلى الاستسلام. وقال، فيما دار محرك كاميرا مهيأة في العتمة خلف زجاج نافذة صغيرة في الجدار المقابل:

عرفت لحول في مشغل الحدادة الذي تنازل له عنه لزعر، شقيق سيف الدين، قبل أن يختفي من المدينة. فصار سيف الدين يزور لحول، عشية كل خميس، فيقضي الليل عنده. وفي الصباح يغادران إلى مسجد جامع في بلدة مجاورة لحضور الجمعة، التي كان يؤمها الشيخ الأزرق. ثم يشتركان في تداريب رياضية قتالية يشرف عليها لزعر، في إحدى الغابات المجاورة. وكان سيف الدين هو الذي يوزع الكتب والأشرطة والنشريات، التي كانت تصل لزعر من المشرق أحيانا ومن أوروبا أحيانا أخرى، قبل أن يختفي هو أيضا بعد مقتل لزعر قرب العاصمة ضمن أفراد مسلحين من جماعة التكفير.

ولما وصلنا في مساء تلك الجمعة إلى مغارات غابة زوج قبور،

حيث ينتصب مركز الفتح، أشاد عليان بنصر الله قائلا لثلاثة مرضى عادهم؛ كان أحدهم يعاني من أنفلونزا حادة والآخران مصابين بالتهاب في مجرييهما البوليين، مشيرا إليه: لولاه لقضيتم نحبكم! وبارك له وللحول وبوروينة غنيمة عيادة المدينة من أدوية ووسائل جراحة أولية وكمادات وقطن وأمصال وإبر حقن.

وكان عليان أهدى نصر الله مسدسا رشاشا، لأحد الدركيين الذين شارك في اغتيالهم في السوق، فثارت غيرة لحول. وكان نصر الله وثلاثة آخرون من الجماعة على غير وفاق معه حول ممارسة التنكيل. لذلك حقد عليه، وصار يترقب زلة منه ليصفيه. فيوم فشل أول كمين نصبه في الطريق المحاذية للغابة حمّله المسئولية؛ لأن ما تم توقعه هو أن يكون الدركيون في سيارتين، كما هي عادتهم. لكنْ بعد اندلاع الاشتباك تبين أن أربع سيارات أخرى كانت تسير وراءهم على تباعد. فقتل ثلاثة في دقائق حُملوا خلال الانسحاب ودفنوا عند أول توقف.

قال لي نصر الله مرة، فشاع ذلك بين أفراد الجماعة، إن عليان زوّج أخته البكر للحول ليحكم به سيطرته على الجماعة. كان العرس أقيم في مركز الفتح. فدخل بها في خيمة أعدت للغرض. وصارت ترتحل معه، مثل أزواج الكثيرين في الغابات وبين الجبال ومن مركز إلى آخر ومن مخبأ إلى ملجأ يقمن بأعباء النار والطبخ قبل أن يبيح عليان، عن أمر أصدره الشيخ الأزرق، سبي الحريم وتسخيرهن. فانفجر مركز الفتح ابتهاجا على طلقات رصاص قطعها عليان إذ

خرج غاضبا وقال: أولى بالذخيرة صدور أعدائكم! ثم رجع إلى مخبئه الذي كان دخله بفتاة وسيمة سباها له لحول من بيت فلاح معصبة العينين مكممة الفم، لم يردّ على صرختها في المغارة سوى الصدى.

ولما تغيب عليان مرة أوهم لحول تلك الفتاة بأنه أطلق سراحها. فترددت فدفعها. فركضت فلاحقها وقبض عليها، فيما كان نصر الله على مسافة منه فأصدر أمرا لمن كان معه بألا يتحرك. وزحف إلى أن ظهر له لحول يغتصبها. ولما قام عنها تظاهر لها بأنه يطردها. فلمّت نفسها وجرت خطوات فتعثرت. ولما استقامت مزقت ظهرها رصاصات من رشاشه.

لكن صاحب نصر الله ما إن برز له لحول حتى أخبره أنه سمع صراخ امرأة تلاه صمت أعقبته طلقات رشاش. ثم اقترب منه وهمس له شيئا في أذنه. فأشار لحول إلى مرافقيه بتطويق نصر الله. وانتزع منه سلاحه. ثم أصدر أمرا إلى صاحبه بربط يديه وراء ظهره. فصرخ نصر الله وبصق في وجه لحول قائلا: أنت مريض مجرم وخنزير! فلم يرد عليه. واستل خنجره الميداني، الذي كان المسيو عبد الله أهداه إياه. وأمسك بذيل شعر نصر الله الطويل. ثم ضرب على بطة ساقه بركلة قوية أبركته وحز. فتفجر الدم من نحره قبل أن تبلغ الأرضَ ركبته الثانية. وقلبه برجله على ظهره. وأطلق عليه رصاصات في صدره أهمدته. ثم أمر بردمه مع الفتاة.

ولما رجع عليان ساءل الشهود. فذكروا أن الخائن كان هاربا رفقة الفاسقة، وأنه بادر بإطلاق النار فأُردي معها. ونظر إلى لحول

فتحسر له متندما على أن الفاجرة هي التي كانت ستخبر بالحقيقة. فتبسم وقال: إنما أردت أن أسمع، لا غير.» وفض المحكمة مظهرا مطاوعة للحول خشية أن يتألب عليه. فإنه حذِر جانبه مذ أدرك طموحه إلى السيطرة على الجماعة؛ بما أظهره من قسوة في العقاب وشدة في تنفيذ عملياته. فاستمال بذلك أفرادا لا يعصون له أمرا ويتكتمون عليه. لكن لحول كان بعد أيام عوض له تلك الفتاة بمعلمة في سن العشرين كانت تتنقل إلى مدرسة نائية، وأهداه إياها. ففاخر به. وغض عنه حتى في ما ألحقه بأخته من قبيح الكلام ومن الهجران.

وكانت الجماعة كلها علمت أن عليان نقل أمه إلى العاصمة حيث اشترى لها بيتا. وثمة تقرب من الأزرق فصاهره بأخته الثانية زوجا ثانية له. فتقوى وصار مهووسا بارتفاع وتيرة العمليات واطراد عدد القتلى. وأهاب كل مرة بالمنفذين. وردد لهم شعارا حفظناه: ما فتّ في أركان دولة طاغية مثل أن يشعر من ترعاهم أنها عاجزة عن حمايتهم! ولما رأى مرة آثار التبكيت على ملامح أفراد من الجماعة، إثر عودتهم من عملية لم تستثنوا خلالها النساء والأطفال، عدّل من مزاجهم ببلاغته الآسرة ممرهما مشاعرهم قائلا: لا تثريب عليكم! ثم حرضهم على أن العقاب الجماعي ليس سوى واجب لقطع نسل الفجار.

أنا، كنت لا أُظهر أي عداء أو عصيان للحول خشية أن يصفيني! فإنه سبر درجة إخلاصي له مرة بأن دس لي، بعد مقتل نصر

الله، من جاءني ليقول لي عنه إنه ليس أهلا للمسئولية لأنه لا شرف له. فرددت عليه بأني لا أضع في الميزان شخصا أنا ملزم بطاعته. وبعد مشاركتي في سبي فتاة أخرى، دخل بها لحول، عاد إلي ونصح لي قائلا: أستطيع أن أساعدك على تحريرها تبرئة لذمتك لأن لحول لا يشبع إلا إذا كانت له في كل منطقة امرأة يتمتع بها، فأنت لا بد أن تكون أنِفت من هذه الحياة التي تجمعنا مع الوحوش! فأجبته بأني التحقت مخيّرا لا مضطرا لتأدية الفريضة الغائبة. فتهيّبني وقلاني.

لكن لحول ظل يبحث عن سبب به يقضي علي، كما صفّى باتفاق مع عليان أكثر من واحد التحقوا من الثانويات ومن الجامعات؛ خوفا من ارتدادهم. فإنهم كانوا يحرجونه هو وعليان نفسه بأسئلتهم. لذلك وضعني محل اختبار لسبي امرأة شابة حُددت ليلة دخلتها موعدا للهجوم على عرس أقيم في بيت بضاحية المدينة. ما حدث هو أن أحدا ممن شاركوا في العملية لم يكن يتوقع رد الفعل المسلح العنيف الكثيف. علمنا في مركز الفتح، لاحقا، أن والد رشيد، الطيب بن العربي، هو الذي نسق الرد. كان لحول يريد أن يتم استدراج المقاومين من الجهة الأمامية إلى مطاردة من كانوا مكلفين بالمناورة. فلم يتم لقم الطعم. فانسحبنا بجريحين ينزفان. وفي الطريق شتم الأفراد. فاستنكرت منه ذلك فصفعني فحاولت الرد فحال بيني وبينه من كان مكلفا بمناورة الاستدراج. فهو الذي أخبرني جانبا بعد وصولنا إلى المركز الملغمة مداخله أنه حدس أن المناورة كانت لفتح الطريق بصدورنا كي يصل لحول إلى العروس.

لم أكن أتوقع أن يصل لحول ذروة هوسه لتصفيتي إذ أشار إلي في يوم تال أن أنزع خنجره المرشوق في التراب النديّ، بفعل رطوبة نهاية الشتاء. ففعلت وانتظرت. فأمرني أن أذبح عسكريا فتيا وقع في الأسر، خلال اشتباك مع قافلة من الجيش. فأحسست السماء تهاوت فوق رأسي وشعرت بدوار ثم بغثيان. لكني تماسكت إذ تذكرت موتي.

كان عليّ أن أريح العسكري المسكين صاحب الوجه الحسن من موت شنيع قاسٍ وبطيء، مثلما وقع لرجل أمن ضبط في أحد الحواجز فقيّده لحول من يديه ورجليه بسلك ورش بالبنزين كامل جسمه في صمت. فصرخ: اقتلوني بالرصاص! اذبحوني! ثم أشعل فيه النار وأجبرنا على متابعة الاحتراق الذي التهم قبل كل شيء أثر صياح رجل الأمن لتفوح بعد ذلك رائحة اللحم البشري المحرق. ففار الغثيان في البطون وتقيأ أكثر من واحد، بينما فقد اثنان وعيهما».

فقد خالط نبرةَ صوته نقْع حسرة إذ أضاف: فكرت في إفشال عملية اغتيال الإمام بطريقة ما، فلم أستطع! جبْناً؟ لا أدري! أقول لنفسي الآن: لو كنت في اللحظة التي فكرت فيها بإفشال العملية أشعر بإنسانيتي فعلا لقتلت لحول ثم مت بعد ذلك! لكن».

ثم سكت لحظات مكبا على رأسه بين راحتيه قبل أن ينطق بانكسار: اعتبر عليان إصرار الإمام على موقفه الرافض إذنا بحرب على الدعوة! كان قبل اغتياله بأيام وقف له، في طريق عودته إلى بيته عقب صلاة العشاء، مع أربعة ملثمين مسلحين، كنت من بينهم.

واستمالَه قائلا: كن لنا عضدا في تحطيم أوثان الدولة الطاغية! إننا لا نلمس في خطبك وأحاديثك ما يدعو الناس إلى قيامهم لتغيير ما هم فيه من جاهلية! فاستعاذ بالله ثم رد رزينا واثقا: أحدث بما أراه الصواب وأخطب في الناس بما يطمئن قلوبهم ويجمعهم ويوحدهم! فحذره متوعدا: قد أنذرناك! فقال: عبد مثلي لا يخشى سوى غضب خالقه! فتولى عنه إلينا وأمر أحدنا أن يقيّده. فهمس له لحول: ولو كان هذا أمامهم جميعا وفي محرابه؟ مرْ وأنا أكفيك التنفيذ! ثم رجع إليه وقال: سيأتيك امتحاننا الأخير مكتوبا».

ثم رفع بصره بدمع وأجهش: كان يكفي الإمام إسماعيل أن يقرأ في خطبة تلك الجمعة صفحتين سلمتهما بيدي شيخا هرما كان يدخل إلى صلاة الفجر ليبلغهما إياه».

فرد المفتش حسن: وصلتا ودمغ عليهما بدمه».



الفصل السابع

1

ففي فراغ الشقة وعمق الليل شعر رشيد بحزن حاصب عصر قلبه. فضم قبضة يده على وجعه، كما قبض بألم، قبل ثلاثة أعوام، على البرقية العاجلة، التي كنت أرسلتُها إليه وسلّمه إياها عريفُ المداومة في غرفته بالثكنة، عائدا إلى المدينة.

فإنّ السكون من حوله كان غائرا غور صمت بيتهم بعد المذبحة، أشبهَ بسكون غرفته بالثكنة وبصمت الطاولة الحديدية التي وضع عليها صورا لأبيه وأمه ومبروكة فأجهش كابسا ألمه بضربة من قبضة يده على الجدار وتلحّس الدم السائل من تمزُّق لحمه ثم خرج إلى حقل الرماية الذي خرق سكونه بصيحة حنقٍ مفرغا في الهواء ثلاثا وثلاثين رصاصة من رشاشه في دوران حول نفسه يحس جسده طينا تيبس فتصدع.

ومن لحظتها طفق إحساسه يتنامى بما تشكل به كل الحقد على من نكبه في أهله: عهداً مني يا نجاة! لن أخطئه.» ومن قبل كان طحن للزهرة بين أسنانه يودعها: ملأت قلبي بما فاض من تراب قبورهم كيلا أنسى».

فلم يكفّ ساعة، طيلة ثلاثة أعوام، عن امتضاغ ألمه إلى أن رغى في أعماقه صراخ الثأر. فخرج ليلا تحت التساقط، قبل ثلاثة أيام، وشمّع بالدم على باب قتيله. وردد: إلهي، أنت من لا يظلم خلقه».

ثم تخيل الذي وقع كيف وقع. فالتهبت مشاعره بأمكنة تواجد أمه وأبيه وأخته لحظة الرعب. ما ذا نطقوا كيف سكنوا لموتهم. "كأن يداً ما حملت أختي الصغرى فوضعتها فوق الخزانة لتشهد على هول المذبحة».

كذلك اختصر ليزيد، إذ زاره ليعزيه في غرفته داخل الثكنة، عازيا له الجريمة في حق أهله إلى نزعة الغل تزرعها خطابات اليأس قائلا له: تركتهم نياما في قبور.» فواساه بأن شد خفيفا على ركبته. فرد طاردا من صوته حزن النبرة: طلْعتك عزاء كبير ومسرّة لقلبي».

فخلال الوقت الذي كانا قضياه في الثكنة استعادا كثيرا من تذكارات صداقتهما؛ فقد قال ليزيد: ثمانية عشر شهرا على آخر لقاء بيننا في الجامعة.» فرد عليه: ومضة! كأنها أمس.» فأضاف: علمت فقط أنك سافرت إلى الخارج». فأكد له ذلك شادا على يده ناظرا في عينيه ببريق من الحزم: لا أزال صديقك! اعتمد عليّ في أن يلقى المجرم جزاءه.» فترجاه ثقيل الكلمات: أريد أن أفعل ذلك بيدي.»

فأمسكه من زنده: أمض لي على ورقة وها أنت في مركز تكوين القوات الخاصة لتتدرب على أساليب ملاحقة سفاح مثله! وستجد من يسندك. يجب أن تعاقبه بشرف الرجال».

فتكفلت الأيام بأنْ أهمدت فيه سوْرته فانثنى شيئا فشيئا عما رسمه للثأر من فلّة ومن أقارب الضالعين في المذبحة؛ ليس فحسبْ بفعل وازع غائر في وجدانه أراه في لحظات تأمله داخل غرفته بالثكنة أنه سيكون أحطّ شأناً من القتلة، ولكنْ أيضا بما أثاره فيه وقوف والده عليه في منامه خلال أيام متقطعة بلباسه العادي مرة ومرة بلباس الفرسان ثم الجنود وأحيانا في ثياب لا يتذكر منها شيئا مشيرا إليه بسبابته: إياك أن تمدّ يدك لتأخذ بريئا بذنب غيره».

فخرج من ثكنة ودخل أخرى فتدرب على ضمان البقاء لنفسه في كل الظروف ليواجه عدوّه. فاكتشف في المركز المتخصص دلالة أخرى لصيرورة رجال يذهبون نحو الموت ويقتلون بدافع الواجب، بلا حقد.

كان وهْمه كثيرا ما صور له قبل أن يرى بعضهم مقتولا في العمليات الخاصة، التي شارك فيها، أنهم فوق المنون! حتى إذا سأله مرة رقيب الفرقة المنتمي إليها لما ذا اختار طريق الموت أجابه: لأتعلم كيف أقتل.» فسكت عنه؛ لأنهم رجال لا يتكلمون كثيرا.

لكنه حرص على أن يحفظ ليزيد عهده بأن يتجنب موته قدر ما استطاع، ملزما نفسه بأن لا يقف على جثة قتيل أو ينظر في وجه جريح أو أن يقابل أسيرا ممن يسقطون من الطرف الآخر. وجعلها

مثل وصية من ذلك الرقيب الذي قال له مرة أخرى، خلال عودتهم من إحدى العمليات: الفعل الميداني وحده يُقسي القلب بالقدر الذي يُنزل التردد في القتل إلى درجة الصفر».

ثم انتظر ثمانية عشر شهرا أخرى أن يأتيه إشعار بوجود لحول في مكان ما فيذهب في اتجاهه. فجاءه يزيد وأخبره: سيصدرون في حقهم عفوا عاماً ابتداء من الغد إنْ هم وضعوا السلاح وأعلنوا توبتهم.» فشعر بتراب الأرض طمره. وشد على جبهته يقاوم ارتجاجا. فأضاف له: تلك هي السياسة؛ فن التنازلات! لكني ما زلت على عهدي».

فزم شفتيه وتبسم هاشا رأسه بعلامة مَن لا يصدق. فقال له: ما أعلمه عنه أنه لا يزال حيا كثيرَ التنقل من منطقة إلى أخرى. وسجّلُه في مصالحنا ملطخ بأكثر من سبعين عملية نفذها هو وجماعته في أماكن متفرقة أحصينا ضحاياها المقتولين عدّاً ثلاثمائة وثلاثا وسبعين بين رجال ونساء وأطفال وأعوان أمن من مختلف الأسلاك وكذا أجانب متعاونين تقنيين.» ثم أخرج له مسدسا من عيار كبير وسلمه إياه قائلا: عربون صداقتي لك! الآن لم يعد لك ما يُبقيك في هذا المركز. سنلتقي بالتأكيد.» فتردد لحظة ممسحا نظراته بوجهه اللطيف قبل أن يمسكه رافعا إليه نظرة مقاتل: أشعر أني سأخترق جدار الخيبة.» ثم خرجا معا.

وفي الشقة التي دعاه إليها كاشفه بعد العشاء أن قدره خطّ له أن يكون ضابطَ الأمن العسكري في جبة الطالب في العلوم

الاقتصادية. ومازحه بأنه تجنب أن تكون البطالة مصيره. وسأله ما ذا كان سيفعل طالب مثله تخرج بشهادة في الترجمة. فأجابه مبتسما: كنت أنتظر منك إشارة للالتحاق بك.» فرد عليه: لولا أني أعرفك ذا قناعات لا تتوافق مع مؤسسات قمعية.» فلاطفه: ولكني مُعافى تماما من أعراض المَرَضية العسكرية.» فضحكا.

ثم اعتذر له: لم أسألك عن الزهرة. كيف حالها؟ بنت رائعة! احذر أن تعتقد أني نسيتها.» فطمأنه على أثير من لحظات تلك الأيام الزاهرة: أبدا! ذلك لا يحدث بين الأصدقاء. لكن يجب أن تعرف أن الزهرة كانت تنوي أن تباشرك عن أختها زبيدة.» فظاهر دهشته: زبيدة الصغيرة! ليتها كانت انتقلت إلى الثانوية! شغلتني أسبقيات كثيرة عن الالتفات إلى مَن حولي من أصدقائي وأصدقاء أصدقائي القليلين! أنت تقدّر ذلك».

على أن صداقتهما لم تكن تميزت بما هو صاخب أو منحرف نحو الشذوذ والمخدرات وأقراص الحومان والهلوسة، كما هو سائد غالبا في أوساط مجموعة من تلاميذ الثانويات تجد نفسها في النهاية هوت إلى غور التصعلك، أو نحو التقوقع في جو الجماعات المنظمة ضمن خلايا شبه سرية، تستحم في فيض من الرؤى التكفيرية للانتقام من المجتمع المنعوت لها بألف سوء وخطيئة.

فإن يزيد كان ذا أريحية نابعة من نفس جميلة ولكن ذا طموح متأجج؛ على بنية جذابة بقامة معتدلة وملامح وسيمة متكتمة وعينين تختزنان طاقة اختراق ونظرات تمسّح الفضاء في لمح من التيقظ المتوتر،

مثلما هي عليه هيئة أعوان الأمن العسكري غالبا. لذلك، فإن كل شيء كان بدأ يوم اقترح عليه أحد أساتذته مقابلة شخص وصفه له بأنه مهمّ، لم يكن سوى ضابط في الأمن العسكري عرض عليه الانخراط قائلا له: البلد في حاجة إلى واحد مثلك في أكثر الأسلاك الأمنية كفاءة وفعالية وشهرة، مقابل امتيازات مثل الراتب الشهري المعتبر والسكن والترقية السريعة والتكوين العالي للقيام بمهمات خاصة.» ثم راح يسرد عليه تفاصيل من حياته الشخصية ومن مساره الدراسي وحتى من مسؤوليات والده في الخزينة العمومية.

قال لرشيد بابتسامة عريضة: أنت تعرف. واحد من تلك الامتيازات كان كافيا أن يغري أي طالب جامعي، إن لم يكن يغويه بالنفوذ واستعمال النفوذ بمجرد أن يتسرب عنه أنه من الأمن العسكري.» فرد عليه: حصل ذلك منذ الانقلاب العسكري الذي وقع ثلاث سنين من عمر ميلاد أولى جمهورية جزائرية من خراب الحرب.» فلم يعلق. وأضاف: ما رجح عندي ذلك الخيار هو شعوري بأني أستطيع أن أقدم شيئا للبلد. وامتزج ذلك عندي برغبة حقيقية في وضع نفسي على محك التجربة وليس بدافع نزوعي إلى المغامرة».

وكان ذلك الضابط جاءه بعد أيام وأبلغه أن العقيد بونيف يطلبه. وأخبره أن بنته نزهة نفسها سترافقه إلى البيت. فنظر لحظتها إلى ورائه بعمق سنتين كاملتين، مستعيدا شتاتات من وجه طالب طالما رآه في الندوات الساخنة وشاهده في التجمعات وعلى هامش

المظاهرات وقاطعه في ساحة الجامعة أو في المطعم وأحيانا في النادي أو خلال فترات الدخول والخروج من معهد التاريخ المجاور لمعهد العلوم الاقتصادية من غير أن يثير انتباهه بشيء خارق قبل أن يتلاشى عنه.

فتذكر محمد الشاوي، قبل ذلك، هلوس له عنه في الثكنة: يزيد لم يُستدع إلى الخدمة العسكرية مثلنا ولا أعفي منها! لما ذا؟ لا أعرف! منذ سنتنا الثانية، صار يختفي عن الأنظار. ثم يظهر. لم أعرف طالبا مثله، من دفعتنا، وضع دراسته في مقدمة اهتماماته! لكنه برغم نفسه الطيبة تحصّن دائما بالحذر والتحفظ».

وتمضمض لذكراه؛ لأنه قبع في وعيه دلالةً على فعل القتل العبثي. قال له مرة: خلال عملياتنا الخاطفة في مواجهة أفراد الجماعات الأكثر قتالية، لم أنشغل أبدا بالبحث عمن أقتل ولما ذا ولا عن مبرر لموتي أنا إن كنت قُتلت».

2

وحمله، في السرير لنوم تعذّر عليه، صفيرُ القطار الليلي إلى داخل المحطة. فتوسم له وجه الزهرة واقفة أمامه تسأله، يوم عودته الثانية إلى الجامعة، سببا واحدا لاختياره تخصصا كالترجمة. فأجابها: حلمت دائما بأن أنقل إلى الآخرين شيئا مما في اللغة العربية من جمال ومن جهد إنساني.» فعلت وجهَها مسرة. وبعد يوم كانت أرسلت له نسخة من رسالة مطولة مخطوطة بيد جدها عن والده إلى الحاكم الفرنسي ليبادله بأسلحة وذخيرة سبية فرنسية من صف عال وقعت في قبضته بعد مقتل حرسها إثر كمين نصبه لقافلتها، كاتبة له: وما ذا لو بدأت بهذه الرسالة التي تتحدث بشكل مدهش عن أخلاق رجالنا وفروسيتهم! وسطرت له تحت فقرة منها "وأعدك بشرفي أن تعاد إليك أسلحتك وذخيرتك إن كانت الأسيرة بعد تسليمها شكت أمرا مما يمكن أن يكون ألحق بها في جسدها أو في ضميرها أو في

معتقدها طيلة الأشهر الستة التي قضتها ضمن حريم بيتي الشخصي».

فكتب لها أنه سيفعل ذلك ضمن سلسلة مقالات تاريخية إن تحقق له المشروع. وأضاف: عائلات جزائرية كبيرة كثيرة عاشت ميسورة فأحطّ مقامَها ظلمُ العثمانيين طيلة ثلاثة قرون. وتلاهم الفرنسيون بأنواع القهْر والهوان قرنا واثنين وثلاثين عاما. تصوري! أكثر من أربعة قرون من الانحطاط والعبودية! وبرغم ذلك لم تنطفئ شعلة المقاومة التي حملها أيضا فرسان الشرف الذين كانوا يجوبون البلد متخفين عن أعين الرصّاد لينزلوا بين حين وحين صواعق على من استولوا على أراضي الأهالي من الأوروبيين وممن نصبتهم الإدارة الفرنسية حكاما محليين في الأرياف والقرى يأخذون منهم ما استطاعوا ويتلفون مخازنهم ويسوقون قطعانهم ثم ردوا الكثرة من ذلك على الفقراء.

فإنه كان ما حلت مجاعة أو انتشر وباء إلا ظهر فارس بسرعة الريح يطوي المسافات فينزل مع فرسان آخرين بغنائم على المعوزين ثم يغادر كظل سحابة. فغنّته النساء في الأعراس ومواسم الغزْل والنسيج. وتندر بأخباره الرجال والفتيان في مواسم الحصاد والجني والزيارات. ويوم قُتل بخيانة من امرأة كانت صاحبتَه اهتزت الأرجاء ومشى في جنازته مئات المشيعين.

وقبل اشتعال حرب التحرير بتسعة أعوام كان نجله العربي اقتحم، بجسارة الفارس، بريد المدينة للاستيلاء على أمواله لولا أنه

صادف دركيين في صحبة "القايد" فصرع أحدهما وهدد الثاني بسلاحه، فيما تمسك القايد ببرنوسه مذعورا خلف الدركي، وخرج عيناً خلفه وأخرى أمامه. ثم امتطي حصانه راسما خط عجاج في اتجاه الغابة.

ولما كانت حرب التحرير دخلت عامها الثالث نزل ابنه الطيب من الجبل جنديا فباغت نجل "القايد" ليلا في منزله وخيّره بين الموت فورا وبين أن يخط بيده ميثاقا بالقسم على تنفيذ ما سيصدر إليه من أوامر. ثم أخذ منه مئونة ومالا ورسالة خطية بيده إلى بوركبة مسئول الجبهة على الناحية.

كانت الزهرة رفعت عينيها عن الورقة بوقار سيدة مستعيدة أصوات كلمات سيد تحس روحه أشرق فخرا عوضاً عن جميع خساراته. ثم كتبت له: حدّثني الوالد هنا في المكتبة، وكان يشرح لنا فصلا من كتاب حول الولاية والنبوة، أن شيخ الزاوية خبأ سي الطيب بن العربي في بيته جريحا إثر معركة. وذكر لنا أن السيدة روزا لما وجدت سكينة لقلبها عند الشيخ سألته مرة في لباس الحشمة كيف تتخلص من التثليث إلى التوحيد. فأجابها أن كل شيء بدأ بكلمة كنْ منبع كل إيمان وتجلِّي إرادته؛ فنفخ في رحم العذراء من روحه وأسند قلبها وأغدق عليها رُطبا. فنذرت له صوما فقرت عينها بمن كلم أهلها في مهده فحقّت كلمة كن. فإنه خالق الرحم والنطفة هو الصمد. ثم قرأ عليها من البقرة ومن آل عمران ومن النساء ومن المائدة ومن مريم. وختم لها بالإخلاص. فخرجت من مقامه طيبة

النفس. ثم عادت فأشهرت إسلامها وتسمّت باسم نورة. ثم قضت فدُفنت في مقبرة المدينة!

كانت الرومية الوحيدة التي رفضت مغادرة أهلها العرب، كما ردت على الفارين من الأوروبيين في نهاية الحرب بعد أن كانوا أحرقوا الزرع وأبادوا المواشي وفجروا المباني ثم تهارعوا إلى الموانئ والمطارات. ويوم تسلمت الوسام من يد بوركبة بحضور سي الطيب بن العربي، اللذين شهدا لها على نصرتها لحرب التحرير، تكلمت بما أصاب الحاضرين بتأثر عظيم قائلة: لم أقف سوى ضد عدوان قومي على من صاروا أهلي. لم أطلب رد أي جميل. ولا طمعت في زائل.» فبكى بعضهم. وقام الطيب بن العربي متأثرا فقال: حملني الشيخ مع بعض طلابه إلى بيتها مجروحا فعالجتني قبل أن أنقل إلى الزاوية من حيث عدت إلى الجبل ليلا. زوجها جوزيف هو الذي كان يحمل إلينا في زورقه أسلحة وذخيرة لما غرق». وسكت مغلولا بتذكاراته.

وكان الإمام إسماعيل لما عاد من تشييع جثمانها حدّث أهله أن الشيخ، الذي أم صلاة الجنازة، كشف له أن نورة تبيت ليلتها في قبرها على نور فيأتيها ملاك السؤال فينظر في وجهها فيقول: أنت التي زدت أمة محمد اسما؟ فتجيب: أجل! فيقول: ازددت رضاً منه. شفع لك في ما تقدم من ذنبك».

ثم جاء الإمام إسماعيل بعد ذلك إلى بيت الطيب بن العربي القديم وقدم له عقدا موثقا من روزا توصي له فيه بمسكنها المكون من ثلاث غرف وجنينة وزريبة وبمبلغ مالي كان حوّله كله إلى

الزاوية. ثم وزع على المعوزين أثاثها الذي دخل عليه. ولم يُبق إلا على مصحف ولوحة زيتية تُصور معركة حسِب نفسه، كلما نظر إليها، أنه شارك فيها. وتذكر أنه كان، خلال لحظات هذيانه من ألم جرحه، يتوهم أن روزا هي التي ترسمها كأنها تراها بعينها! ثم أنزلها ذات يوم وغلفها في ورق وأرسلها مع رشيد في عامه الدراسي الأول هدية لمعلمه.

3

شبك أصابعه تحت رأسه، لا يجد الرغبة ولا الحركة في إطفاء النور، ناظرا إلى صورة صاحبة الشقة المعلقة في إطار بين شهادتين أمامه في الجدار المقابل، مشدودا إلى وجهها يشبه وجه نزهة الباسم؛ تماما كما كانت لاقته فأخبرته أن يزيد حدثها عنه كثيرا وأبلغته اعتذاره عن عدم حضور عرضه في قاعة المحاضرات حول مسألة الفرد والجماعة، بدعوة من جمعية طلبة علم النفس الاجتماعي. ثم قالت له لما خرجا: موضوعك مغرٍ بالجدال! لكن يزيد حذرني منك حتى في المواضيع التي ليست من اختصاصك! قل لي كيف تخوض أنت طالب الترجمة في موضوع يخصني أنا طالبة علم النفس».

ونزلت ثم صعدت بنظرتها عبر قامته المتوسطة العامرة وركزت وجهه الدائري الهادئ. فأحسها، بذلك القوام الباهر، طوقته

بطاقة مغناطيسية تنبعث من حركة ملامحها الضاحكة ومن صوتها الممتلئ.

ثم دعته إلى مقهى النادي فأبدت له أنها لم تستوعب كلامه عن أن الجزائري، عبْر تاريخه، سُلب منه ما جعله لا يستطيع العيش خارج الجماعة فصار الذعر خاصية في ردود أفعاله المطبوعة غالبا بالانفعال والمزاجية. وقالت له بعد لحظة بياض: لكن كلامك اقترب من الشعري عندما اعتبرت أننا نشعر بيتم الضياع في هذا العالم لا نرى لنا غدا لأن حاضرنا مظلم».

فرد عليها بهدوء مؤكدا: لأنه أربكنا دائما أن نسأل ذاتنا إلى أين نتجه! تصوري إنْ نحن قسنا مدى عمق ذاكرتنا في ماضينا! سنجده ينحدّ بدخول العثمانيين أو بنزول الجيوش الفرنسية الغازية في شاطئ سيدي فرج! لذلك تُظلم في وعينا معالم الذهاب إلى ما هو أبعد، ونشعر بالقفر الموحش من حولنا حين لا نُلفي راسية حضارية قائمة نسند إليها وجودنا الزماني. وإن نحن حفرنا عن أثر مرورنا في التاريخ وجدنا ذكر الآخرين الذين احتلوا أرضنا أو فتحوها من الفينيقيين والقرطاجنيين وغيرهم مرورا بالرومان وغيرهم إلى البيزنطيين إلى العرب وانتهاء بالفرنسيين! ذلك ما يسبب الإحساس بالتمزق في الوجدان والشرخ في الذاكرة. كأننا وُجدنا لنكون هذا الإنسان اللاتاريخي الضال بحثا عن أناه».

فظلت ساكتة ساكنة لا تفك عنه نظرتها المتسائلة المعجَبة قبل أن تحسم: حكمك قاسٍ جدا! كأنك تقول إننا مغتربون.» فرد عليها:

لم نعرف الحرية فعلا! فحتى الحرب التي خضناها، لنكون أحرارا، رُهنت نتائجها. وصودرت أهدافها. وأهدَرت قيمَها العقليةُ العسكرية التي نزل بها الضباط السامون من الجبال. نظامنا كله أسس على تلك العقلية التي سنّت، بدل شرعية تلك الحرية، شرعية تاريخية ثم ثورية وأخيرا دستورية نهض بها عسكريون في ألبسة مدنية. ورفع شعاراتها مثقفون حالمون. وصاغت بلاغتها بيروقراطيةٌ حزبية، قبل أن تحدث الرجفة في خريف ثمانية وثمانين ليتهاوى صرح الوهم، كورقة دلب، ومعه آخر شعار مهلْوس رفعوه عاما من قبل: دين واحد، شعب واحد: حزب واحد».

كانت نزهة في حال اندهاش حقيقية تجده لا يشبه من قالت له عنهم إنهم لم يبصموا ذاكرتها بأثر، مستثنية له يزيد لفطنته الثاقبة. ثم بسطت له راحتيها مترجية: يا سيدي، هوّنْ.» فتساءل لها بنبرة ودية: لما ذا وُجهنا في هذا البلد الذي، منذ استقلاله، دخل في حال ترانزيت إلى وجهة مجهولة؟» ثم نبهها إلى أن قهوتها بردت في يدها.

فوضعت الكأس فاتحة عينيها على وسعهما ناطقة باستفسار: لا بد أن هناك سببا.» فأجابها: قُطاع الطرق الجدد من الساسة والمتنفذين الذين لم يروا يوما في هذا الوطن شيئا ناضجا إلا ما ينهبونه من مقدراته العامة.» فضحكت هاشة على ساعده قائلة: يلزمهم الفطام عن ضرع الصحراء ليتحول ريع نفطها وغازها وبقية خيراتها إلى الملكية العامة».

تقرب وجهه منها كأنه كان سيهمس لها وقال: يخيفهم الفرد.

يزعجهم الهامش. قضوا أكثر من ربع قرن يخطبون في نكران الذات لتنصهر الجماعة في البلادة ويبقوا هم الأسياد. كتلةُ نفايةٍ نحن؛ هكذا نظروا إلينا دائما.» فرفعت يدها راية بيضاء مشرقة الوجه باسمة فمازحها: حتى ولو كنت ابنة عقيدا فهذه قناعتي. والدي هو الآخر نزل من الجبل قبل أكثر من ثلاثين عاما بالتصور نفسه، بالتأكيد.» ثم طمأنها: ولكنه ليس ضابطا. ودّع السلاح والبزة بعد نهاية الحرب جنديا بسيطا». فأمسكت على ساعده تدفعه بلطف نحو باب الخروج قائلة له بغبطة: ولهذا حذرني منك يزيد».

ففي مئات الخطى التي قطعاها جنبا لجنب، في ممشى ساحة الجامعة بين أشجار نخل هجين، حدثته عن نفسها على رائحة مطر نزل. وكشفت له أنها كانت تجهل كل شيء عمن يوصفون في محيطها بأهل المدن الداخلية، وهو نعت لم يكن يعني سوى البداوة، قياساً إلى أهل العاصمة. ثم أدارت إليه وجهها قليلا فرد عليها بأنه لا يشعر بأي نقص.

وقال لها على حركة أقدامهما المتناسقة: أتصور أن من يقولون ذلك ليسوا جميعا مِن حضرِ العاصمة ولا حتى من المدن العصرية الكبرى التي بناها المعمرون ثم أخْلوها في نهاية الحرب ليعمرها من بعدهم المعسكَرون في ضواحيها والمحشورون في المحتشدات بين الأسلاك الشائكة والنازلون من الجبال والزاحفون من الأرياف والمهاجرون العائدون من خلف الحدود الشرقية والغربية ومن رفعوا السلاح يوم وقف إطلاق النار، ولكنْ أيضا الضباط وكبار الضباط

والجنود النافذون. فكانت العاصمة ذاتها، باستثناء القصبة العتيقة، أعظم غنيمة عقارية».

فاستوقفته لحظة وخاطبته بصوت ثقيل: أحب أن أصحح لديك صورة عسكري مثل أبي.» فطمأنها على أنه ليس مصابا بأي حساسية تجاه العسكر، فيما كان التساقط يغسل الممشى الطويل الممتد من مدخل الجامعة إلى بناية المكتبة المركزية. فأبدت له رضاها وهمست محومة بعينيها في الفضاء المغيم: نزول المطر رذاذاً ظل يغرقني في حنين رومانسي إلى طفولتي. كنت أتسمر من خلف زجاج نافذة غرفتي أرقبه يداعب حشيش حديقة البيت فتشرق بلاطات الممرات. وظل عصْف الريح، وهو يهيّج الأشجار، يثير في نفسي شوقا إلى شيء مجهول».

ثم سبقته فجأة بخطوتين ووقفت له ناظرة في عينيه تخبره: والدي برتبة عقيد فعلا.» فلم يندهش فحملقت فيه باستغراب. فاصطنع لها تقديم تحية عسكرية. فضحكت مفسحة له. لكنه لم يتحرك وقال لها مبتسما: يبدو أني تورطت. عقيد فعلا؟ وما زال في الخدمة».

فردت على سحنة هادئة وبصوت جاد: أبي واحد من الذين يعتقدون أن زُمر النظام تتعايش، كلما توصلت إلى إجماع حول مقاسمة الريع بين أجنحتها. وفي حال الفشل تدخل في اقتتال ضارٍ؛ سرّي تارة وعلنيّ تارة أخرى، مسخرة الشعارات السياسية والدينية والأخلاقية المبرنقة حتى ولو أدى ذلك بالمجتمع كله إلى الصدام».

فلم يعقّب عليها متجنبا استدراجها. فأضافت: وظل يؤلمه أن يجد بلدٌ، خاض حرب تحرير طويلة ومدمرة، نفسه معتقلا بين حدود سجن بمساحة تزيد على مليوني كيلومتر مربع».

فلاطفها: كيف نتحرر من سجّانينا؟» فأجابته مشيرة بإصبعها إلى أعلى صدغها: السجّان قابع هنا، في ضمائرنا».

4

فلما أطفأ النور تمثل له طيفُ يزيد يقول له في ذلك العشاء: لمخالطتي العسكريين نسيت تماما أني أتحدث إلى مدني من غير تحفظ.» لأنه كان كشف له أن الدعوة التي تلقاها من العقيد بونيف كانت لاختبار نيته وسبر مدى استعداده لاختراق صفوف الجماعة، التي كانت انتقلت من استعراض قوتها في الشوارع والميادين والساحات إلى تنفيذ مخطط إقامة شرعية دينية بالقوة على أنقاض الجمهورية. وأضاف له: شاء لي قدري أن أكون في خط المواجهة الأمامي يوم صار كل شيء ممكناً تجنبه إلا الصدام الدموي».

وحدثه أن العقيد بونيف تمشى معه بعد الغداء خطوات في حديقة البيت، تحت نظرات نزهة تراقبهما عن بعد، وسأله عبورا عن أوضاع الجامعة. وقبل أن يغادره أعلن إليه ببرودة أنه، منذ نهاية

الحرب، لم يوجه سلاحه إلى صدر أحد. ولكنه من أجل نزهة، لن يتردد.

وقال له: فلما أخبرتها بذلك ابتذلت لي الأمر معتبرة أن قلبه هو الذي تكلم؛ لأنه ظل لا يجد غيرهما هي وأمها رفيقتين له وسط صخب الأصدقاء الذين لا يجمعهم إليه سوى الانتفاع من نفوذه. كما ظل يخيفه أن يقترب منها شخص بدافع غير شريف في مناخ يسوده النفوذ والمال والابتزاز».

ووصف له تلك العلاقة العاطفية، التي ربطت بونيف إلى زوجته، بالعجيبة الملغزة؛ يقضيان غالب وقت فراغهما في البيت داخل الحديقة أيام الصفاء يتحدثان بين شجرتي ليمون كعاشقين يضع يده على ركبتها وتأخذ هي يده الأخرى في يدها! ويوم همس لها برغبته في إرسال نزهة إلى فرنسا في منحة دراسية صمتت طويلا. ثم تذرعت له بأن ضابطا مثله، خاض حرب تحرير بنجاح وبشرف، ملزَمٌ بأن يراعي عواطف محيطهم الأصلي ومشاعر معارفهم الذين أهانهم المحتلون الفرنسيون، كبقية الجزائريين طيلة ستة أجيال، وخلّفوا فيهم جراحا عميقة تستلزم مدة مساوية لمدة الاحتلال كي تندمل.

وأخبره أن ما جعل السيدة خديجة تعترض هو أنها مصابة بالتصلب الشرياني، فخشيت أن تقضي وحيدة. وقد رفضت قطعا أن ينقلها إلى فرنسا للعلاج، رادة عليه بأنها لن تدنس جسدها، بعد أن اغتسلت في الأرض المقدسة.

تزوّجها بونيف عقب نهاية الحرب يتيمة، ولكن من أسرة عريقة ميسورة. فلم تنجب له سوى نزهة بعد سبع سنين من علاج خضع له لاستدراك نقْص في هرمون الخصوبة لديه. فتحملت بصبر السيدة الفاضلة ما تفرضه عليها علاقات ضابط عسكري سامٍ من أتعاب صداقات أرهقتها. وسهرت على سلامة نزهة ودراستها.

وقد عُرف شخص بونيف مثالا في الأوساط العسكرية؛ لأنه كان من الضباط السامين المخضرمين القلائل الذين لم يدنسوا شرفهم العسكري. واجه مشكلات علاقاته بحدس الفلاحين الراسخ في أن غيرك من البشر إما ثعلب أو حمْل.

فتنهد في سكون ظلمته لصوت يزيد يأتيه مرة أخرى من غور بعيد: هناك يد ما ساقتني كي أعرف نزهة فأتعرف على والدٍ لها مدهش بصفائه الذي حفزني على أن لا أتردد في قبول المهمة. لا أعرف عسكريا مثله يستطيع أن يقول لك اليوم: عشت أحلم بأن أرى جيلا جديدا يتصور لهذا الوطن مستقبلا أفضل وأكبر مما تصورناه نحن».

ما بهره في يزيد، سلامة طويته! فقد ذكر له، وكأنه يتحدث إلى رفيق في المهمة، أنه سلك آثار طلبة التحقوا بشبكة بيشاوار عبر الشرق الأوسط. فتلقى تدريبات في كندهار، تبيّن أنها كانت تجري تحت قيادة خبراء أمريكيين لإعداد مقاتلين ليس لجيش نظامي عادي وسائل مقاومتهم. وثمة تعرف على شخصين يدعيان الزبير وخالد؛ أظهرت التحريات أنهما يسميان الأزرق وعليان سكنا المدينة من قبل

وأشرفا على تجمعات العصيان المدني لتقويض نظام الدولة. ثم أراه صفحة من جواز سفر عليها تأشيرة بلد عربي وابتذل له: ليس فيه سوى أثر على أني أديت عمرة! ثمة تترك جوازك لتتكفل بك جمعية خيرية تنقلك إلى أفغانستان عبر باكستان بأوراق هوية أخرى مُعَدة للغرض وحين عودتك تستعيد جوازك».

وباح له أنه ملك أدلة على أن المدعو عليان تحرك، خلال العصيان، بأموال مختلفة المصادر. بعضها جلبه معه لدى رجوعه مما قيل عمرة. وبعضها مما جمعه في إحدى العواصم الأوروبية من بعض المهاجرين الذين يحضرون حلقات ذكْر يحدّث فيها دعاة، من بلدان عربية وغير عربية، عن الصحوة وعن مواتاة إعلان الفريضة الغائبة في الجزائر. ومن تلك العاصمة جاء للأزرق برسالة من شخص يدعى علاء الدين، تم العثور عليها إثر مداهمة، يوصي له فيها برعاية السيد جون بول، الذي كان ما إن نزل حتى قصد أحد المساجد وأعلن الشهادة فتسمى باسم عبد الله. وفي العشاء الذي أقامه الأزرق في بيته على شرف "المسيو عبد الله" أصدر إلى عليان الإذن بتأمين وصوله إلى "معسكر الفتح" قائلا له: الأوروبي أقدر مَن عرفه صديقنا علاء الدين على مساعدتنا في التدريب على الفنون القتالية الحية وأساليب حرب العصابات».

وفي مركز الفتح نزع المسيو عبد الله عنه لباس أهل البلد التقليدي، وشمّر على زنديه الموشومين، وارتدى الهندام العسكري المموه، وتمنطق بخنجر ميدان ومسدس من عيار كبير، وراح يُخضع

أفراد الجماعة كلهم إلى مسلك المقاتل؛ مما تتدرب عليه الفرق الخاصة من جري وقفز وتسلق وزحف ومبارزة بالسلاح الأبيض ورماية ومن أنواع الصيحات يطلقونها حين يهجمون ومن إعداد الكمائن ومن أساليب الانسحاب والتغطية والتمويه وزرع الألغام.

بعد شهور، وبناء على معلومات من عبد العزيز، الذي كان يزيد دسه للأزرق، فاجأت فرقة خاصة بقيادة يزيد نفسه المسيو عبد الله عند نقطة ساحلية قريبة من العاصمة يشحن صناديق الأسلحة النارية الهجومية مع أربعة من مرافقيه، الذين لسرعة التدخل الخاطفة لم يستطيعوا استعمال أسلحتهم. فكُبلوا ونُقلوا للاستنطاق.

وكان المسيو عبد الله حاول أن يتخلص بإخراجه حزمة أوراق من العملة الصعبة. فلم يرفع إليه يزيد نظره قائلا له: أنت تعقد وضعيتك أكثر.» ثم استجوبه ببيان مفصل عن حياته المدنية والعسكرية وبالعمليات التي شارك فيها مرتزقا في أكثر من جهة في العالم. فلم يجد غير أن يعرض تعاونه، فيما أرسل عبد العزيز إشارة تُعلم أن الأزرق أوفد إلى عليان مَن أخبره أن هناك مساعي أخرى حثيثة لجلب شحنات أخرى.

5

وهز شعورَه السؤال الكنود عن الموت كيف يقضي مدة تجنيده في مهمة إدارية بينما كان مجندون وجنود عاملون يسقطون قتلى في الاشتباكات والكمائن أو يُغتالون في زيهم المدني، متذكرا محمد الشاوي الناجي من الهلاك، وكان مثله في الخدمة العسكرية ربطت بينهما صداقة لم تدم طويلا؛ لإصابته في اشتباك مع إحدى الجماعات. كان كثيرا ما حدثه بأسرار من حياته. وقرأ عليه جميع رسائل صديقته فضيلة، التي قال له عنها مرة: إنها وطني».

وحدثه عن نزهة قائلا له: عرفتها بواسطة فضيلة التي كانت زميلتها في الدراسة. كلمتني عنك بإعجاب وكنت لا أعرفك. هي التي أخبرتني أن نزهة خرجت معك فدخلتما إلى السينما وأكلتما في بيتزيريات». فأكد له مبتسما على نبرة هزلية: وأدخلتني البحر فعمت معها.» فصاح: مثلما ادعت لي فضيلة ولم أصدقها.» فراضاه: نزهة فتاة

طيبة.» فتراجع: لا أشك في ذلك! لكن ما زرع الوهم بوجود علاقة بينك وبين نزهة، كما لمحت لي فضيلة، هو أنك قضيت سنواتك الجامعية بلا صديقة. وكنت أعلم أن يزيد صار عديم الظهور في سنته الرابعة إلا نادرا. تعرف؟ ثارت حوله شائعات وصلت حد الزعم بأنه يسافر إلى الخارج تحت لواء منظمة سرية ذات توجه ديني تُعد في باكستان وأفغانستان مقاتلين لإسقاط نظام الدولة».

فأراه مشطا ومقصا صغيرا وقال له: أكاد لا أهتم إلا بقطع سن من أسنانه كلما قطع مني شهر هنا في هذه الثكنة جزءا من حياتي.» فاقترب منه هامسا: الآن عرفت! ما اسمها؟» فأجابه برضا تام: الزهرة! ومن البْلاد».

فهمس له كأنه سيكشف سرا: يجب أن أقول لك إن فضيلة هي التي عارفت بين نزهة وبين يزيد في المكتبة المركزية. ولا أخفيك؛ فضيلة كانت مجذوبة بشخص يزيد. لكن ما قرّب نزهة أكثر من يزيد هو فطنته وطموحه وهالة تحفظه في الكلام عن السياسة ونظام الحكم وأفعال السلطة حتى معها هي نفسها! فصادقته. وكانت تهديه، بمناسبة وغير مناسبة، كتبا نادرة وغالية الثمن في الاقتصاد والاجتماع والتاريخ الإسلامي مشدودة إليه لأسلوب حياته التي يعيشها في شبه عزلة عن الآخرين».

وضحك. ثم أضاف: من حظي أن نزهة أخذت يزيد من فضيلة ودعته إلى فسحة في المدينة. وبعد أيام صارحتها بأنها وجدت فيه الشخص الذي حلمت به. وأفضت إليها أن ما أفاض كأسها

مراقصته إياها في حفل زفاف مختلط كانت هي التي دعته إليه. وقالت لها إنها أحست لأول مرة في حياتها كونها امرأة بين يدي رجل إذ همس لها في أذنها أنه يستطيع أن يحب واحدة مثلها برغم سطوة أبيها».

وفي جوف ليل بارد من ليالي الثكنة الطويلة البائسة المشحونة بالخوف روى له، وهو يتأهب للقيام بمهمة تمشيط عند الفجر ضمن وحدة خاصة بحثا عن مجموعة كانت نصبت قبل يوم كمينا لدورية فاغتالت أفرادها جميعا واستولت على أسلحتهم، أنه رأى نفسه مرات مات قبل أن يكون حقق شيئا استثنائيا في حياته وتضخم ذلك لديه يوم تسلّم أمر الالتحاق بالثكنة. وأضاف في حوَمانٍ: قبل سفري بليلة، منحتني فضيلة ما تحتفظ به البكر لدخلتها. كان ذلك أجمل ما سيتنفّسه جسدي على الدوام. قالت لي إن ما أحسته هي سيظل محفورا في جسدها مثل وشم.» ونظر إليه في شرود فقال له: ليس هناك شيء يظل جسد يذكره مثل تلك اللحظة العنيفة والمؤلمة حد اللذة.» فمد له يده قائلا بفيض من الغبطة: أنت صديقي».

كان محمد الشاوي، بالنسبة إليه، شخصا غير عادي تمنى لو عرفه أيام الجامعة! فكل شيء وجده فيه يجري بسرعة الضوء. وقد حبّبته إليه غرابتُه في حسم القضايا بقطعية؛ كأنْ يحب الإنسان فهو سويّ أو لا يحب فهو معتوه. أو كأنْ يكون قادرا على القتل فهو مؤهل أو ألاّ يكون فهو يعاني قصورا يعرضه للزوال.

عبّر له عن شيء من ذلك إذ جادله في أن كل شيء في الوجود في مكانه، وما كان الفراغ إلا ليُملأ. وقال له: ونحن نحس الفراغ

لأن الله هو المحيط! أما الاختلاف فلم يكن إلا ليحدُث التفاضل الذي لا يعني سوى الانتقاء.» ومثّل له بحركة بديهية: إن لم أكن أنا فعل ذلك مع فضيلة في تلك الليلة فغيري كان سيملأ فراغي، وكانت فضيلة ستجد غيري مختلفا عني لأنه أرقى مني. الطبيعة التي أنضجت ثمرة فضيلة كانت ستنتخب من يقطفها في حينها».

فرد مبتسما: أوافقك من حيث الشكل، كما يقول الحقوقيون، ولكني أسألك إن كنت ترى نفسك وسط غابة.» فضحك مغتبطا: غابتنا؟ نعم! ثمة لابد أن تقتل غيرك كيلا يقتلك وبفظاعة تفوق كل وحشية.» فلاطفه بصوت مسرحي: لأن ساستنا رفعونا إلى درجة أدنى قليلا من الحشرات.» فاصطنع له ارتعابا: أرجوك، لا سياسة! سياستي ووطني فضيلة! وهي دولتي الفاضلة.» فتصافحا ضاحكين.

وفي الليلية الموالية لعملية التمشيط سأله، بين وقْع عنائه من الحملة وبين تأثره مما شهده، عن معنى الموت. فرد عليه محرَجا بأنه لا يفهم قصده. والحقيقة أنه كان يشعر بتبكيت لذهاب محمد الشاوي نحو الموت بلا سؤال ليعود من ميدانه بألف انكسار. ثم نطق له متجهما: ربما هو مرادف الاختفاء خجَلاً من هذا العالم».

لكن محمد الشاوي أسند ظهره إلى مخدته لصقا بالجدار وثبت عينيه في سقف الغرفة الباردة زائغ النظرات قائلا بصوت حسير: في نهاية الاشتباك وقفت على جثة قتيلٍ كان قائد العملية أمر بمقص ونزع عن وجهه شعر اللحية الكثيف المطلق، مثل ثلاثة على الأقل من الخمسة المقتولين، وأشهر في يده ورقة بها صور تحتها أسماء

للمفترضين الذين يكونون، حسب الاستعلامات، شاركوا في عملية نصب الكمين للدورية. ثم استدعى الجنود للتعرف عليهم قبل نقل جثثهم إلى مستشفى المدينة لاستكمال إجراءات تحديد هوية كل واحد. إلى ذلك الحد كان المشهد عاديا. لكني صُعقت، خويا رشيد، لما تعرّفت على عليّ! كان زميلي في الغرفة بالحي الجامعي. أشعر بالغثيان، خويا رشيد، لصورة موته الفظيعة! كانت عيارات الرشاش الثقيل هرّأت صدره. وكان اثنان آخران بلا وجهين تقريبا بفعل قوة الرصاصات القاتلة. كان باللباس الأفغاني وبشعر رأسه الطويل المضفور في جديلتين يثير الرعب النائم».

ثم استقام فجأة ناظرا إليه. كانت ملامحه غائبة. وقال له: ذات ليلة كنت عدت إلى الغرفة متأخرا فوجدته ينهي آخر جملة من بلاغ سرّي إلى الطالبات بالامتناع وجوبا وفورا عن الوقوف في طابور واحد مع الطلبة في الوجبات الثلاث وفي الجلوس إلى طاولات المكتبة مختلطين. أذكر أنه حاول كثيرا أن يستميلني إلى قضيته! ولكن أي قضية تلك التي يكون فيها المقتول عليّ والقاتل محمد؟ الشيء المحزن بالنسبة إلي أني أتصوره مات من غير أن يكون لمس بشرة امرأة.» فرد عليه ببرودة لا نبر فيها: هناك نعيم».

فنظر إليه متعجبا للحظات ثم رمى في الفراغ: افتخر لي دائما بأنه من نخبة دينية تملك الكفاءة لبناء دولة ذات نظام جديد، وكنت أحار في أمره كيف يكون هو الطالب في علم الأحياء على تلك القناعة بأن الدين هو الحل الجذري لمشكلات الإنسان العصرية!

كلمني عن العقل ووصفه لي بأنه مجرد محرك في الإنسان يولّد فيه طاقة نور الإيمان. ثم أمسكني من زندي وهزني قائلا بحدة: هذا النظام يجب أن يسقط بحد السلاح! كان ذلك آخر ما سمعته منه قبل أن أراه منذ ساعات في الجبل وعلى ملامحه الساكنة بقايا من براءة قديمة. أشك في أن يكون تذكر أنه يموت من أجل قضية لحظة اختراق رصاصات الموت جسده.» فرد عليه: من يدري؟ ربما أحس ما لم يتلذذ به في دنياه أبدا.» فزفر في صمت.

فتذكّر له بنقعٍ من المرارة ما كان حوّل الجزائر قبل عشرة أعوام إلى بازار لبضائع غريبة من ثقافة الكراهية وترويج تجارة الإحباط والتشهير للردة أمام إحساس غريب بالعجز عن تحريك إصبع واحدة لمنع التدهور المعمم الناخر.

ثم قال له: هيئت تربة الجامعة لزرع اليأس وتنمية الجنون في أوساط طلبة على وجوههم علامات الحاجة. فقراء المظهر ناقمون لا ينظرون إلى الأشياء إلا بقسوة. يتحركون ككتلة مغناطيسية جذبت كل تفاصيل العنف الذي انجرف إليه كثير منهم عُرفوا أيضا ببساطتهم ونجابتهم فتعطلت فيهم فجأة مشاعرهم الإنسانية».

فخرج محمد الشاوي من صمته وقال بنبرة متحسرة: عبث في عبث.» فرد عليه بصوت متضعضع: ذلك في جزء منه بسبب التصور الكافر لحل أزمة هوية معقدة تصيب شعورنا الجمعي بالشك في قدراتنا بفعل سلوكات من قلبوا مفهوم الدولة إلى مفهوم السلطة. لا رؤساء الجمهورية السبعة المتعاقبون ولا طواقمهم الحكومية سيّروا

المصالح بمفهوم الدولة، في ظل تقاعس تاريخي عما يقيم أسس دولة ذات نظام تداولي بسلطات منفصلة ومستقلة».

فناداه كأنه كان بعيدا عنه وحملق إليه قائلا بصوت متعب: خويا رشيد، هناك شيءٌ ما في قلبي أحسسته مات أردته أن لا يدفن في صدري.» فابتسم له: احفر له في عمق ليل هذه الثكنة الطويل.» فسأله في شرود: هل كتبت الشعر يوما؟» فأجابه بنفي. لكنه سأله لماذا. فبعثر بيديه في الهواء متهيئا للنوم: لا داعي!».

6

يوم وقف رشيد على محمد الشاوي في العيادة العسكرية ليطمئن على صحته، إثر رجوعه من عملية تمشيط ثانية بكسر في الذراع، مد له يده فشد عليها. فقرّب منه وجهه وهمس له أن يغفر له لحظات صمته عنه. فضحك له بدمع في عينيه وقال في سرحان: كيف أضم فضيلة بذراع واحدة؟» فمسد على جبهته مبتسما له: انشغل بنفسك لتستعيد عافيتك بسرعة. فضيلة في انتظارك فعلا.» فرف على وجهه جناح حزن.

ولما همّ بمغادرته استبقاه وقال له في شفافية نفسية: نجاتي من القتل حوّلت عندي قناعتي تجاه الموت. تعرف يا رشيد؟ لم أفكر من قبل أن الإنسان صورة وهمية لحقيقة لا ندركها.» وصمت لحظة ثم أشار إليه أن يقترب وهمس له: الآن أدرك أني تسرّعت مع فضيلة في تلك الليلة. كان يمكن أن أدخر ذلك إلى ما بعد تسريحي.» فوضع يده

على كتفه قائلا له بود: الشرع يبيح أربعا أبكارا.» فعصر من ألمه ضحكة ثم تعجب له: كيف أولد أربع مرات».

لكنه تنهد فعبرت وجهه غلالة حزن وقال له: رشيد، هل تعتقد أن الخوف لا يصيبنا إلا في وحدتنا، ولذلك يهون حين نواجهه جماعة؟» فواساه ضاغطا على كتفه: أتصور أن عليّ كان يعتقد أن الموت لا يدركه وسط الجماعة.» فهش برأسه ثم همس له مرة أخرى: كتبت لفضيلة وأعدت ما كنت قلته لها في بداية تلك الليلة: لن نحس شيئا ولن نعرف أننا متنا. إنما زرع الله المحبة في قلوبنا ليحس من أحبنا أننا متنا».

فانحنى وأخفت له: فعلا، كلما تذكرنا موتنا أحسسنا أننا ازددنا حبا لمن نحب! ولكن الموت الغاصب مؤلم وفظيع.» ثم وضع يده على رأسه الحليق ودعك خفيفا يمازحه: تريد تميمة لتهدأ قليلا؟» فنفى قائلا: أريد فضيلة.» فتولى عنه مبتسما فلاحقه بصوته الهادئ المفكر: خويا رشيد، ما أحرّ أن نموت وفي القلب حب كبير».

ولما كان بعد أيام يغادر الثكنة سلّمه مظروفا إذ فتحه في غرفته، وهو يتوقع أن يكون ما بداخله خطابَ وداع أو رسالة تنويه، وجد يده واثقة الخط والكلمات ترسم مشهد الموت الذي كان حوّل في نفسه رؤية الحياة بألقها إلى صيرورة عبثية محزنة. فقرأ ثم قرأ مرة ثانية «لم يكن بيننا وبينهم، كما أتصور، شيء مقدس نموت أو يموتون من أجله. ولكنْ، ألَمْ يكونوا يواجهوننا بإيمان لإقامة الخلافة فكنا نرد عليهم بمسؤولية لاستمرارية الجمهورية؟ لا أدري. إنما الذي كنت

عليه شاهدا هو أنه كلما تضرج واحد منا أو منهم في دمه أحسست ترابنا، نحن الطرفين، زفر أنينا وأسمعَنا صدى حماقتنا وقال لنا: خُطاة مذنبون! لم أعترف لغيرك بهذه الكلمات؛ فإنها دليل حكمٍ عليّ بالعقوبة القصوى. غير أني صرت لا أخاف أن أسمع صوتي حين أفكر في سؤالي عن الموت مذ رأيته على وجه عليّ. أظن أن عليّ كان يعتقد أن الذهاب إلى الجنة، عبر طريق الدم، أرحم من أن تستمر حياته وسط جحيم الظلم في هذا العالم».

فزفر لصوت الزهرة تردد في أعماقه كاتبة له في رسالتها الأخيرة: إنما نحن جئنا هذه الدنيا لنؤثث ظل الصورة الباهرة التي رسمتها القدرة الجليلة ليصير هذا الكون أجمل فنشرق بأنوار الفتنة! أنا كما أنت سنجد دائما في تخوم القلب مكانا بمساحة الدنيا يسع جميع أحزاننا».

فإنه تقلب في سريره لا يقدّر ساعة لليله. وتلمس مسدسه قرب يده على طاولة السهرية. ثم راح يستحضر مشاهد من البحر والغابة ومن السماء والليل؛ بحثا عن هجوع مفلت. ذلك ليس لتبدّل الفراش، فجسده تنازل للأسرّة المرضرضة مذ خرج من غرفة نومه في بيتهم آخر مرة قبل أكثر من ثلاثة أعوام، ولا إلى القهوة التي حضّرها بنفسه بُعيد العشاء الذي أعدته الزهرة، أو إلى خوفٍ مَا؛ فقد حسم أمره كيلا يقول أمام قاضي تحقيق أو وكيل جمهورية ولا أمام محكمة إنه نادم وهو يطلب التخفيف، بل إلى لهيب مفاجئ من الحنين إلى بيتهم، أيقظه في صدره نداءٌ غائر في روحه يستنهضه أن يعيد الحياة إلى

ما هلك من التذكارات المبثوثة فيه وفي ثنايا الجنينة وأطرافها.

فقد تراءى له أبوه واقفا فيها كعهده. وتمثلت له أمه انتظرته بشوق، وفي عتبة الدار استقبلته من عودته. فدخل فعطّرته رائحتها المخبوءة في زوايا الغرف، التي لم تبق واحدة منها لم يعبث فيها وهو صغير. فاختبأ لها حين يغضبها فما أفلت من قبضتها إلا نادرا لأنها علمت دائما جميع مخابئه. وغطت عليه لدى أبيه مرة إذ أصيب بالتهاب في عينيه لأنه تسلق شجرة التين وأكل من ثمرها قبل نضجه، ومرة إثر إصابته بنزلة برد حادة لعومه في حوض الجنينة في يوم خريفي بارد. فغمر حواسه سحر صوتها الممزوج بعبير أنفاسها وأريج صدرها وعرق ملابسها. وقابله وجهها مشرقا ابتهاجا به لدى أوباته من المدرسة ثم من الجامعة وأخيرا من الثكنة؛ كلما دخل عليها المطبخ انفتحت شهيته على قدْر ما يلتهم جبالا من المأكولات.

ولكنْ، هالَه أن تعرف في نومتها الأبدية أن ذلك كله اندثر وزالت كل رائحة لها في زوايا البيت.

ويا لحزنه! تظاهرا ممسكين مبروكة بينهما واقفين على حوافي قبورهم بين الصمت وبين الريح ينتظرون وصوله قادما من بُعدٍ ليس له طريق.



الفصل الثامن

1

لعلها كانت الساعة الأولى من الصباح إذ نهض رشيد من السرير الكبير، فارغ الذهن إلا مما يوصل إلى بيتهم، يحس رضرضة طالت جسده كله. فطوّف بالحيطان مطبقة بالصمت. ثم أدى في البهو حركات خفيفة ليسرّح من انقباض مفاصله. فاستنشق بقايا من رائحة الزهرة مغمضا على بسمتها تغمره بأوراق الورد تحت مطر منهمر ثم عانقته فضمّها وبخالص اشتياقه قبّلها وقال لها: أووه، شحال أنت دافية وشحال نبغيك».

ثم كتب كلمة على ورقة أسندها إلى خصر زهرية على طاولة مقابل باب الدخول وثبت مسدسه خلف خاصرته وخرج.

كان مفترق الطرق خاليا تماما! فرمى بصره هنا وهناك فارتد إليه بصمت الجدران كاسفة باردة. فلمّت على قلبه حسرة زفرها راميا

خطوته بسطوة قاهرة نحو بيتهم، في شارع كان قبل أربعة أعوام قد لفّه جوٌّ رصاصي وهو يغادره بفتْق في الروح، مخلفا وراءه مدينة كل شيء فيها خاله يهوي إلى مُتلف اليأس، تاركا ناسها قد أفِلتْ عنهم أمارات الانشراح، مبصرا بأطفالها سكن عيونَهم حزن المطر، وعلى وجوه نسائها انكسارات الانتظار القدَري؛ كأن بهجة الله كانت لن تشرق أبدا! فإنه لم يكن حمل في يده سوى أثر من دفء راحة الزهرة مشتتة الإحساس إذ قابلها فسلمها كتابا عن الحشاشين تذكارا لعيد ميلادها.

ومن الشارع نفسه، الذي كان قبل ثلاثة أعوام مشاه نحو المحطة آخر مرة وفي قلبه قرْح بطعم الحمض فرأى العابرين والواقفين واجمين بصمت التراب ولون الموت، تناهت إليه صكصكة صعود ستارة حديدية إيذانا بيوم جديد استهل طلوعه على جسمٍ قام من تكوّمه فوق الرصيف.

فلما انحرف إلى الشارع الثاني راوده أن يجرّب السير فيه مغمضا عينيه. واطمأن إلى أنه يستطيع أن يفعل ذلك إلى شارع ثالث ثم إلى النهج ذاته لتقوده رجلاه إلى باب بيتهم بغريزة حيوان لا يضِل. لكنه تعثّر بعد خطوات. فتصور نفسه فقد البصر؛ كذاك الضرير الذي طالما رآه يرفع هامته متحسسا بعصاه البيضاء طريقه نحو الساحة، فانفعل: وما ذا لو وجدت نفسك في لحظةٍ ما مُسختَ حشرة».

في شارع الاستقلال، وقف أمام باب الثانوية مغلقا صامتا، كمعبد قديم. فتاقت نفسه إلى داخلها، إلى ساحتها وقاعة مكتبتها

وأقسامها. وثارت فيه مواقعُ تذكاراتها كلها. وعبرت خاطرَه ومضاتٌ من مسرات أيامٍ كم بدت بعيدة زبدية! فإنه لم يطر، كبقية الناجحين فرحاً. وبقي متماسكا واقفا بإباء عزيز ليظهر للزهرة، المغمورة سروراً بفوزها، أن قلبه يسع فيْض البحر. فودّت، شاهد ذلك في رقصة عينيها، لو أنها ضمته ثم قبّلته! غير أنها شدت على يده فحسْب. وضغطت فضغط. فأصدرت آهة انجذاب.

حتى إذا ولج حي المحطة ثارت حواسه بألف تذكار. وتصعدت إلى مشمه رائحة طافحة من شحم قطار ركبه أول مرة قبل تسعة أعوام. لكنه تذكر أيضا قتيله يتهالك للرصاصتين! وقابلته مدرسته الأولى التي أصبح إليها في عامه الأول بلا مرافق؛ لأن أباه كان قال له قبل ليلة: الأطفال مثلك يذهبون وحدهم مثل رجال.» وكذلك ظل يشعر أنه نشأ مثل الكبار؛ فسكن بوركبة في ذاكرته وجها حقيقيا حيّاً، هو ذاته التاريخ الوطني الذي لم يتعلمه في مدرسته! فردد: أمثالك لا يولدون إلا كبارا! وأنتم العظماء آباؤنا».

وانتعشت في أحاسيسه مشاهدُ طفولته حيث جرى ولعب وخاض عراكاته وشجاراته مع أقرانه في كل الزوايا الضيقة والساحات الصغيرة. واحتفى قلبه بوقع خطواته في الطريق التي طالما مرت منها الزهرة فسار وراءها أحيانا تقطع السكة الحديدية نحو المتوسطة الواقعة خلف المحطة!

ولما ظهر له ما تبقى من حانوت السوسي، المغربي العجوز، المتآكل خاله انفتح على تلك الأراييج المنبعثة من القهوة والتوابل

والخبز والصابون والزيت ممتزجة في تَعطّر ساحر، كسحر أنواع الحلوى ذات الأشكال الكروية والطويلة بألوانها الصفراء والبيضاء والحمراء الموضوعة في بُقالات زجاجية مرتبة على جانب من المصرف الخشبي.

لكنه إذ خاض في النهج، الذي يقع فيه بيتهم، ختمت على شعوره لحظة مواجهته لحول في عمق الليل وتحت قصف الرعد وهطول المطر ملصقا القنبلة بقفل الباب محتميا بالجدار الجانبي هاجما في خضم الدوي مرسلا أمامه نور اللمبة اليدوية. فأضاء له الشبح من بين الظلمة والدخان قائما مغْبَرا فثبّته، فيما سمع من الغرفة الثانية صرخة امرأة دهمت أمامها شيئا وقع منكسرا. فأطلق ثم أطلق، في صمت، بلا تعبير. فانقذفت قطعة سلاح من يد الشبح. وتهاوت الجثة وسط النثار. وجاء صراخ المرأة من خلفه فظيع التمزق: لحوووول ولدي.» فلم يتزعزع متحسسا زر القاطعة مشعلا ضوء الغرفة. فظهرت الجثة تلفظ آخر رعدة وسط الدم. فوضع اللمبة في جيبه ورفع المحشوشة بيده اليسرى فصوّبها فجأة إلى صدر المرأة فلم تأبه واقفة أمامه تئنّ نادبة خديها قبل أن ترتمي على الجثة. فحوّلها عنها وأفرغ تعبئتها على صورة وساعة حائطية معلقتين في الجدار. فارتجت لهول الطلقتين ونحبت. فوضع فوهة مسدسه في رأسها راميا البندقية جانبا. فنظرت إليه مفلسة. فقال لها بصوت باتر: مفتاح باب الحوش.» فقامت بلا روح ولا وجه صامتة صلدة وواجهته تمثالا بلا دم ولا عينين.

يقيناً أنه وجد فلة لم تفقد كثيرا من رشاقتها ولا من وسامتها واقفة أمامه في ذروة ذعرها بلا صوت، وأنه استعاد وجهي فتذكر ما ربطني إليها. فنظر إليها نظرة مقاتل نفّذ أمرا وقد خسفت من على وجهه رسوم الطفل الذي كان زارني رفقة والده إلى مشغلي لإنجاز سجْنة للأرانب. فظهرتُ له في سترة عملي رب ورشة مَهيب. وبدا له المشغل أكثر حقيقة مما كانت تصوره سندات التعبير في مدرسته وأجمل من رسوم تلك السندات؛ فقد كشف لي يوما أنه لذلك أدهش معلمه بوصف إنشائي عن تلك الزيارة! ثم انتظر طويلا كي يقنع أباه بأن الخم، الذي تركته روزا، تهرأ فأضحى ضروريا توسيعُه بملحق للديك الرومي وأنثاه وأفراخهما. فجاءني وناقشني في تصور الهيكل. فطمأنته على أنه يستطيع أن يحْضر بنفسه أطوار الإنجاز. فرفرفت على وجهه الفرحة. وظل خلال دراسته الإعدادية يجد في كل مرة ذريعة لزيارتي في مشغلي؛ مثل حاجته في درس الكهرباء إلى قِطع ألواح يقيم عليه الدارة الضوئية والقواطع والمقابس وإلى معدات نجارة يدوية خفيفة ليصنع بيوتا خشبية صغيرة لبعض أزواج الحمام الأليفة. وبهره إذ دخل مقصورتي الصغيرة، التي كنت أتخذ منها مكتبا، نظافتها وترتيبها. وتعجب لي: كل شيء في مكانه وكل مكان لشيئه.» وتفحص الأقلام والمساطر على الطاولة والجدول الزمني المعلق في سبورة صغيرة والمصباح المكتبي والمذياع وكذا خطاطات بمفاصل للأشياء التي يتم نشرها وتركيبها. وقال لي: كأنه مكتب مهندس.» فامتد بيننا معْبَر إلى صداقة حقيقة من يوم انتقاله إلى الثانوية.

وكان لما وقف علي يوما يدعوني إلى عشاء في بيتهم، أقامه

والده لبعض رفاقه القدامى في حرب التحرير، هلّت ملامحه بتلك الرغبة الخافية في الميل إلى عمل رجولي، يحسب مهارة النجارة من صفات الفحولة لا تراها غير النساء. فقلت له: يكفي أن أدربك بعض الوقت.» فنظر إليّ في صمت باسما بهياً. ثم مد لي يده رجُلا لرجل. فرأيت كأن الدنيا أشرقت في عينيه! لعله حينها كان غوى بصنع أثاث غرفة نومه القادمة، ورأى الزهرة توزعه في غرفتهما بما يروقهما! وربما كان يومها تمنى لو استطاع أن ينْفذ إلى سري مع فلّة ليعرف أني عشت لنساء من نوع مختلف بحب ليس كما كان سيحب الزهرة.

وفي بدء الربيع الذي صادف سنته النهائية في الثانوية سلمته نسخة من مفتاحي المشغل والمقصورة قائلا له: هذا أفضل مكان لتركيزك.» فصار ما قضى نهاية أسبوعه إلا في المقصورة، بُعيد انصراف العاملين، وسط رائحة الحيطان القديمة والخشب والبرنيق إلى أن يُرفع أذان العشاء فيتوقف عن المراجعة وحل التمارين ليعود إلى بيتهم.

ذات يوم فاجأني بأن قدم لي قصة لأقرأها، كانت الزهرة أهدته إياها. فسعدت كثيرا بها والتهمتها في ساعات وسألته، أعيدها له في يوم موال، إن كان عنده شيء من قبِيلها! ولما غادر المشغل قبل الامتحان بثلاثة أيام ليستريح كنت أنهيت قراءة عدد من القصص الرومانسية المقتبسة. حتى إذا عاد بعد شهر ليخبرني بنجاحه، فغمرتني غبطة عارمة، عاين بابتهاج أن المقصورة لم يعد فيها أدوات

وخطاطات فحسب، ولكنْ كتب أيضا لجبران خليل جبران ولجرجي زيدان وأخرى مترجمة لكتّاب عالميين، صففتها على رف هيأته في المقصورة. ثم راح كلما رجع من الجامعة في عطلة، مهما تكن قصيرة، زارني وقدم لي كتابا جديدا. ثم تحدثنا في موضوع الكتاب السابق.

وفي عطلته الصيفية الأولى كان وجدني صنعت له مكتبة صغيرة شحنتها بنفسي إلى بيتهم مفككة وركبتها في غرفته بمساعدة والديه سي الطيب وغزالة فقلت له: هدية نجاحك.» فكاد يجهش من وقع المفاجأة.

كل شيء في النهج، الذي دخله، كان ينطق بتذكارٍ بأسماء رجال ونساء لا يزالون أو هم ذهبوا؛ مثل روزا تخيل جمالها بلون زهرة. وعاودته الرجفة من ملامح أبيه التي تشددت لما سأله عن النصرانية كيف صارت جزائرية، مختلسا إلى صوته أن يظهر فيه أثر لِما كان يمكن لقلبه أن يخبئه لرومية مثلها. فلم يرتدّ إليه منه ما ظنه شغفا بها لما أجابه: في الفرنسيس أحرار يراعون العدل ويبغضون الظلم ويُعلون الشهامة. روزا واحدة من أصولهم! رعيتها مثل أخت لي لعفّتها. كان يمكن أن تكون عمتك حقاً.» فتصور كم كان والده كبيرا في عيون روزا بشخصه النزيه سائقا في شركة وطنية؛ لم ينخرط في نقابة ولا انتمى إلى تنظيم.

ففي النهج نفسه كانت خادمة روزا جرت في إحدى القيلولات إلى والده في بيته القديم وأخبرته مذعورة أن شخصا يحاول الاعتداء على سيدتها. فخرج راكضا. ولما وصل وجد الرجل،

في حال سكر، يصر على دهم باب غرفتها. فوجه له ضربة في كليته فتوجع شادا على خاصرته. وأردف له ركلة في حجره لما دار نحوه فتهاوى بأنين كلب. ثم جرجره إلى خارج الحوش تحت نظر روزا تطل مرعَبة فحيّاها بيده وتمنى لها قيلولة هادئة. فتحدثت المدينة بذلك أياما.

لصمْت أبواب بيوت النهج انقبض. ولوّعته ومضة أسفٍ على انحجابه عن بوركبة خلف الباب إذ جاء إلى الزهرة قائلا لها: أريد فقط أن أقدم له سلاحي.» وشعر أنه لم يخالص ضميره لّما أجابها بعد انصرافه: لا أريد أن أورطه! ثم ما ذا كنت سأفعل برشاشه؟».

وهصره شوقٌ إلى الجلوس في مقهى الساحة ملتهب الرغبة في دخول الحمام العتيق. لكن ما إن بدت له منارة مسجد الجامع، القريب من بيتهم، ترنو إليه من علو غير بعيد حتى تفكّر حومانه في ما وراء سماء الدنيا ذات مرة! فقد دخله رفقة أبيه صباح عيد متزيّناً متطيباً ونطق "الله أكبر.» فشعر أنه سبَح في فيض من الضياء.

وتبسم له إسماعيل قائما في محرابه يوم تلك الجمعة قبل أن يتهاوى في وقار مضرجا بدمه.

وتوهم الحيطان رددت له صدىً من صوت أبيه: يجب أن تدرس وتتفوق! وافتخرْ دائما أنك من سلالة أحبت أرض الجزائر».

وأمام ما كان يوما كُتّابه، توقف لحظات فألفى بابه مسدودا. فتحرك لسانه بما أشعّ في فؤاده وهجاً إذ نطق الكلمة الأولى من الفاتحة! ثمةَ رسم حرف الألف والباء فالتاء والثاء. ثم عاد إلى أبيه

بالسر. وبعد أيام ركّب الراء والشين والياء والدال فشعر أنه ملك سحرا غافل أمه فنقش لها منه على حائط الرواق غينا وزايا وألفا ولاما وتاء. ثم هرب. فتوقفت أمام المخطوط بطبشور أحمر أتمحوه أم ما ذا تفعل. فضحك من خلفها ناطقا بابتهاج: هكذا يسمُّوك.» ثم نام على أن النجوم إنما كانت لتُختار منها الأسماء بالحروف التي كُتب بها القرآن. لكنه يوم دخل المدرسة اكتشف حروفا أخرى لا تقل سحرا. وأرى أباه كيف يستطيع أن يكتب اسمه بلغتين.

لما ذا كتب لأمه بالأحمر، كيف تذكر نغزة شوكة الفرع فرأى دمه أحمر إذ قطف زهرة من شجيرة الجنينية وقربها من أنفه واستنشق ثم قدمها لأمه فروت له أن روزا كانت أشد عناية بشجيرات الورد من أي شيء آخر! فتعجب لها أنها كانت ترسم أيضا؛ مستعيدا فرحة معلمه وهو يتمعن اللوحة ويتلمّسها بأصابعه! فقص ذلك على أبيه فأخبره أنه وجد اللوحة في مرسم روزا ضمن لوحات أخرى للطبيعة ولوجوه غير عربية، كانت بورتريهات لعائلتها. وكشف له بعد سنين أنه وجد في المرسم، الذي حوله غرفة نوم، خاتما نسويا من الذهب وأسوارة عاجية ومناديل ومرآة وأدوات زينة لَمّها ثم سلمها إحدى معارف روزا كانت جاءته من العاصمة لتأخذ الرسوم، فلم يُبق إلا على تلك اللوحة قائلا لها: إلا هذه».

2

فلما فتح باب بيتهم صعقت وجدانه شحنات من الحزن والغيظ والألم الباطني. ودخل صحن الحوش ففغر عليه الصمت. كانت الجنينة مخرَسة، وقد اختنقت فيها شجيرة الورد وتيبست أشجارها المثمرة وأصدأ ما فيها من حديد ونخر خشبها. كان الزمن دحر كل التفاصيل. وكل شيء حي كان الموت البطيء أخمده.

وشهق لما خطا في الرواق المنكفئ على قزح قديم بلون دم أبيه وأمه وأخته. وألفى أبواب الغرف مسكّرة. فهزته رعدة، للأثير النائم منذ ثلاثة أعوام، قد استيقظ لحركته فانفتح له باب غرفة أمه فاستحالت له كما كان دخل عليها عائدا من الجامعة ثم من الثكنة آخرة مرة إذ قامت له فقبّلته وتحسّسته وسألته أخباره آخذة يده في يدها بفزع لا يخفى فلم يهتد إلى منطق به يوقن قلبها فاغرورقت عيناها فطمأنها بصوت موارب: السلامة من الله.» فيما ذهنه منصرف

إلى الرسالة التي تلقاها من الجماعة تهدده بالتصفية إن لم يلتحق بصفوفها، كان استخرجها من صندوق بريده مع رسالة من الزهرة، فدخل المرحاض وأحرقها. وفي سريره بالثكنة قرأ كأنه يسمع صوت الزهرة: أنا مشتاقة، والعائلة بخير. يشغلني فقط أمر الوالد. في الأيام الأخيرة صار أكثر صمتا. ليتني أدركت السر.» فتراءى له على رسوخ الأولياء.

• وقابله، جنب الخزانة، السلمُ المطوي الذي كانت أمه تستعمله أيضا لرفع الأغطية وإنزالها. فألهبت جوانحه لوعةُ تذكار نجاة إذ عثرت خلفه في الجنينة وبكت. فعاد إليها وحملها وأصعدها عبر درجاته. ثم رفعها من إبطيها لتطل على العش. فرأت ثلاثة أفراخ زُغباً فاتحة مناقيرها تظهر لها أنها ستموت عطشا من كثرة لهثها. فصرخت: تريد الماء.» فيما كانت العصفورة الأم حوّمت ثم حطت غير بعيد مستطلعة في ذعر.

وزفر: كيف لم ينتبهوا إلى السلم المطوي! غشيتهم فلم يبصروها. وتسلقت درجاته أثيرا لم يحسوه. كيف اندست بين الجدار وبين الحقيبتين فانفتح لها شعاع لتشهد انفجار الدم وتسمع حرحرة الموت».

فتردد له صوتي مرسوما كلماتٍ على وجوم الغرفة أُخبره في البرقية العاجلة: وقع للعائلة مكروه. لا تتأخر.» فأخفى عنه ضابط المداومة، الذي كان تلقى النبأ زوالا، الحقيقة حتى الصباح ليجنبه خطر الحواجز المزيفة التي تنصبها الجماعة في الطرق نهارا أحيانا وفي

الليل غالبا.

فقد كان وجد الباب ملفعا برائحة المذبحة، فلم ينطق. لم يتحرك. لا بكى ولا انتحب، واقفا بيني وبين بوركبة. فناديته من عمق الذهول أحضنه: كان الله وهو الحي الباقي! سي الطيب لم يستعمل سلاحه لأنهم باغتوه نائما.» فخبط خبطاً متخلصا مني. فأمسكه بوركبة من ذراعه وضمه إليه بشدة. ثم مرر براحته على رأسه قائلا له: البقية فيك وفي نجاة».

فخلّص رأسه فاضا غشاء فاجعته رافعا إلى السماء عينين ساكنتين. ثم نظر إليّ فأعلمته: نجاة عندي في البيت.» فكبس نشيجه. فربت بوركبة بيديه على كتفيه قائلا في ثبات: سي الطيب كان رجلا شهما. أعرف أنك ستحفظ له شرفه.» فهز رأسه مطرقا ثم أسرع يدخل في فراغ الموت.

كأنْ لا شيء بُعثر في غرفته! حتى كتُبه تخيلها أزاحت عنها وجومها ونزلت من على رفوفها فاتحة دفتيها ذراعين ترحيباً ثم عادت منغلقة. كان سطح مكتبه عاريا وكرسيه واجما. حدث ما أعجلهم فلم يحرقوها ولا أتلفوا الشهادات المعلقة! ذبحوا فحسْب!

فدار حول نفسه ناطقا ما كان قاله ليزيد: لم يكن في البيت مال ولا ذهب ليستولوا عليهما ظانين أنهم لم يُبقوا على نفْس إذ انسحبوا.» لا يدرون أمر نجاة فوق الخزانة مغشيا عليها على آخر ما ردده حامل الخنجر: كلهم! كلهم.» فتنهد. كانت علقته بيديها الصغيرتين الراجفتين ليأخذها معه إلى البيت، في اليوم الثامن على المذبحة،

فأقسم لها أنه راجع إلى العاصمة ليحضر لها دمية كبرى تتكلم وتلبس ثوب العرس الذي خاطته لها مبروكة.

وفي غرفة أختيه غرس أصابعه الثمانية في كفيه شداً على مغص إذ رأى محفظة مبروكة المدرسية موضوعة بعناية فوق طاولة صغيرة مستديرة تجلس إليها، وعليها دفاترها وكتبها وأقلامها ومقص وفرشاة رسم. وعلى مشجب معطفها. وبين السريرين الصغيرين صندوق لعبها هي ونجاة.

كل شيء بدا له ملتفا على حزن عتيق يكاد ينفجر نشيجا للمسة أو همس منه؛ حتى المطبخ بأوانيه! حتى أشياء الجنينة التي خرج إليها هوناً؛ فأبصر الجزمة المطاطية عند قَدم شجرة اللوز والمسحاة الواقفة بين شجرتي التين والأجاص ومقص التقليم والمنجل والقادوم المركونة إلى جدار الصهريج وخم الدجاج المهجور عند حائط السور ومسجن الأرانب المقفر! كلها كانت قبل ثلاثة أعوام تنبض حياة وحركة.

وأطل على حوض الصهريج الفارغ فارتدت إليه علائم الحزن من تلك الأشياء التي رمتها فيه نجاة؛ حتى حذاء مبروكة الرياضي تكلس لأنها لم تصنع لها نعلا لدميتها! وكذا المرميات الأخرى التي تنم، لكثرتها، عن أن مبروكة نفسها تواطأت في غياب أبيهما على اللعب معها أحيانا لعبة فرقعة الماء. كما باب السور الخلفي المغلق بمزلاج متحرك مُخرَس بانتظار؛ لطالما تسلل منه إلى الزنقة الخالية من المارة إلا لَماما لملاقاة الزهرة؛ مثلما كانت أمه لا تخرج إلى الحمام إلا

عبره وحين عودتها تنشر بشكيريها الموردين وأشياء أخرى على السلكين لا يزالان ممدودين وبهما مساسيك خشبية انتخر بعضها.

وعرّض وجهه لأشعة الشمس الأولى، المطلة من خلف السور، فأحسها تفرك عينيه بدفء فتنفس عميقا. وكان سيمطط ذراعيه لما سمع طرقا مفاجئا على باب الحوش فتحسس مسدسه على تكرار الطرق بإلحاح واقترب على حذر فتسمّع فزحلقت إليه ورقة رفعها؛ كانت الزهرة تشعره بوجودها.

ففتح ثم أغلق خلفها يسألها: وحدك؟» فأخطرته أني أنتظر مع شخص آخر، لم يكن سوى يزيد، الذي دق بابي قبل ساعة وقدم لي نفسه وأراني بطاقة مهنية رسمية ومسدسا، ليزيل عني ريبي. وأخبرني أن رشيد كان أوصاه بالاتصال بي في حال الضرورة. وقال لي بلهجة ملزمة: يجب أن أقابل رشيد حالا لأنه مهددا! سلامته مرهونة بأن نسبق الآخرين إليه.» من غير أن يفصح لي عمن يكون أولئك الآخرون. فأسرعت معه إلى الزهرة.

فوضع يده على مسدسه فشدت عليها قائلة: أنت تعرفه.» فتململ: بوركبة؟» فقد كانت ظنت هي ذلك لما دققت على بابها وأشعرتها: في رفقتي شخص يعرفك».

فأبلغتْه: أخبرني أحمد أنه أصيب بوعكة فنقل إلى المستشفى». فانفعل. فطمأنْته: وضعيته غير مقلقة.» وأضافت: ستسعد برؤية الشخص! زارني قبل قليل رفقة أحمد. كان يريد أن يقابلك حينا. قدتها إلى الشقة فوجدت كلمتك القصيرة فرجعت بهما. إنهما

ينتظران».

فتخوف لها أن نكون رُصدنا. فنفت له. فتحرك نحو الباب فسبقته وفتحت. فدخلت ومن ورائي يزيد. فأطل علينا بملامح تناثر عنها فجأة كل حزن. ورأيت يزيد تأمل وجه صديق عرفه هادئا سمحا قطع بغتة كوابح الإنسان المتنور وهزّ العالَمَ الغاشم من حوله بطلقتين.

أوسع ذراعيه بأقصى درجة وحضنه على زفرة، فيما أرسلت الزهرة نظرات قلقة مستنجدة بي. فأشرت إليها بعينيّ نحو السماء على حيرة غير خافية. فبرغم انفجار لحظة اللقاء بتراصيع السعادة كان يزيد يبدو قلقا يضغط حركته ونطْقَه استعجالٌ بيّن: يا الله! ليس أمامنا وقت.» فعانقه قائلا لي: لا بد أن تكون عرفت هذا الرجل.» فأكدت له بابتسامة. ثم التفت إلى الزهرة فلاطفها: كيف تأتمنين شخصا لا تعرفين ما ذا صار منذ أعوام.» فردت عليه بأنها رائحة التذكار التي لا تخون، بينما كنت تراجعت نحو الباب وفتحته بالنصف أُطلّ. ثم أغلقته ووقفت في استعداد من يقيم حراسة مهيئا مسدسي، الذي كان أول شيء حملته بعد أن لبست وهدّأت من روع حورية وتفقدت نجاة النائمة نوما عميقا.

كان رشيد بعثر كل ملاطفات يزيد وقال له بحزم: انتقلت خصيصا لأتدبر أمر إخراجك من المدينة قبل وصول مجموعة خاصة من الأمن تمّ إرسالها من العاصمة! يجب أن نسرع.» وهمس له خاطفا نظرة إلى الزهرة الفزعة: هناك أشخاص في المستويات العليا ردوا

عدم إلقاء القبض عليك بعد أكثر من اثنتين وسبعين ساعة إلى تواطؤٍ مَا في الأجهزة الأمنية المحلية حصل من مسئولين ستوجه لهم تهمة التقاعس». وأكد له: يعتبرون رد فعلك الدامي عملا يقوض ما يقيمون عليه سياستهم الجديدة في فكّ الأزمة الأمنية. ثم شد على ساعده يوثّقه: لكن تأكد من أن مسئولين أمنيين آخرين مقتنعون بأن ما دفعك إلى تحكيم عدالتك الشخصية، في حق مذنب بُرّئ من غير محاكمة، هو القرار السياسي الذي يعطّل العدالة لتكريس مبدأ اللاعقاب».

فرد عليه مبتسما: أحس أني أستعيد قياس الزمن الذي افتقدته منذ أربعة أيام. الآن يمكن لي أن أبدأ عدي التنازلي لأنهم سيغتالونني.» فلم يعلق. ونبهه ناظرا في ساعته: قبل ساعات نزل إلى أجهزة الأمن أمر بإلقاء القبض عليك بجميع الوسائل. أتوقع أنهم يكونون شرعوا في إقامة نقاط مراقبة في مخارج المدينة.» ثم أمره بقطعية: لا تستعمل سلاحك تحت أي عذر! حتى ولو حدث أنهم، لسببٍ مَا، كانوا البادئين بإطلاق النار».

وأشار إليه نحو الزهرة قائلا بلهجة جافة: يكفيها! والدها، وأبوك وأمك! لم يبق لبعضكما سواكما! من حقها عليك أن تحيا لها.» فراحت عيناها لا ترسوان على موضع متأثرة بدمعة ملحة. ورد هو عليه بصوت يفرمه التأثر: يزيد صديقي، كم أنا ممتنّ لك.» فتهرب عنه مشيرا إلى الزهرة أن تقترب لينطق لهما بكلام قطعته فجأة صفقة باب سيارة توقفت.

وإذ وقع الطرق قاطعا ملحا التفت آليا إلى باب السور المفضي إلى الزنقة، حيث كانت الزهرة أرشدت يزيد إلى أن يوقف سيارته لنترجل إلى الباب الأمامي. ورأيت يزيد يتوقع لرشيد أن يكونوا رجال المجموعة الأمنية الخاصة، قبل أن يشير إلي بيديه أن أهدأ؛ لأني كنت وضعت قبضتي على سلاحي خلف خاصرتي. وأمر الزهرة أن تدخل إلى الدار رفقة رشيد.

ثم أومأ إليّ أن أفتح، وقد انزاح خلف دفة الباب. فنطق الضابط لخضر في بدلته الرسمية الميدانية قائلا لي: من سيكون غيرك؟» ولم يصافحني، مكتفيا بنظرة لوم نحوي. فأفسحت إليه. فلم يتقدم خطوة. وقال كأنما يكلم غيره: حاولت أن أسبقهم. سيصلون بين لحظة وأخرى.» فلم أنطق. وسألني عمن يكون الشخص الموجود في الداخل مع رشيد والزهرة؛ فإنه كان قبل نزوله استكشف الشارع الذي يقع فيه بيت الطيب بن العربي وعرّج على الزنقة فلاحظ السيارة فأمر أحد أعوانه بالتموقع قريبا منها لأن مخبره كان رصدنا مذ خرجنا من عند الزهرة، فلم أجبه. ففاجأني بلهجته الحادة قائلا: أخبر صاحبك أنه في خطر».

فطلب إلي يزيد أن أتنحى وأطل عليه، واقفا في صرامة عسكرية، فدعاه إلى الدخول. ثم كشف له هويته ورتبته فتبادلا احترامات خاطفة وتصافحا. فكانت شدة الضابط لخضر، على يد الضابط الفتيّ المتيقظ، حارة: سمعت عنك. تمنيت لو أنك أشعرتني!».

لكن يزيد اختزل له: مهمتي محددة بأخذ السيد رشيد بصفة استعجالية.» فأصر له على أن رشيد يوجد في مقاطعته وهو تحت مسئوليته، مؤكدا: تلقيت، قبل ساعات، تعليمات صارمة باتخاذ ما يوصل إلى إلقاء القبض عليه».

فرد بنبرة عسكرية حازمة: ومن جانبي تلقيت من جهة عليا تعليمات قاطعة بإخراج الشخص من المدينة سالما.» وتذرع له، ملينا لهجته، بأن الوقت لا يكفيهما لإثارة جدال حول حدود الصلاحيات، مضيفا باحترام: حضرة الضابط لخضر، ثق بي! لم أسمع عنك إلا ما يرضي الضمير المهني والشرف العسكري! لذلك أقدر أنك لا ترغب مثلي في أن يذهب السيد رشيد ضحية تنازع لا جدوى منه».

ثم نظر إليه برجاء. فحرك رأسه مقلصا شفتيه. لكن جلبة قوية ارتفعت إثر توقف سيارات أخرى عند الباب. لم يتحركا. تخاطبا بأعينهما. ثم نطق له بأمر عسكري: تدبر أمر الآنسة الزهرة كي تخرج في الحين قبل أن يدخلوا.» وتوجه إليّ أن أفتح وأُحكم الغلق خلفه، فيما رجع يزيد ركضا نحو رشيد، الذي خرج من البيت تتعبه الزهرة على حال من الارتباك، وطلب إليه إن كان من مخرج آخر. فنطقت الزهرة منفعلة: الباب الخلفي.» فرمى إليّ رشيد المفاتيح وتبعهما يركض.

وعلى حسرجة المزلاج سمعت الضابط لخضر يقول لأحدهم: لا أحد في الداخل سوى شخص من أقارب المطلوب...» فأحسست سماء المدينة المنغلقة على قلبي منذ أربعة أيام قد انفتحت. وبعد حين

طرق علي الباب ففتحت. فأصدر القائد أوامره إلى أفراد فرقته، على تحذير بأن المطلوب شخص خطير ومسلح. فدخلوا مشهرين مسدساتهم الرشاشة في وضعية قتالية، أصابعهم على اللسينات يتقدمون خطوة خطوة على استعداد حازم لإطلاق النار.

في الأثناء، كان الضابط لخضر أبقى بعض أعوانه أمام الباب وأقلع بسرعة فائقة ليجد عونه الآخر يحتجز الثلاثة في الزنقة، غير مبال ببطاقة يزيد المهنية ولا بشروحه. فقد تعرف على رشيد؛ لذلك رفض أن يتركهم يتحركون إلا بأمر من ضابطه، الذي نزلَ في قفزة واحدة وأمره: تخلّ! نحن نعتبر المطلوب في قبضة حضرة الضابط أمامك».

ودار نحو الزهرة قائلا بحزم: أما أنت يا آنسة فيجب أن تلتحقي ببيتكم.» فأسرع يزيد إلى سيارته وفتح لرشيد بابها الأمامي فرمى رجْلا إلى داخلها وأبقى الأخرى ناظرا باستغراب إلى ضابط شامخ وردد: رجال.» ثم ركب تحت إلحاح يزيد.

حتى إذا اختفت السيارة من الزنقة يمينا، لتدخل النهج ومنه نحو الشارع الرئيسي مبتعدة بكامل سرعتها، أصدر الضابط لخضر تعليماته باللاسلكي إلى أفراد مجموعته، عند مخرج المدينة الشرقي في اتجاه العاصمة، بأن يفسحوا المرور لسيارة ذات مهمة رسمية، مبلغا إياهم نوعها ورقمها. ثم أغلق جهاز اتصاله فسمع من ورائه من ناداه: حضرة الضابط لخضر، احتراماتي.» فالتفت إلى المفتش حسن على بعد خطوتين منه وسأله: هل عثروا على شيء؟» فأجابه مبتسما:

تركهم يقتحمون المنزل.» فإنه كان هو الذي أوصل مجموعة التدخل السريع حتى الباب من الجهة الأمامية وراح يتابع تطور المجريات من داخل سيارته.

واقترب منه قائلا بمودة: لا أدري ما ذا كان سيفعله شخص مثلي في ما حصل.» فرد عليه بانشراح: يفعل ما يمليه عليه ضميره! التقيد بالواجب الحرفي يبلّد العقل أحيانا.» فصمت مدخلا يديه في جيبي معطفه ناظرا بعيدا مسترجعا، لا محالة، لحظات من شدة أساليب الاستنطاقات التي شاركه فيها ومن التدخلات المسلحة المسندة التي جمعتهما في الاشتباكات مع أفراد الجماعات في أحياء من المدينة.

ثم نطق له بصوت دافئ: حضرة الضابط، سعدت كثيرا بمرافقتك.» لكنه التزم صمتا معبديا. فحيّاه وتولى عنه إلى سيارته وغادر.

حينها، زفر لرعشة مباغتة غامضة هزهزت جسده. وتأمل من حوله الفراغ بلا دلالة. ثم تقدم نحو السيارة وركب على يمين عونه هادئا متفكرا.

سعيدة/ أدرار، 2006

طبع هذا الكتاب في دار الحكمة
للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

لم يكن بيننا وبينهم، كما أتصور، شيء مُقدس نموت أو يموتون من أجله. ولكنْ، ألمْ يكونوا يواجهوننا بإيمان لإقامة الخلافة فكنا نرد عليهم بمسؤولية لاستمرارية الجمهورية؟ لا أدري. إنما الذي كنت عليه شاهدا هو أنه كلما تضرج واحد منا أو منهم في دمه أحسست ترابنا، نحن الطرفين، زفر أنينا وأسمعَنا صدى حماقتنا وقال لنا: خُطاة مذنبون! لم أعترف لغيرك بهذه الكلمات؛ فإنها دليل حكم عليّ بالعقوبة القصوى. غير أني صرت لا أخاف أن أسمع صوتي حينَ أفكر في سؤالي عن الموت مذ رأيته على وجه عليّ. أظن أن عليّ كان يعتقد أن الذهاب إلى الجنة، عبر طريق الدم، أرحم من أن تستمر حياته وسط جحيم الظلم في هذا العالم».

